الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
جامعة قاصدي مربـــاح ورقلـــــة
كلية الآداب و اللغات
قسم اللغة و الأدب العربي

النقد الأدبي في المغرب العربي

من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الرابع الهجري

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في اللغة والأدب العربي

تخصص: النقد المغربي القديم

إعداد الطالب :
محمود بن راس

تحت إشـــراف :
الأستاذ الدكتور: عبد الحميد هيمة

الموسم الجامعي: 2018/2017

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى والديّ الكريمين بارك الله تعالى في أنفاسهما أهدي هذا

العمل المتواضع بكثير من الحب و التقدير

أملا في رضاء الله المعلّق بهما

شكر وتقدير

في هذا المقام أجد نفسي أمام بحر من الودّ حباني به أساتذة وزملاء وأصدقاء كانوا مثل النّجوم للمهتدي و كالبّدور للمقتدي

كلّ الشكر لجميع معلميّ و أساتذتي من الصبا إلى اليفوع

كلّ التحية و التقدير لجميع أسرة قسم اللغة و الأدب العربي

شكر خاص

إلى من أكرمني الله بإشرافه على هذا البحث ، فكان

نعم الأب قبل المعلّم، و نعم المرشد قبل المشرف

الأستاذ الدكتور: عبد الحميد هيمة

شكرا يوازي جهوده و عطاءه

مقدمة

يتحدث المؤرخون و الباحثون غالبا لما يكون الموضوع بلاد الغرب الإسلامي عن الدولة الصنهاجية باعتبارها المرحلة الذهبية في هذه المنطقة من كل النواحي ، حيث عرفت هذه الرقعة في تلك الحقبة ثورة معرفية كبيرة حتى عدّت القيروان حينها العاصمة الثانية في العالم العربي والإسلامي بعد بغداد ، خاصة و أنها كانت نتاجا لتآلف خصوبة المنطقة من ناحية الروافد الثقافية و التنوع البشري والاجتماعي مع الإرادة السياسية الرشيدة التي تمثلت في بلكين بن زيري و بنيه من بعده بالتحديد المعزَّ بن باديس و ابنَه تميم ، ثمّ إنّ هذه النهضة كانت قائمة على أكتاف الأبناء الأصليين لبلاد المغرب المسلمين المستعربين، العالمين بطينته و طويته و مكوناته الاجتماعية، كما أنها شملت أغلب إقليم المغرب العربي، و يشهد لهذه النهضة ذلك العدد الهائل من العلماء و الفقهاء والحكماء والأدباء و الشعراء والوزراء الذين امتلأ بهم بلاط الدولة الصنهاجية، و الذين اجتمعوا في تلك الفترة و لم يجتمعوا في فترات لاحقة من تاريخ المغرب الكبير، و لا شك أن تقديم المغرب لعالم بحجم ابن أبي زيد القيرواني الذي لقب في ذلك الزمن بمالك الصغير ، الذي كانت تيمم قوافل العلم صوبه ، يعد كفاية لمعرفة حجم تلك النهضة .

يذكر المؤرخون أن البلاط الصنهاجي ازدحم بأعدداد كبيرة من رجال العلم و السياسة والثقافة و الأدب، الشعراء الفحول المغاربة الأصليين مع عدد لا بأس به من شعراء الأندلس و عدد بسيط من المهاجرين المشارقة ، إضافة إلى عدد كبير من علماء اللغة والكتاب و النقاد ، و لا ينكر أحد أن القاعدة التي انطلق منها الأدباء المغاربة كانت التراث المشرقي بكل ثرائه و تفاعلاته و مميزاته، لكن المغاربة استطاعوا مع تراكم السنوات و الرغبة في تحقيق الذات ، أن يعرّفوا عن أنفسهم بأسلوب خاص عكس شخصيتهم وواقعهم و تجلّى ذلك في كتاباتهم و أشعارهم ونقدهم فشكلوا بذلك مدرسة أدبية و نقدية خاصة بهم ، مطبوعة بفكرهم، و مرقونة بمنطقهم، تحمل تاريخهم و مناخهم وعقليتهم، وأصالتهم و امتدادهم اللغوي و الديني الموصول بين العالمين المشرقي و المغربي ، الذي ليس هناك من فرق بينهما أصلا إلا في الجغرافيا ، و لعلنا نذكر أن من أهم نقاد هذه الفترة، عبد الكريم النهشلي ، وإبراهيم الحصري، و أبي جعفر القزاز ، و ابن شرف القيرواني، و في مراحل متقدمة بعد ذلك نجد ابن البناء العددي و العبدري و حازم القرطاجني و غيرهم .

و قد أفرد هذه الحركة النقدية بالدراسة الكثير من الباحثين نذكر منهم : بشير خلدون في كتابه الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي، ومحمد مرتاض في كتابه النقد الأدبي القديم في المغرب العربي ، إلى جانب عبد العزيز قلقيلة النقد الأدبي في المغرب العربي ، و أحمد يزن في كتابه ،

النقد الأدبي في القيروان في العهد الصنهاجي ، وعبد السلام شقور في بحثه الموسوم أوليات النقد الأدبي بالمغرب ، و بحث علي لغزيوي الموسوم بالنقد الأدبي القديم في المغرب روافده و اتجاهاته ، المنشوران ضمن كتاب ندوة حول جوانب من الأدب و النقد في المغرب الأقصى ، و غيرها ، والملفت للاهتمام أن جميع هؤلاء الكتاب ركزوا على الفترة الممتدة من نهاية القرن الرابع إلى نهاية القرن الثامن الهجري باعتبارها فترة الازدهار و التبلور للنقد الأدبي في بلاد الغرب الإسلامي، و لم يتعرض أحدهم إلى ما قبل هذه الفترة التي سبقت وأسست لها و كانت إرهاصا لظهورها إلا بشكل بسيط ، خاصة أن هذه الفترة تعد طفرة و مرحلة فارقة جدا في تاريخ النقد المغربي و العربي عموما ، لها جذورها التاريخية الضاربة في عمق التراث العربي ، و لها قاعدتها المعرفية والفكرية التي انطلقت منها و بنيت عليها ما يجعل هذه الإرهاصات لا تقل أهمية عن تلك النهضة بل سوف تكون أكثر أهمية منها باعتبارها الأساس و الأصل ، و لعل سبب ذلك عائد إلى نقص المدونات المغاربية في هذا المجال ، وما هو موجود لم يطبع إلا في مراحل متأخرة عن هذه الدراسات مثل كتاب قطب السرور لأبي إسحاق الرقيق القيرواني المطبوع كاملا سنة 2010م بمنشورات الجمل ، وكتاب تلقيح العقول لبرية بن أبي اليسر الرياضي المنشور بنفس الدار سنة 2003 م ، إضافة إلى رسالته الأخرى الموسومة بالرسالة العذراء التي أثبت المحققون أنها له و ليست كما أثبتها محققها زكي مبارك لابن المدبّر ، ما يعني انضمام مؤلف مهمّ للمكتبة النقدية المغربية باعتبار أن الرسالة العذراء في صميم الأدب و نقده ، هذا كله مع ما يمكن أن يستخرج من مختلف الخزائن من المخطوطات المغاربية التي يجمع المختصون أن الكثير منها لا يزال حبيس خزائنه في مختلف دول العالم.

لكن مع الإقرار بندرة المصنفات النقدية و الأدبية المغربية القديمة إلا أن المادة العلمية موجودة لكنها متناثرة في كتب الطبقات و التراجم و الرجال و التاريخ والأنساب، إلى جانب كتب الكنى والألقاب و بعض كتب الفقه و الحديث وغيرها، ما يجعل العمل و البحث عن النقد في هذه المرحلة شاقا جدا و يتطلب الكثير من الوقت و الجهد.

هذا الواقع المعرفي الجديد يحتم على الباحثين اليوم مواصلة المهمة العلمية التي أوكلوا بها لإتمام العمل الذي بدأه الأسلاف، و لإعادة ترتيبه و تهذيبه و توجيهه، فكم ترك الأوائل للأواخر .

و بما أنني في مرحلة الماجستير بحثت عن الفكر النقدي عند ابن رشيق القيرواني من خلال كتابه أنموذج الزمان في شعراء القيروان، و هو البحث الذي يدخل في مرحلة الازدهار النقدي المغربي

الذي تحدثنا عنه آنفا باعتبار أن ابن رشيق هو رائد هذه المرحلة ، فقد ترك هذا البحث في نفسي الكثير من الأسئلة لعل أهمها : كيف تمكن ابن رشيق من استجماع هذه الثقافة النقدية في بيئة مغربية، و لماذا جاء الفكر النقدي المغربي في هذه المرحلة مشرقي المظهر في عمومه، و من هم الأوائل الذين بشّروا بميلاد النقد المغربي الذي ازدهر فيما بعد القرن الرابع الهجري ، على يد النهشلي و ابن رشيق و غيرهما ، و ماهي المصادر و الروافد التي استقى منها الفكر النقدي المغربي ، لذلك عزمت أمري على مواصلة المسيرة التي بدأتها بالعودة للبحث عن الأصول و المنطلقات التي تأسس عليها الفكر النقدي المغربي من الفتح الإسلامي إلى بداية عصر الازدهار أي نهاية القرن الرابع الهجري ، محاولا الإجابة عن الأسئلة السابقة و غيرها ، فكان هذا البحث الموسوم بـ: " النقد الأدبي في المغرب العربي من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الرابع الهجري"، معالجا إشكالية مبدأ التفكير النقدي في بلاد الغرب الإسلامي، التي يندرج تحتها أسئلة أخرى كثيرة نذكر منها:

أولا: من هم الأوائل الذين بشّروا بميلاد النقد المغربي الذي ازدهر فيما بعد القرن الرابع الهجري؟

ثانيا : و ماهي المصادر و الروافد التي استقى منها الفكر النقدي المغربي القديم ؟

ثالثا: ماهي الأصول و المنطلقات و المعطيات المادية التي تأسس عليها الفكر النقدي المغربي القديم ؟

وغيرها من الأسئلة الكثيرة التي تخدم في مجملها السؤال الرئيس في هذا البحث .

و انطلاقا من هذه الإشكاليات و بناء لما توصلت إليه من خلال البحث نجد أن المغرب العربي عرف قبل زمن ابن رشيق العديد من الأعلام الذين كانت لهم مشاركات نقدية بشرت بميلاد النقد المغربي القديم نذكر منهم : برية بن أبي اليسر الرياضي ، و أبي إسحاق الرقيق القيرواني ، و أبي العرب التميمي الإفريقي، و أبي جعفر القزاز ، و محمد بن الحارث الخشني وعبد الكريم النهشلي وغيرهم ، إضافة إلى الكثير من الأعلام الذين كانوا جزءا من التفكير النقدي في بلاد الغرب الإسلامي و لكن الآثار عنهم لم تكف لتحديد نسقهم النقدي ، وقد تسعف الأيام في المستقبل للوصول إلى ذلك من خلال بحوث لاحقة .

نجد كذلك أن المغرب عرف العديد من الظروف السياسية والثقافية و المادية التي أثرت في صبغ الفكر النقدي المغربي و نزوعه نحو الفكر المشرقي عموما، ولعل أهم هذه المعطيات الفتوحات الإسلامية و الرحلات إلى جانب قيام الدولة الأموية في الأندلس وغير ذلك.

نجد كذلك من خلال البحث أن النقد المغربي متعدّد الروافد والمشارب التي أثرت فيه تأثيرا فارقا هذا إلى جانب الرافد المشرقي، لذلك كانت تياراته متعددة و مختلفة.

ولقد عالجت هذا الموضوع باستقراء مختلف التراجم المغربية المتعلقة بالفترة الزمنية محل الدراسة في مختلف كتب الطبقات والسير والتاريخ وغيرها مثل كتب: ترتيب المدارك و تقريب المسالك للقاضي عياض ، كتاب تاريخ إفريقية و المغرب للرقيق القيرواني ، طبقات علماء إفريقية و طبقات علماء تونس لأبي العرب و كتاب طبقات علماء افريقية للخشني ، البيان المغرب لابن عذارى المراكشي ، وغيرها، مستخرجا و مستنتجا المعطيات النقدية التي تشير إليها وهذا بعد التحليل و المناقشة ، إلى جانب استقراء التراجم كذلك نجد قراءة و تحليلا لمختلف المصنفات الأدبية و النقدية و غيرها المرتبطة بهذه الفترة و دراستها واستخراج الفكر النقدي الذي تشير إليه مثل كتابي تلقيح العقول والرسالة العذراء لبرية ابن أبي اليسر الرياضي، و قطب السرور في أنواع الأنبذة و الخمور للرقيق القيرواني ، و ما يجوز للشاعر في الضرورة للقزاز و الممتع للنهشلي وغيرها، إضافة إلى بعض كتب الفقه و التراث كالمدونة الكبرى لسحنون و غيرها، بالقدر الذي مكننا من الوصول إلى ملامح الحياة النقدية للغرب الإسلامي قبل القرن الخامس الهجري، يعني أن هذه المدونات كلها بعد استقراء النصوص المهمة في النقد المغربي القديم عملت على و صفها وتحليلها، إضافة إلى إعمال التاريخ في بعد المقدمات و الممهدات .

و لقد أنجزت هذا البحث موزعا على أربعة أقسام :

القسم الأول عبارة عن تمهيد تناولت فيه الحياة السياسية و الثقافية و الفكرية ببلاد الغرب الإسلامي في الفترة محل الدراسة، حيث احتوى مبحثا عن الحياة السياسية و بقية المباحث عن الحياة الثقافية و الفكرية من علوم الدين النقلية و العقلية و المكتبات و دور العلم و الطب و الفلسفة إلى جانب علوم اللغة و الأدب من نثر و شعر .

أما الأقسام الثلاثة الباقية فهي عبارة عن فصول ، الأول منها تناولت فيه مفهوم الأدب في المغرب الإسلامي ما بين الفتح و نهاية القرن الرابع الهجري، وقد ضم ثلاثة مباحث: الأول في مفهوم الأدب ، الثاني: في مفهوم النثر ، الثالث: في مفهوم الشعر ، الرابع: في ما يتعلق بالقضايا المرتبطة بالشعر و النثر في نفس الوقت .

أما الفصل الثاني فقد تعرضت فيه لأهم القضايا النقدية في الغرب الإسلامي في نفس الفترة الزمنية، و قد ضم خمسة مباحث: الأول في لغة الأدب، الثاني في الانتخاب الأدبي ، الثالث في التأثير النفسي للشعر ، الرابع في أثر البيئة في الأدب ، أما الخامس فحول فلسفة الطبقات .

والفصل الأخير تعرضت فيه لأهم اتجاهات النقد في الغرب الإسلامي في هذه المرحلة كذلك، و قد ضم ثلاثة مباحث، الأول في أهمية النقد و الانتقاد ، الثاني في مقومات النقد الأدبي في بلاد الغرب الإسلامي ، و الثالث في اتجاهات النقد في بالد الغرب الإسلامي، مختتما البحث بأهم النتائج التي توصلت إليها.

و شدني إلى بحث هذا الموضوع ثلاثة أسباب ذاتية وموضوعية:

الأول: لعل أهم سبب هو ذلك الكم الهائل من التساؤلات التي انتابتني و صاحبتني خلال إنجازي لمذكرة الماجستير المتعلقة بالنقد الأدبي في كتاب أنموذج الزمان لابن رشيق، وهذه التساؤلات يصب أغلبها في البحث عن الأصول و هو السؤال الكبير الذي أول ما يبحث عنه العاقل و المفكّر في رؤيته للكون، لذلك عزمت أمري على بحثه في مرحلة الدكتوراه خاصة بعدما توصلت إلى مجموعة من المصادر المهمة في هذا السياق.

الثاني: قلة الدراسات المتخصصة في مجال النقد المغربي القديم رغم وجود المادة الأدبية والعلمية عموما مع ملاحظة صعوبة الوصول إليها وتشتتها في المصادر، فأردت أن أسهم ولو بقسط بسيط في الإشارة إلى مدى أهمية البحث في هذا المجال لما يكتسيه من أهمية علمية وأدبية وحضارية تخدم الأدب المغربي والعربي والعالمي.

الثالث: يضاف إلى ما سبق، أن هذا الموضوع بهذه الإشكالية لم يطرح من قبل في حدود ما توصلت إليه، ما بعث في نفسي حافزا قويا لبحثه بعمق.

يكتسي الموضوع حسب نظري أهمية كبيرة بالغة وهذا لكثير من الأسباب، أهمها:

أن البحث في الأصول غاية في الأهمية إذ على ضوئه تفهم القضايا المبنية عليه والتي سيعاد بناؤها وترتيبها على ضوئه، ولكي تكتمل حلقات تاريخ النقد المغربي الذي نعرفه من القرن الخامس تقريبا فقط، لذلك كان لزاما مد المسيرة النقدية من نشأتها وماضيها إلى حاضرها لإمداد الباحثين في هذا المجال بالسيرة الكاملة.

ولم أجد في حدود ما وصلت إليه يدي من بحث هذا الموضوع في دراسة أكاديمية متخصّصة ، رغم وجود بعض العناوين التي قد تومئ إليه لكنها لم تتعرض لفترة الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الرابع الهجري ، مثل دراسة عبد السلام شقور المعنونة بأوليات النقد الأدبي بالمغرب ، أو بحث النقد الأدبي القديم في المغرب لـ علي لغزيوي .

و يذكر أن أهم ما يمكن أن يواجه المقتحم لمثل هذه البحوث هو صعوبة التعامل مع كثرة المدونات المتنوعة المشارب و المآرب ، و التعامل مع مصطلحات علوم مختلفة ، ثم إعادة تجميع هذه المادة وفق محاور مشتركة ، حيث إن هذه العملية تتطلب وقتا طويلا و جهدا جماعيا ، إضافة إلى اعتمادها على التأويل الذي يحتمل الظن و الخطأ .

في الأخير منية العامل و مبتغاه أي يبلغ مسعاه مرماه ، آملا أن أكون قد وفقت في تحقيق بعضا مما أردته ، مضيفا بعض الشيء لخزانة النقد و الأدب في بلاد الغرب الإسلامي ، شاكرا لكل من كان عونا وسندا لإنجاز هذا البحث من قريب أو بعيد أخص بذلك أستاذي المشرف الأستاذ الدكتور عبد الحميد هيمة ، الذي لم يتوان يوما في إبداء التوجيه و إسداء النصح ، فله كل الاحترام والتقدير ، و للأستاذ الدكتور مالكية بلقاسم رئيس مشروع النقد المغربي القديم و لكمية المصادر والمراجع و التوجيهات التي لم يبخل بها يوما و للسيد عميد كلية الآداب و اللغات الاسم اللامع الذي نفتخر به الأستاذ الدكتور العيد جلولي، كما أتوجه بشكري الجزيل لجميع أعضاء لجنة المناقشة كل واحد باسمه على تكرمهم بقراءة هذا العمل والسهر على تقويمه و تقييمه، كما لا يفوتني أن أشكر كل أسرة قسم اللغة و الأدب العربي مسيرين وأساتذة و طلابا و موظفين ، و الشكر كذلك لجميع أفراد عائلتي على الدعم المعنوي و المادي .

و الحمد لله أولا و آخرا

محمود بن محمد بن راس

ورقلة في: 16/01/2018

تمهيد

الحياة السياسية و الثقافية و الفكرية بالمغرب العربي من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الرابع الهجري

- المبحث الأول: الحياة السياسية
- المبحث الثاني: الحياة الثقافية و الفكرية
- أولا: علوم الدين النقلية
- ثانيا: علوم الدين العقلية
- ثالثا: المكتبات و دور العلم
- رابعا: الطب و الفلسفة
- خامسا: علوم اللغة
- سادسا: النثر
- سابعا: الشعر

تمهيد: الحياة السياسية و الثقافية و الفكرية بالمغرب العربي من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الرابع الهجري.

قبل الدخول في تفاصيل الحركة النقدية في بلاد المغرب و مميزاتها و اتجاهاتها لا بد من الإشارة إلى السياق التاريخي الذي ارتبطت به هذه الحركة لاستيعاب التفاصيل المتعلقة بها، خاصة فيما يتعلق بالمعطيات السياسية و الثقافية، إذ كثيرا ما ساهمت السياسة في توجيه العلم والمعرفة، و بصفة خاصة الآداب و الفنون، لذلك فالوقوف على واقع الحياة السياسية و الثقافية من الأهمية بمكان لمعرفة مدى التأثير الذي لعبته في نشأة و توجيه النقد الأدبي في بلاد الغرب الإسلامي .

المبحث الأول: الحياة السياسية

بدأت محاولات الفتح الإسلامي الكبيرة لبلاد المغرب في عهد الخليفة عثمان بن عفان ، إذ مباشرة بعد توليه الخلافة ، أمّر عبد الله بن سعد بن أبي سرح و كلفه بغزو إفريقية ، التي كان يحكمها آنذاك بطريق بيزنطي يسمى "كريغوريوس" ، فسار إليها عبد الله بالجيش المشهور بجيش العبادلة[1] ، والتقى الجيشان بمنطقة سبيطلة سنة (27هـ) و انهزم جيش البيزنط هزيمة لم تقم لهم قائمة بعده في بلاد الغرب الإسلامي، وولى عبد الله بن سعد على إفريقية نافع بن عبد القيس الفهري، إذ كان عبد الله واليا على مصر[2]، مع استشهاد الخليفة عثمان اضطربت الأمور قليلا في بلاد الغرب كما بقية الولايات الإسلامية، لكن باستقرار الأمور لمعاوية بن أبي سفيان عاد الاستقرار لبلاد الإسلام فارسل جيشا آخر بقيادة معاوية بن حديج سنة (45هـ) إلى إفريقية فأعاد الاستقرار إلى البلاد و قطع دابر الإمدادت من بيزنطة لبلاد الغرب ، وولى بدوره عقبة بن نافع الفهري على إفريقة سنة (50هـ) الذي بنى مدينة القيروان التي كانت حدثا مفصليا في تاريخ الغرب الإسلامي[3] ، لكن معاوية عزله وولى مكانه أبا المهاجر دينار الذي فتح الكثير من البلدان المجاورة لافريقية ووصل بفتوحاته إلى مدينة تلمسان في عمق الجزائر ، وبتولي يزيد بن معاوية لزمام الحكم الإسلامي أعاد عقبة بن نافع لولاية بلاد الغرب مرة أخرى سنة (62هـ) الذي وصل بالفتوحات إلى غاية المحيط الأطلسي ليعلن بذلك اكتمال فتح بلاد المغرب ، لكن عقبة استشهد في كمين نصبه له كسيلة سنة (64هـ)[4] و حاول كسيلة أن يسيطر على البلاد لكن زهير بن قيس زحف إليه بجيش جرار فقتله و أعاد الاستقرار للبلاد في عهد عبد الملك بن مروان سنة (69هـ)، وباستشهاد زهير قيس في إحدى المعارك تولى

---

1)- ينظر : الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز (748هـ)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تح: عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط02، 1413 هـ - 1993 م، 318/3 .

2)- ينظر : الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير ، 321/3 .

3) - ينظر: البلنسي ، ابن الأبار، محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي (658هـ) ، الحلة السيراء، تح: حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، ط02، 1985م، 68/1-341/2 .

4) – ينظر: أبو العرب، محمد بن أحمد بن تميم التميمي المغربي الإفريقي، (333هـ)، المحن ، تح: عمر سليمان العقيلي، دار العلوم، الرياض/السعودية، ط1، 1404هـ - 1984م، ص290 .

حسان بن النعمان زمام الأمر في بلاد المغرب سنة (71هـ) و يمكن عد مرحلته مرحلة الازدهار الثانية بعد مرحلة عقبة إذ نشر الاستقرار في البلاد بالقضاء على الكاهنة و تولية بعض الأمراء البربر ، وشيد الموانئ و شق القنوات و الطرقات و عمر الجوامع كالزيتونة ووضع الأنظمة الإدارية و المالية[1].

تولى بعده موسى بن نصير سنة (86هـ) الذي كان داهية في شؤون الحرب فتغلغل بالفتوحات إلى عمق بلاد الغرب جنوبا و غربا و كان من أعظم قادته طارق بن زياد النفزاوي الذي كتب الله على يديه فتح الأندلس ، بتولي عمر بن عبد العزيز للخلافة (99هـ) حاول بعث النشاط العلمي في المنطقة بإرسال الوفود العلمية مثل الفقهاء العشرة و أوكل إليهم قيادة الفكر ، وكان حينها واليا على المنطقة ابن أبي المهاجر لكنه عزل بتولي يزيد بن عبد الملك للحكم ليتولى بعده بلاد المغرب أمراء ضعاف على شاكلة الضعف الذي أصاب بلاد الأسلام كله فعجل بسقوط الأمويين و تولي العباسيين[2] ، فدخلت بلاد المغرب في قلاقل و صراعات مريرة بدعاوى عرقية أو دينية أحيانا بين الأمويين والصفرية الذين كانوا في الغرب أو بينهم و بين الإباضية الذين ظهروا في ليبيا في البداية ثم مع فرارهم إلى المغرب الأوسط و تأسيسهم للدولة الرستمية ، إلى أن تولى الأغالبة فعاد بعض الاستقرار للمنطقة خاصة مع إبراهيم ابن الأغلب[3] الذي كان رجل علم و ثقافة والذي جعل الولاية على بلاد الغرب في خلفه و في هذه المرحلة بدأت تكتسب بلاد الغرب هويتها السياسية و الثقافية إذ كان ارتباط الأغالبة بالعباسيين شكليا فقط ، فواصلوا حركة الفتوحات في المنطقة فافتتحوا صقلية و الكثير من المدن في عمق الأندلس ، إضافة إلى الازدهار الثقافي خاصة في عهد زيادة الله الأغلبي الذي كان هو الآخر رجل علم وأدب، وكانت قد انتشرت في بعض قبائل المغرب الأفكار الإمامية بفعل أبي عبد الله الصنعاني الذي التقى جماعة من قبيلة كتامة في الحج و جاء معهم إلى بلادهم و استطاع

1) – ينظر: المصري، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم (257هـ)، فتوح مصر والمغرب، مكتبة الثقافة الدينية،1415 هـ ، 231 ، المراكشي ، ابن عذارى ، البيان المغرب 228/1 .

2) – ينظر: المصري، فتوح مصر و المغرب ، 231/1 .

3) – ينظر: ابن الأبار، الحلة السيراء، 93/1 .

أن يقنعهم بأفكاره فتمكن من تأليبهم و تجيشهم على الأغالبة إلى أن قدم عبيد الله المهدي من المشرق فتمت البيعة و القيام الرسمي لحكم العبيديين (الفاطمين) في بلاد الغرب سنة (297هـ)، حيث حاولوا أن يوفقوا في دعوتهم ما بين الفكر و السياسية فجرت بينهم وبين أهل السنة و الصفرية و الإباضية مناظرات و مناقشات مشهورة ، فلقد اهتموا بدعوتهم وملكهم فبنوا دولة قوية خاصة من النواحي العسكرية و بالخصوص القوات البحرية التي اشتهر فيها جوهر الصقلي الذي مهد الطريق بعد ذلك للفاطميين النزوح إلى مصر وإفساح المجال ببلاد المغرب للصنهاجيين[1] .

بدأ ذكر الصنهاجيين القوي في منطقة المغرب العربي مع زيري بن مناد الصنهاجي الذي كان فارسا مقداما قلّده المعز لدين الله الفاطمي سيف الولاية على قومه و استعمله في أهم حروبه و غزواته فأبلى البلاء الحسن ما أدّى بالخليفة المعزّ الفاطمي إلى إطلاق يد زيري بن منّاد على المنطقة بالتوسّع في الملك و الولايات ، لكن ما لبث زيري أن قُتِل في إحدى المعارك مع القبائل الزناتية سنة(360هـ،971م) [2] فولّى المعز بعده ابنه بلّكين كلَّ ما كان أبوه مكلّفا به[3]، و لم يكن بلّكين أقل شجاعة وإقداما و دهاء من أبيه ، و في عهده اكتملت سيطرت الصنهاجيين على المغرب كله تقريبا ، إذ توجّه المعز الفاطمي إلى القاهرة سنة(361هـ) ، لكن بلّكين بقي مواليا في سياسته للمعزّ الفاطمي رغم أنه ليس متشيّعا و لا المجتمع المغاربي كذلك[4] ، و بعد حكم امتد لثلاثة عشر سنة توفي بلّكين سنة (373هـ) [5] و هو في طريقه إلى سجلماسة ، و كان قد أوصى بالخلافة لابنه

1)- ينظر: الذهبي، تاريخ الإسلام ، 134/22 .

2)- عبد الرحمن بن خلدون ، ديوان المبتدأ و الخبر في تاريخ العرب و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر(المعروف بتاريخ ابن خلدون) ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، 2001م ، 205/6 .

3)- عبد الرحمن بن خلدون ، التاريخ ، 205/6 .

4)- المصدر نفسه ، 205/6 .

5)- المصدر نفسه ، 206/6 ، انظر الكامل في التاريخ ، دار الفكر العالمية، بيروت، لبنان ، ط1، 1978م، 414/7 .

و ينظر كذلك: شمس الدين أحمد ابن خلكان ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان ، تح : إحسان عباس ، دار صادر – بيروت، 286/1 ، و ذكرت بأسامي أخرى في عدة مصادر .

المنصور [1]، الذي اشتهر عنه قوله: أنّ أباه و جدّه كانا "يأخذان الناس بالسيف و أنا لا آخذهم إلا بالإحسان"[2] لذلك فملكه لم يعرف كثير القلاقل مثل أبيه وجده ، توفي المنصور سنة (386هـ) بعد ثلاث عشرة سنة من الحكم[3] ، فتولى الحكم من بعده ولي عهده ابنه باديس[4] ، فعرفت منطقة المغرب الإسلامي في عهده تطورا كبيرا إذ بنيت في عهده قلعة بني حماد على يد عمه حماد بن بلّكّين الذي أعلن استقلاله فيما بعد و كان أول من أعلن القطيعة مع الفاطميين التي كانت في عهد الزيريين رمزية تقريبا و أعلن الولاء للعباسيين[5]، فعزم باديس على محاربته لتمرده و استقلاله بالملك لكن الموت فاجأه في إحدى معسكراته في حربه تلك فاتفق الجند على مبايعة ابنه المعز سنة (406هـ) وهو ابن ثماني سنوات و كان نائبا له و قائم حكمه ابن عمه كرامة بن المنصور[6] ، وأهم ما عرفته المنطقة في عهده الصلح بينه و بين حماد بن بلكين ، إذ كان المعز ينزع نحو العلم والمعرفة دون الحرب والقتال، مما أدخل المغرب في حالة من الاستقرار كان سببا في الازدهار على الكثير من الأصعدة[7]، وفي عهده اكتملت القطيعة بين الصنهاجيين و الفاطميين بعد أن أعلن المعزّ الولاء للعباسيين[8] ، لكن ما لبث الفاطميون أن ألّبوا القبائل الهلالية على الصنهاجيين فهاجموا المغرب بوحشية ما تسبب في خراب كبير لحواضر مهمة كالقيروان و انحصر ملك الصنهاجيين في الساحل من المغرب الإسلامي، توفي المعز بعد حكم دام ثمانية و أربعين عاما ، فخلفه ابنه تميم سنة (454هـ)[9]، فسار على نفس نهج والده و خلفه بعده ابنه يحيى سنة (497هـ) [10] ثم علي بن

1)- ابن الأثير، الكامل 414/7 .
2)- ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب ، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط3، 1983م ، 239/1.
3)- ابن خلدون ، التاريخ 207/7 .
4)- المصدر نفسه 208/7.
5)- ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب239/1 و ما بعدها .
6)- المصدر نفسه 267/1 .
7)- عبد الرحمن بن خلدون ، التاريخ 208/6-214 .
8)- ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب 267/1.
9)- المصدر نفسه 279/1 .
10)- ابن خلكان ، وفيات الأعيان 211/6 .

يحيى سنة (509هـ)[1] ثم أبو يحيى الحسن بن علي سنة(515هـ)[2] لكن دولته عرفت الكثير من التمرد من السلاطين ما أدى إلى ضعف الدولة فتكالب عليها النورمان و الفرنجة حتى سقطت تماما سنة (543هـ) ، بعد حكم دام قرنين من الزمن شمل أغلب بلاد المغرب الإسلامي تقريبا[3] .

1)- ابن خلكان ، وفيات الأعيان، 215/6 .
2)- المصدر نفسه 217/6 .
3)- المصدر نفسه 217/6 .

المبحث الثاني: الحياة الثقافية و الفكرية

الحديث عن النشاط الثقافي العربي بمنطقة شمال إفريقيا كفعل منظم و رسمي ارتبط أساسا بالفتوحات الإسلامية حيث إن الحملات التي كان يقوم بها المسلمون نحو الغرب بدءا من عصر عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضي الله عنهما كانت تضم في صفوفها أسماء مهمة من الصحابة الكرام رضي الله عنهم مهمتهم نشر الإسلام و اللغة العربية إذ نجد أنّ حملة عبد الله بن سعد بن أبي السرح كان فيها عشرون ألفا من الصحابة يتقدمهم عبد الله بن عمر بن الخطاب، عبد الله بن عباس عبد الله بن عمر ابن العاص عبد الله بن الزبير(1) و غيرهم ، و يذكر كذلك أنّ موسى ابن نصير ترك سبعين رجلا من العرب يعلمون الناس العربية و القرآن و شرائع الإسلام و الأكيد أنّ الرقم أكثر من ذلك بكثير(2) ، لكنه و رغم السيطرة المبدئية للعرب المسلمين على منطقة الغرب إلا أن النشاط الثقافي كان محدودا في العصر الأول و الثاني الهجري بسبب كثرة الثورات ، داخل المغرب و في مركز الخلافة، و يذكر أن حسان بن النعمان لما حكم بنى جامع الزيتونة لغرض نشر الإسلام و نشر اللغة العربية إذ جعلها لغة الدواوين الرسمية (3) ، و في عصر عمر بن العزيز (99هـ/717م) أرسل إلى إفريقية ما يعرف بالفقهاء العشرة وهم : إسماعيل ابن أبي المهاجر المخزومي، جعيل بن عمير ، اسماعيل ابن عبيد الأنصاري ، عبد الله بن يزيد المعافري ، سعد بن مسعود التجيبي ، عبد الرحمن بن رافع التنوخي، حبان ابن أبي جبلة القرشي ، بكر بن سوادة الجذامي، موهب بن حيي، وطلق بن

---

1) – ينظر: المراكشي ، ابن عذارى أبو عبد الله محمد بن محمد (695هـ)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح: ج. س. كولان، إ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت – لبنان، ط3، 1983م ، 17/1.

2) – ينظر:ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، ص 231 ، المراكشي ، ابن عذارى ، البيان المغرب 39/1 ، عبدالواحد ذنون طه ، الفتح و الاستقرار العربي الإسلامي في شمال إفريقيا و الأندلس ، دار المدار الإسلامي ، ط1، 2004م، ص 95.

3) – ينظر: السلاوي، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن خالد بن محمد الناصري الدرعي الجعفري (المتوفى: 1315هـ)، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تح: جعفر الناصري/ محمد الناصري، دار الكتاب / الدار البيضاء 150/1 ، الميلي، مبارك بن محمد الجزائري، تاريخ الجزائر في القديم والحديث (1364هـ)، المؤسسة الوطنيّة للكتاب بالجزائر، 1986م، 34/2.

جابان الفارسي، مما جعل أهل المغرب ينخرطون في العجلة الثقافية لعموم العرب و المسلمين ، و على العموم يمكن إجمال مظاهر الحياة الثقافية في التالي :

أولا: علوم الدين النقلية

معروف أنّ من أهم الأسماء التي دفعت عجلة العلم والتفكير في منطقة الغرب الإسلامي عكرمة مولى ابن عباس(105هـ) المفسر المشهور الذي كان يلقي دروسه بجامع القيروان[1]، و كان إلى جانبهم جماعات أخرى ممن انخرط في تعليم العلوم الدينية كيحيى بن سعيد الذي كان محدثا مشهورا، وأخذ عنه بعض مشاهير بلاد الغرب مثل خالد بن أبي عمران التجيبي قاضي القيروان وعبد الرحمن وعلي ابني زياد[2]، و مع استقرار الإسلام في النفوس لم يكن يكتفي المغاربة بمن وفد إليهم بل كانوا يرحلون في سبيل ذلك إلى مصادره، فعرفت بلاد الغرب الإسلامي نهضة علمية كبيرة واشتهر بها علماء كبار في مختلف المجالات ، ففي مجال علوم القرآن و القراءات نجد اسم أبي منصور مولى سعد ابن أبي وقاص الذي كان مقرئا و محدثا ومفتيا[3]، و نجد كذلك محمد بن عمرو بن خيرون (306هـ) الذي نقل رواية ورش المصري إلى المغرب، وصولا إلى الإمام المشهور مكي بن أبي طالب القيسي (354هـ)، أما في خصوص التفسير فإلى جانب عكرمة مولى ابن عباس نجد يحيى ابن سلام (175هـ) و القاضي المشهور أسد ابن الفرات (212هـ)، و كان لعلم الحديث كذلك نصيبا وافرا إذ أنّ جنود الفاتحين كان فيهم الكثير من المحدثين كالفقهاء العشرة السالف ذكرهم إذ كانوا كذلك، إضافة إلى أنّ الحديث بالمغرب ارتبط بفقه الإمام مالك الذي وفد إليه بفضل تلامذته حيث كان هو نفسه محدثا و طلبته كذلك مثل المشهور بهلول بن راشد (183هـ)، و جاء من بعده يزيد بن محمد الجمحي (212 هـ)، و لمع في القرن الرابع مغربي مهم هو أبو الحسن القابسي، وإلى جانبه كان سعيد بن فحلون نزيل بجاية (346هـ) الذي روى عن النسائي سننه ونجد كذلك أحمد بن نصر

---

1)- ينظر: شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي ، الإمارات ليبيا تونس صقلية ، ص 168 .

2)- ينظر: البلنسي ، ابن الأبار، محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي (658هـ)التكملة لكتاب الصلة ، تح: عبد السلام الهراس، دار الفكر للطباعة – لبنان ، 1415هـ- 1995م 265/1 .

3)- ينظر: شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي ، الإمارات ليبيا تونس صقلية ، ص 189 .

الداودي (402هـ) نزيل تلمسان، أما في مجال الفقه فإضافة إلى السابقين باعتبار أنّ في تلك الفترة يصعب التفرقة بين اختصاصات الأعلام نجد قاضي القيروان أبي كريب عبد الرحمن بن كريب (139هـ) ، وعبد الله بن فروخ و عبد الله بن محمد الأشج (286هـ) الحنفيين، إضافة إلى أعلام المذهب المالكي مثل أسد بن الفرات السالف الذكر وسحنون صاحب المدونة وابنه محمد، محمد بن إبراهيم بن عبدوس (260هـ) ، يحي بن عمر الكناني (289هـ) ، و حمدون قاضي طبنة و علي بن منصور قاضي ميلة و يحي بن خالد السهمي قاضي الزاب و عبد الملك بن سيانج، و نجد كذلك دراس بن إسماعيل الفاسي (362هـ) و أهمهم في هذه الفترة عبد الله بن أبي زيد القيرواني (386هـ).

ثانيا: علوم الدين العقلية

من الملاحظات كذلك أن المغرب عرف نشاطا كبيرا في ما يخص علم الكلام إذ أن أغلب التيارات الكلامية التي عرفها المشرق بلغ مداها إلى المغرب لأسباب مختلفة ، فالخوارج مثلا من الصفرية والإباضية فرّ من نجا منهم من بطش الأمويين إلى المغرب و اعتنق أفكارهم الكثير من المغاربة و أثاروا بذلك مع السنّة الموجودين في المغرب جدالا و نقاشا كبير ا ، حتى يقول أبو العرب[1] في ترجمة يحيى بن سلام (175هـ) ، أنه كانت تجري بمجلسه مناقشات في الإرجاء، و يروي كذلك أنّه كان بالقيروان للمعتزلة سقيفة يجتمعون فيها خاصة في زمن زيادة الله الأغلبي [2]حتى إذا تولى سحنون قضاء القيروان فرق حلقاتهم و شردهم كما يقول مترجموه [3]، حيث ورد في المدارك أن سحنون "أول من فرق حلق أهل البدع و شرّد أهل الأهواء منه –أي الجامع الكبير– و كانوا فيه حلقا مثل الصفرية

1)– أبو العرب التميمي القيرواني (ما بين 250 – 260 – 333 هـ) : محمد بن أحمد بن تميم بن تمام التميمي أبو العرب، المحدث الفقيه المؤرخ الأديب، كان جده تمام بن تميم أمير مدينة تونس، سمع أبو العرب من جماعة من أصحاب سحنون واكثر علماء القيروان كأبي داود العطار، وعيسى ومحمد ابني مسكين، وابن طالب، وعبد الجبار بن خالد، وغيرهم، وهو من الذين آذتهم الدولة العبيدية كدأبها مع علماء المالكية، من مؤلفاته: كتاب التاريخ 17 جزءا، كتاب طبقات علماء أفريقية، وتونس حققه محمد بن أبي الشنب طبع بالجزائر سنة 1914، وأعيد نشره بتحقيق علي الشابي ونعيم اليافي وطبع بتونس سنة 1968 وقد وصل إلينا الكتاب مختصرا عن طريق الطلمنكي، انظر ترجمته عند: محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، 359/3 .

2) – ينظر: الذهبي، تاريخ الإسلام ، 134/22 .

3)– ينظر: شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي ، الإمارات ليبيا تونس صقلية ، ص 198 .

والإباضية والمعتزلة و غيرهم ، و كانوا فيه حلقا يتناظرون فيه ، و يظهرون زيفهم و عزلهم أن يكونوا أئمة للناس أو المعلّمين لصبيانهم أو مؤذنين و أمرهم ألا يجتمعوا ، و أدّب جماعة منهم بعد هذا "[1].

من أشهر المتكلمين المغاربة كذلك نجد أبي عثمان سعيد بن محمد المعروف بابن الحداد إذ يروى أنّه غلب عليه الكلام و الجدل و المناظرة و كان مفحما لخصومه ، إذ تروى له في هذا الباب مناظرة مع عبد الله بن الأشج في خلق القرآن [2]، إلى جانب ذلك فإن حركة التأليف التاريخية كانت نشيطة فلقد ذكر أنّ عيسى بن أبي المهاجر له كتاب مغازي افريقية مفقود لكن المؤرخين من بعده ينقلون عنه مثل أبي العرب في طبقاته ، و يروى كذلك أن لـ عبد الله بن أبي الحسان اليحصبي (227هـ) كتابا في أخبار إفريقية و حروبها ، و لمحمد بن زيادة الله الأغلبي (283هـ) كتابا في الدولة الأغلبية، و لأبي علي بن الوكيل القيرواني (310هـ) كذلك كتابا في تاريخ إفريقية ، إضافة إلى بعض الكتب التي وصلتنا قطع منها مثل طبقات أبي العرب و طيقات الخشني[3] و طبقات الرقيق القيرواني.

ثالثا: المكتبات و دور العلم

من مظاهر النهضة الثقافية كذلك في المغرب بعد الفتح أنّ إبراهيم ابن الأغلب أنشأ بيت الحكمة كمؤسسة عليا على شاكلة نظيرتها في العراق و جعل فيها مكتبة ضخمة و أقامها بأهم الكتب و المصنفات من مختلف المجالات الدينية و اللغوية ، و في زمن عبيد الله المهدي نقل إليها الكثير من الكتب ، و على نفس الشكل أسس حفيد عبيد الله المنصور مكتبة في مدينة المنصورية

1)- محمد الطالبي ، الصراع اللاهوتي في القيروان أيام الأغالبة ، منشورات سوتيميديا، ط1، تونس 2017، ص 152 .

2)- أبو العرب ، محمد بن أحمد بن تميم التميمي المغربي الإفريقي، (333هـ)، طبقات علماء إفريقية، وكتاب طبقات علماء تونس، دار الكتاب اللبناني، بيروت – لبنان35/1 .

3)- الخشني (371 هـ): محمد بن حارث بن أسعد الخشني القيرواني، أبو عبد الله، المحدّث، الفقيه الأديب المؤرخ، الكيمياوي، نزيل الأندلس، تفقه بالقيروان على أحمد بن نصر، وأحمد بن زياد الهواري، وأبي بكر بن اللبّاد، والممّسي، وغيرهم، قدم الأندلس حدثا سنة 311، له ملكة نقدية، سمع بالأندلس من أحمد بن زياد، وأحمد بن عبادة، والحسن بن سعد، وقاسم بن أصبغ، ومحمد بن عبد الملك بن أيمن، ومحمد بن يحيى بن لبابة، وغيرهم من القرطبيين، من تآليفه: كتاب الاتفاق والاختلاف في مذهب مالك، ، كتاب أصول الفتيا، كتاب الاقتباس، تاريخ الافريقيين، تاريخ علماء الأندلس. انظر ترجمته عند: محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، 205/2 .

وساق إليها الكثير من المخطوطات ، و إلى جانب هذه لمكتبات العامة كانت القيروان ومنطقة شمال إفريقيا عموما غنية بالكثير من المكتبات الخاصة و كان سوق الوراقين نشطا إذ يروى عن حمدون بن مجاهد الكلبي أنّه قال :"كتبت بيدي ثلاثة آلاف و خمسمائة كتاب" و قال أبو العرب التميمي كذلك أنّه كتب أربعة آلاف كتاب ، و يروى كذلك أن أحد أبناء وزراء الأغالبة و هو أحمد بن علي بن حميد عن مكتبته بيعت بعد وفاته بألف و مائتي دينار ، و أنّ أبا هاشم التجيبي (346هـ) بلغ وزن ما نسخه من الكتب سبعة قناطير ، و أنّ أحمد بن الجزّار (369هـ) كانت له مكتبة ضخمة بلغ وزنها عشرين قنطارا[1]، و يروى أنّ المعز ابن باديس (454هـ) لماّ بلغه أنّ أبا بكر عتيق السوسي الفقيه الحافظ ضاقت حاله بما لا يمكنه من اقتناء الكتب ، أرسل له مجموعة كبيرة من الكتب حملها له عشرون حمالا و معها رسالة يقول له فيها :"هذه كتب في خزائننا ضائعة، و بقاؤها عندنا مما يزيدها ضياعا ، و أنت أولى بامتلاكها للانتفاع بها"[2] ، لكن للأسف الشديد أنّ الأغلبية الغالبة من هذه الكتب و المصنفات لم تصلنا و فقدت بعامل صروف الزمن مثل الحروب و الكوارث الطبيعية وغيرها إضافة إلى بعض العوامل الأيديولوجية كما يشير الطالبي إذ يقول: "نقرّ جميعا أنّ القيروان كان في العصر الوسيط مقرا مشعّا للدراسات الفقهية –و اللغوية، و نقر بدرجة أقل –إن لم نكن نجهل تماما- بأنها كانت كذلك مركزا مهما من مراكز التفكير الديني، ومرد هذا الجهل إلى أنّ الموروث الفقهي القيرواني قد وصل إلينا منه قسط مهم في حين أن الموروث الثيولوجي قد أهمل برمّته عن قصد، لماذا هذا الاختلاف في التعامل مع الفقه و الثيولوجيا ؟ لماذا لم يلحق هاذان المجالان معا؟ يوفر الجواب عن ذلك جملة الأسباب الكثيرة التي قدمت الفقه على الثيولوجيا المعتبرة خطرة و من ثمّ كانت العناية بها قليلة و لكنها مكشوفة أكثر ، و على العكس من ذلك اعتبر الفقه ضروريا لحسن سلامة المجتمع دنيويا و روحيا "[3] و إن كان الأمر كذلك مع الثيولوجيا التي هي أصول الدين فكيف

---

1)- ينظر: الصفدي صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله (764هـ)، الوافي بالوفيات ،تح: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث – بيروت ، 2000م . 132/6 . ابن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجي موفق الدين، أبو العباس (668هـ)عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تح: الدكتور نزار رضا، دار مكتبة الحياة – بيروت 481/1 .

2)- محمد بن محمد بن عمر بن علي ابن سالم مخلوف (1360هـ)، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 2003 م، 159/1.

3)- محمد الطالبي، الصراع اللاهوتي فيي القيروان أيام الأغالبة ، منشورات سوتيميديا، ط1، تونس 2017، ص 151 .

مع علوم الأدب و نقده و تفكيره ، و ما أشار له الطالبي يشير إلى كيفية توجيه النسق العام للتفكير في بعض مناطق الغرب الإسلامي في التعامل مع التراث الشرقي و الإسلامي بصفة عامة .

رابعا: الطب و الفلسفة

من لوازم إنشاء معاهد مثل بيت الحكمة و المنصورية و جامع القيروان و غيرها ازدهار علوم أخرى إلى جانب علوم الدين مثل الطب و الفلسفة إذ أن إبراهيم الثاني الأمير الأغلبي لما أسّس بيت الحكمة استقدم إليه الطبيب إسحاق بن عمران الذي قال عنه الرقيق القيرواني كان طبيبا حاذقا متميزا بتأليف الأدوية ، و قال عنه ابن جلجل الأندلسي :"هو الذي ألف بين الطب و الفلسفة ببلاد المغرب"[1]، و تتلمذ على يده مجموعة من المغاربة في الطب والفلسفة من بينهم زياد بن خلفون ومحمد بن الجزار الذي هو بالمغرب بمقام ابن سينا في إيران و الزهراوي بالأندلس ، وإسحاق بن سليمان الإسرائيلي و أبو سعيد الصيقلي ، و من معاصريه إسماعيل ابن يوسف الذي درس الفلك والتنجيم بالعراق [2]، ومن الأطباء الحذاق كذلك ببلاد المغرب أعين بن أعين الذي كانت تسميه العرب الكحالة لحذقه بطب العيون لمهارته في ذلك ، و ممن شفي على يده فقيه القيروان ابن أبي زيد[3]، و نجد كذلك أحد أشهر الأطباء ممن وصلتنا كتبهم و مصنفاتهم ابن الجزار[4] صاحب كتابي طب المشائخ و حفظ صحتهم و كتاب فنون الطيب و العطر[5].

---

1) – الصفدي ، الوافي بالوفيات ، 272/8 .

2)– ينظر: الذهبي ، تاريخ الإسلام، 463/23 . و طبعة دار الغرب الإسلامي، تح بشار عوّاد معروف ، ط1، 2003 م .698/6

3)– ابن أبي صبيعة ، عيون الأنباء ، 546/1 .

4) – ابن الجزار (369) : أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد الجزار القيرواني، الطبيب ابن الطبيب، الواسع الثقافة، المشارك في الأدب والتاريخ والجغرافيا والفلسفة، مؤلفاته: أخبار الدولة، وهو في ظهور دولة العبيديين بالقيروان، وابتداء حكم عبيد الله المهدي، نقل منه ابن أبي أصيبعة فقرة في ترجمة إسحاق بن سليمان الإسرائيلي، ونقل منه المقريزي في «اتعاظ الحنفاء» وهو من مؤلفاته المفقودة، أبدال الأدوية، رسالة، اسباب الوفاة، مفقود، الاعتماد في الأدوية المفردة، و أغلب كتبه في الطب . انظر ترجمته عند: محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، 18/2 .

5)– ابن الجزار ، كتاب في طب المشايخ و حفظ صحتهم ، تح: الراضي الحجازي/فاروق العسلي، المجمع التونسي للعلوم والأداب و الفنون (بيت الحكمة) ، تونس، 2009م، و كتاب في فنون الطيب و العطر ، تح: الراضي الحجازي/فاروق العسلي ، المجمع التونسي للعلوم و الأداب و الفنون (بيت الحكمة) ، تونس، 2007 .

هذا الحراك العلمي تترجمه و تطوره كثرة المناظرات و المناقشات التي كانت تجري بين مختلف المفكرين و غالبا ما تكون حافزا لهم للتنافس و التطوّر إذ نجد عند القاضي عياض في ترجمة عبد الله بن أبي حسان أنّه كان غاية في الفقه بمذهب مالك، حسن البيان، عالما بأيام العرب و أنسابها راوية للشعر، قائلا له و عنه أخذ الناس أخبار إفريقية وحروبها، روى ذلك عن أبيه، و كان جوادا ...قال المالكي: و كان مفوّها، قويا على المناظرة ، ذابا عن السنّة متبعا لمذهب مالك، شديدا على أهل البدع قليل الهيبة للملوك ، لا يخاف في الله لومة لائم، دخل مرة على الأغلب، فإذا الجعفري و العنبري يتناظران في القرآن ، فقال الجعفري ، هذا شيخنا أبو محمد .. [1].

خامسا: علوم اللغة

بالتحوّل إلى الحديث عن علوم اللغة و الأدب فإن الأمر لا يختلف كثيرا عن باقي المواضيع إذ في الحضارة العربية الإسلامية متى ما ازدهرت علوم الدين كانت بازدهار علوم الأدب و اللغة العربية فهما قرينان لا يفترقان، إذ أنّ أغلب الوافدين من المشرق إبان الفتح و بعده كانوا من العرب الخلص، الذين سعوا إلى نشر الدين و لسانه، فقامت النهضة الأدبية اللغوية إلى جانب الدينية ، وتوالت الهجرات نحو المغرب ليفد بعد ذلك علماء في خصوص اللغة و الأدب لتهيء المكان لذلك ، من مثل أمان بن الصمصامة بن الطرماح و قتيبة الجعفي و عياض بن عوانة الكوفيين ، فما لبث أن ظهر على يديهم جيل مغربي خالص يعنى باللغة و الأدب مثل عبد الله بن محمود المكفوف (308هـ) الذي يقول عنه القفطي كان أعلم خلق الله بالعربية و الغريب و الشعر وتفسير المشروحات و أيام العرب و أخبارها ووقائعها [2]، و عاصره في تلك الفترة علم قيرواني آخر هو عبد الملك بن قطن المهري الذي قال فيه القفطي كذلك أنّه "عميد أهل اللغة العربية و راوي القوم

1)- القاضي عياض ، ترتيب المارك و تقريب المسالك ، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية ، المملكة المغربية ، 1983م ، 312/3 .

2) – ينظر: ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله (626هـ)، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب (معجم الأدباء)، تح: إحسان عباس ، دار الغرب الإسلامي، بيروت ، ط1، 1414 هـ - 1993 م، 3199/7 .

ورئيسهم"[1]، وعاصرهم كذلك أحمد بن إبراهيم بن أبي عاصم أبو بكر اللؤلؤي (318هـ)، الذي كان من العلماء النقّاد في العربية و الغريب و النحو و القيام بأكثر دواوين العرب و توالت الأسماء المغاربية المهمّة تترى إلى أن ظهر محمد بن جعفر القزاز التميمي (412هـ) الذي طارت شهرته في الأفاق و نباهته في اللغة والنحو في مختلف البلدان ، و طاف البلدان طالبا للعلم وناشرا له و كان إلى جانب ضلوعه في اللغة والنحو ناقدا بصيرا و شاعرا مجيدا، تخرّج على يديه جيل ابن رشيق وابن شرف القيروانيين، له مصنفات كثيرة فقد أغلبها للأسف من بينها إعراب مقصورة ابن دريد وشرحها، المثلث في اللغة ، ما أخذ على المتنبي من اللحن و الغلط، الحلى والشيات في أوصاف الآدميين و غيرها [2]، كما نجد كذلك علما آخر خلفا تراثا ثريا من الكتب الأدبية و اللغوية وهو برية الرياضي الذي عاش زمن المعز بن المنصور الذي ما إن تولى الخلافة سنة 341هـ حتى اتصل به فألّف له كتابه تلقيح العقول ويبدو أنّه أهداه الكتاب والمعزّ في صبرة القيروان لم يغادر بعد إلى مصر [3] ، وهو من كتبه التي كتب لها الوصول إلينا وهو من المصنفات التي تندرج ضمن كتب الأدب العام وذكر حاجي خليفة أنّ الكتاب في الأمثال[4] ، ويدعي محققه: الظنّ الغالب أنّ هذا الكتاب هو أول كتاب مغربي في الأدب يصل إلينا من الحقبة الفاطمية المغربية ، فلم يعثر –كما يقول- على من ذكر كتابا في الأدب أسبق وصولا إلينا منه ، من هنا فالكتاب يمكن أن يكون نموذجا مبكّرا للتأليف الأدبي في المغرب العربي"[5]، كما أنّه احتفل أيضا بإيراد كثير من شعره فيه ، وقليل من شعر أبيه ، مما جعله متفردا بروايته[6] ، ومن مميزاته أنّه روى لبعض المغاربة الذين لا نعرف عنهم شيئا مثل ابن أخت أبي العتاهية و رحمون الفارسي [7].

---

1) – القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف (ا 646هـ)، إنباه الرواة على أنباه النحاة ، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ومؤسسة الكتب الثقافية – بيروت ط1، 1406 هـ – 1982م، 210/1 .

2) – القزاز، محمد أبو جعفر ، الحلى و الشيات ، مكتبة عنوان النجاح ، تونس ، 1922 .

3)- ينظر: الرياضي، برية ابن أبي اليسر، تلقيح العقول، منشورات الجمل، ألمانيا، 2003، 14 .

4)- ينظر: الرياضي، تلقيح العقول 16 .

5)- المصدر نفسه 17 .

6)- المصدر نفسه 18 .

7)- المصدر نفسه 18 .

سادسا : النثر

كذلك نجد في المغرب أنّ النشاط الديواني الرسمي يعتبر أهم ما نشط الحركة الأدبية إذ تحفظ لنا كتب الأدب و التاريخ الكثير من الخطب الدينية و السياسية و الوصايا و الرسائل الديوانية والإخوانية ذات الصناعة اللغوية القوية مثل خطب موسى بن نصير و طارق بن زياد و أسد بن الفرات و إبراهيم بن الأغلب[1] و أبو العباس البريدي محمد بن حيون ، و رسائل داود القيرواني وغيرها من الأعمال التي شكلت المكتبة النثرية المغاربية، وتشتهر في بلاد الغرب الإسلامي في العصور الأولى خطب أئمة وولاة الإباضية أمراء تاهرت إذ نذكر في هذا الصدد خطبة إمامهم عبد الرحمن بن رستم (211هـ) حين استخلف في تاهرت السمح بن أبي الخطاب نائبا عنه فيها إذ يقول:"قد علمتم أن السمح وزيري و أخصّ الناس بي و أحبهم إلي وأنصحهم لدولتي ، و أني لا أصبر على فراقه ، وقد آثرتكم على نفسي، تتميما لرغبتكم ، و ها أنذا قد وليته عليكم فأحسنوا الطاعة و الانقياد لأمره ما سار فيكم سيرة المسلمين ، و لم يحد عن جادة العدل والانصاف، و لم يرتكب ما يؤذن بسخط الرب أو بمخالفتنا"[2].

1)- إبراهيم بن الأغلب (140 – 196 هـ): بن سالم التميمي، ثاني الأغالبة ولاة إفريقية لبني العباس، كان أبوه (الأغلب) قد وليها سنة 150/148هـ ، وكان إبراهيم عاملا على (الزاب) فقام بنصرة ابن مقاتل ورده إلى إمارته (سنة 184) فورد عهد الرشيد العباسي بعزل ابن مقاتل وتولية إبراهيم امارة إفريقية (في السنة نفسها) فنهض بها وضبط أمورها، وابتنى مدينة (العباسية) على مقربة من القيروان، وانتقل إليها، ونشبت ثورات في أواخر أيامه فأطفأها، وكان على علم بالأدب والفقه، شاعرا خطيبا شجاعا، له وقائع في المغرب الأقصى مع أهل الدعوة لإدريس العلويّ. استمرت إمارته 12 سنة و 4 أشهر، ومات بالعباسية، قال ابن عذاري: لم يل إفريقية أحسن سيرة، ولا أحسن سياسة، ولا أرأف برعية، ولا أوفى بعهد، ولا أرعى لحرمة منه. ينظر: : الزركلي خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الدمشقي، الأعلام، دار العلم للملايين، ط15، 2002 م، 33/1 .

2) – ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد بن محمد، أبو زيد، ولي الدين (808هـ)، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تح: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط2، 1988 م 151/6-159 .

و من أطرف ما قد نجده من الرسائل الديوانية فيما يتعلق بالغرب الإسلامي، رسالة لإبراهيم ابن الأغلب -مؤسس الدولة الأغلبية- إلى خريش الكندي أحد القادة الذين أرادوا الثورة عليه سنة 186هـ ، حيث أن خريش أرسل له رسالة يتهدده فيها فرد عليه إبراهيم ابن الأغلب بسخرية قائلا:

"من إبراهيم ابن الأغلب إللى خريش رأس الضلال ، سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإن مثلك مثل البعوضة التي قالت للنخلة و سقطت عليها : استمسكي فإني أريد الطيران ، فقالت النخلة : ما شعرت بسقوطك فيكربني طيرانك"(1) ، و هذه الرسالة و إن كانت تحمل طابعا هزليا إلا أنها ديوانية رسمية ، و لا شك أنها أدت مقصودها بأبلغ مما لو كانت بلغة مباشرة ، و أمثلتها كثيرة جدا في تاريخ العرب خاصة عند خلفاء الدولة العباسية الذين اشتهروا بالأدب و الفكر .

إلى جانب هذه الرسائل الديوانية حفظت لنا كتب التاريخ كذلك الكثير من الرسائل ذات الطابع الإخواني إذ نجد في هذا الصدد رسالة لداود القيرواني (210هـ) يستعطف إبراهيم ابن الأغلب ليعيده إلى ديوان الرسائل يقول فيها: "ذنبي عظيم و خناقي ضيق ، و حجتي ضعيفة ، و عفو الأمير و طوله أعظم من ذلك كله ، فإن تداركني الأمير -أعزه الله- بما أؤمل فذلك الذي يشبهه و ينسب إليه و أرجوه منه ، و إن يعاقب فالذنب الذي اجترمته و هو أحق بانتشالي من زلتي و إقالتي من عثرتي ، و الأمير أولى في و أنظر مني لنفسي ، و أعلى بما سألته و رغبت إليه فيه عينا و يدا و الله ولي توفيقه فيما عزم عليه من ذلك ، أتم الله على الأمير نعمته"(2) فعفا عنه الأمير ابن الأغلب و قربه منه ، و هذه الرسالة ذات الطابع الإخواني و التي قبلها من خلال اللغة تشير إلى عدم وجود التباين اللغوي و الأسلوبي بين رسائل بلاد الغرب أو الشرق خاصة في هذه الفترة المتأخرة نسبيا باعتبار أن هؤلاء هم الجيل الثاني من سكان بلاد الغرب الإسلامي ،بل إن العلاقات بين كتاب المشرق و المغرب كانت قوية ، إذ نجد في كتب التاريخ أن خالد بن ربيعة كاتب عبد الرحمن بن حبيب الوالي في القيروان كان صديقا لـ عبد الحميد الكاتب المشهور كاتب مروان بن محمد و كانت بينهما مودة ومراسلات .

1)-ابن الأبار ، الحلة السيراء ، 103/1 .

2)-شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي ، دار المعارف ، القاهرة ، 310/9 .

سابعا: الشعر

في خصوص الشعر فإنّ الحديث فيه مما يثير الدهشة بسبب سرعة تلقّف المغاربة لهذا النوع من الفنّ الأدبي الغريب عن لغتهم و تقافتهم ، لكن سرعة تعرّب سكان شمال افريقيا بسبب الفاتحين وقيام مدينة عربية خالصة و هي القيروان في منتصف القرن الأول سهل وسرّع من الأمر فما نكاد نصل إلى منتصف القرن الثالث حتى أصبح التمييز صعبا بين عربي أو مغربي أو مشرقي في لسانه أوشاعر قيرواني أو بصري في فحولته ، و هذا من دون شك عائد إلى طبيعة الدعوة الإسلامية المحمّلة بمختلف القيم التي أسهمت في بناء الفكر العربي إضافة إلى العمل الكبير الذي قام به الولاة من خلال خدمة الجوانب الأدبية وتقديم الشعراء و الكتاب ، لكن المؤكد أن البداية كانت مع ما كان ينشده الجند الفاتحون من الأشعار حيث تذكر المصادر أنّ من بينهم الكثير ممن كان ينشد الشعر لنفسه أو لغيره ومنهم من كان من قبائل عربية معروفة بالشعر و الأدب ، حيث نجد من أشهرهم أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبي(1) ، الذي عرف بأنّه الشاعر المفوّه و الفارس النابه ، إذ أنشد له ابن الأبّار في كتابه أشعارا كثيرة (2)، و منهم كذلك سليمان بن حميد الغافقي (160هـ) الذي قال عنه ابن الأبار : "فارس العرب قاطبة بالمغرب في عصره و أحسن الناس و أبلغهم إلى معرفة بأيام العرب وأخبارها ورواية لوقائعها وأشعارها " من أشعاره :

و إنا إذا ما الحرب أسعر نارها　　　لنلقى المنايا دارعين وحسرا (3)

1)- أَبُو الخَطَّار (130 هـ): حسام بن ضرار بن سلامان بن خيثم ابن ربيعة الكلبي ثم الربعي، أبو الخطار: أمير الأندلس، كان حازما شجاعا فصيحا شاعرا، قال ابن الأثير: كان فارس الناس بإفريقية، ولاه حنظلة بن سفيان (والي إفريقية لهشام بن عبد الملك) إمارة الأندلس، فانتقل إليها من تونس سنة 125 هـ وأقام بقرطبة . ينظر: الزركلي، الأعلام، 122/2 .

2) - ابن الأبار، الحلة السيراء، 68/1-341/2 .

3) - المصدر نفسه 83/1 .

و منهم كذلك الحكم بن ثابت السعدي من سلالة سلامة بن جندل الشاعر الجاهلي، ويذكر كذلك أن يزيد بن حاتم المهلبي أحد أمراء المغرب الذي أمر بتجديد بناء جامع الزيتونة و بعث الصناعات والتجارة، كان أديبا محتفيا باللغة و الشعر فقرب الأدباء و أكرمهم و قربهم مما بعث نشاطا ثقافيا في المنطقة [1]، و كتب و أشعار كثيرة ، حتى جعل من المنطقة بيئة أدبية مهمة في الأدب والشعر، من شعره يصف كرم أسرته:

ما يألف الدرهم المضروب خرقتنا   إلا لماما قليلا ثم ينطلق

و لما وفد اليزيد إلى القيروان جاء إلى جانبه مجموعة من الشعراء و الأدباء من بينهم المعمر بن سنان التيمي الذي اتخذه مؤنسا له في طريقه يتحفه بغريب الأخبار إذ يقول فيه ابن الأبار كان أعلم الناس بأيام العرب و أخبارها ووقائعها و عنه أخذ أهل إفريقية حرب غطفان و غيرها من وقائع العرب"[2]، وكان اليزيد قد توافد على حضرته الشعراء و تسابقت إلى نيل الحضوة عنده كما هو شأنهم في كل العصور، إذ نجد من بين من وفد إليه كذلك ربيعة الرقّي الشاعر العباسي الذي يقول فيه من القصيدة التي اشتهرت في العصر العباسي:

هو البحر إن كلفت نفسك خوضه   تهالكت في أمواجه المتلاطم[3]

ووفد إلى إليه كذلك الشاعر ابن المولى الذي قال فيه :

و إذا تباع كريمة أو تشترى   فسواك بائعها وأنت المشتري

إذ يروى أنّ ابن المولى جنى من هذه القصيدة ما كان في بيت مال اليزيد المهلبي، و يذكر أنّ ابن المولى وربيعة الرقي التفّ حولهما شباب القيروان يروون عنهما أشعارهما و أشعار طبقتهما [4].

---

1) – ابن الأبار ، الحلة السيراء 76/1 .

2)- المصدر نفسه 107/1.

3)- ينظر: ابن خلكان البرمكي، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر الإربلي (681هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان،تح: إحسان عباس، دار صادر/بيروت، 323/6 .

4)- ينظر: ابن تغري بردي يوسف بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين (874هـ)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر ،2/2 .

إلى جانب هؤلاء وفد جماعة من علماء اللغة و رواة الشعر ممن كان مقصدهم نشر اللغة والأدب مثل أمان الصمصامة بن الطرماح الذي كان شاعرا عالما باللغة كما يقول الزبيدي [1]، و إلى جانبه كان كذلك عياض بن عوانة الذي تتلمذ على يديه الكثير من طلاب في المغرب و كان ينظم الشعر ويجود فيه [2].

و يروى كذلك لابراهيم ابن الأغلب الذي كان شاعرا هو الآخر أنّه ترك زوجته بمصر لما سار إلى القيروان فكتب إليها لما حنّ منشدا :

ما سرت ميلا ولا جاوزت مرحلة إلا وذكـرك يثنى دائمـا عنقي
ولا ذكـرتـك إلا بتّ مرتقبـا أرعى النجوم كأن الموت معتنقي

و من عائلة الأغالبة كذلك نجد الأمير أبو العباس محمد (242هـ) حفيد إبراهيم ابن الأغلب الذي يقول مفتخرا بنسبه و أسرته [3]:

أنا الملك الذي أسمو بنفسي فأبلغ بالسمو به السحابا
أظـل عشيرتي بجنـاح عزي و أمنحها الكرامة و الثوابا

و شعراء الأسرة الأغلبية الحاكمة كثيرون منهم كذلك أحمد بن سوادة (260هـ) الذي تولّى أمر صقلية، الذي قال يوما مفتخرا ببطولاته و فروسيته:

أنا من قد جـال ذكري وجـرى بين الأنـام
أركـب الهـول بكـرا تي على الجيش اللهام
تعرف الأنـسر بأسـي فهي من فوقي حوامي

و لم يقتصر الأمر فيهم على الرجال فقط بل نجد العنصر النسوي كذلك إذ نجد منهم مهرية الأغلبية (295هـ) التي لها مرثية مشهورة في أحد إخوانها [1] تقول فيها.

---

1) – ينظر: السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين (911هـ)، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، لبنان/صيدا، 459/1 .

2)– الفيروزآبادى، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب (817هـ)، البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1421هـ– 2000م، 226/1 ، السيوطي ، بغيو الوعاة 234/2 .

3)– ابن الأبار ، الحلة السيراء ، 170/1 .

ليت شعري ما الذي عاينته بعد طول الصوم مع نفي الوسن
مع نزوح النفس عن أوطانها و التخلي عن حبيب و سكن
يا شقيقا ليس في وجدي به علـــة تمنعني مـــن أن أجــن
و كما تبلى وجــوه في الثرى فكـــذا يبلـــى عليهن الحــزن

إلى جـانبهم اشـتهر مجموعـة مـن الشـعراء و الأدبـاء في عصـرهم مثـل الحسـن بـن منصـور المذحجي الذي قال فيه ابن الأبار :"أقلّ ما تصرف فيه الشعر و كان بصيرا باللغة نافذا في النحو عالما بأيام العرب وأخبارها ووقائعها و أشعارها" من قوله يرثي ابن عم له :

لكأني لما تضمنـك اللحـــ ـــد يمين قد فارقتها الشمال (2)

و منهم كذلك عبد الملك المهري (256هـ) اللغوي النحوي و الرواية الذي له مرثية مؤثرة في الإمـام سحنون(3) و لـه تلميـذ نبيه كـذلك اشتهر بـالأدب و الشعر اسمه حمدون الملقب بالنعجة، يقـول فيـه الزبيـدي : " شعره عليه أثر التكلّف ، أما في النحو و العربية و الغريب فهو الغاية التي لا بعدها"(4) .

من رثاء المهري لشيخه سحنون ما يلي :

و لي لعمري بأرض الغرب قاطبة ميت له البـــدو و الحضّـــار قد خشعا
لله أنت إذا مـــا هـــاب فاصلـــة من القضاء كليـــل الحـــــد فارتــــدعا
هناك برزت يـــا سحنون منفـــردا كسابـــق الخيــــل لما بـــــان فانقطعـــا
فاذهب فقيدا حبـــاك الله جنتــــه واحصد من الخير ما قد كنت مزدرعا (5)

---

1)- المصدر نفسه 184/1.

2)- ابن الأبار، الحلة السيراء 188/1 .

3)- سَحْنُون (160 – 240 هـ): عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخي، الملقب بسحنون، قاض، فقيه، انتهت إليه رياسة العلم في المغرب، كان زاهدا لا يهاب سلطانا في حق يقوله، أصله شامي، من حمص، ومولده في القيروان، ولي القضاء بها سنة 234 هـ واستمر إلى أن مات، أخباره كثيرة جدا، وكان رفيع القدر، عفيفا، أبيّ النفس، روى " المدونة" في فروع المالكية، عن عبد الرحمن بن القاسم، عن الإمام مالك، ولـ أبي العَرَب محمد بن أحمد بن تميم كتاب " مناقب سحنون وسيرته وأدبه " .ينظر: الزركلي، الأعلام ، 5/4 .

4)- السيوطي، بغية الوعاة 308/1.

5)- القاضي عياض، ترتيب المدارك 88/4.

ولما توفي ابن سحنون محمد الذي كان عالما كوالده بمنطقة المغرب رثاه كذلك أحمد بن أبي سليمان الصواف بقصيدة بلغت ثلاثمائة بيت يقول فيها:

ألا أيها الناعي الذي جلب الأسى — وأورثنا الأحزان لا كنت ناعيا
نعيت إمام العالمين محمدا — وقلت مضى من كان للدين راعيا
ومن كان حبرا عالما ذا فضيلة — نقيا رضيا طاهرا القلب زاكيا(1)

ومثل هذه المرثيات في العلماء كثيرة جدا ببلاد المغرب مثل مرثية سعدون الورجيني في يحيى بن عمر، ورثى كذلك أبو القاسم الفزاري شيخه أبا الفضل الممسي بقصيدة بعد أن قتل في فتنة بين الصفرية والسنّة، ورثى كذلك ابن الخوّاص الكفيف إمام المالكية ابن أبي زيد القيرواني(386هـ) (2).

و نجد كذلك من شعراء الغرب الإسلامي أبا طاهر التجيبي متحدثا عن عزة نفسه:

إلى كم أقر النفس في المرتع المحل — وأقنع من جد المكاسب بالهزل
أكلف أقلامي مدى متماحلا — ولم أعتمل مهري و رمحي و لا نصلي
ومن كلف الأقلام لا البيض همه — أقمن به بين المذلة والقل (3)

على الطرف الآخر من المغرب و في كنف الدولة الرستمية الإباضية نجد مجموعة أخرى من الشعراء الفطاحل أمثال ابن خراز التاهرتي (3هـ) و كان قد هاجر إلى المشرق فكتب هذه الأبيات يأسى فيها على تركه لمسقط رأسه فقال:

نأى النوم عني واضمحلت عرى الصبر — وأصبحت عن دار الأحبة في أسر
و أصبحت عن تاهرت في دار غربة — و أسلمني مر القضاء من العذر
إلى تنس ذات النحوس فإنها — يساق إليها كل منتقص العمر
بلاد بها البرغوث يحمل راجلا — و يأوي إليها الذئب في زمن الحر

1)- الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز (748هـ)، سير أعلام النبلاء ، تح: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط3 ، 1405 هـ / 1985 م ، 63/13 .

2)- المصدر نفسه ، 63/13 . الصفدي ، الوافي بالوفيات 182/18 ،و له كذلك : نكث الهميان في نكت العميان، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط1، 1428 هـ - 2007 م، 171/1 .

3)- شوقي ضيف ، تريخ الأدب العربي ،239 .

تـــــرى أهلها صرعى ومـــن أم ملــــدم يروحون في سكر و يغدون في سكر

و نجد في هذه الفترة أشهر شاعر في شمال إفريقيا و هو بكر بن حماد التاهرتي الذي نشأ وكبر بمسقط رأسه تاهرت ثم هاجر إلى القيروان ثم إلى المشرق و التقى كبار العلماء مثل المحدّث مسدد بن مسرهد وروى عنه، و التقى كبار الشعراء و لفت انتباههم مثل أبي تمام، و التقى دعبلا كذلك وحصلت بينهما خصومة بسبب هجاء دعبل للخلفاء و منهم المعتصم العباسي ما دفع بكر بن حماد إلى تحريض الخليفة عليه بهذه الأبيات:

أيهجو أمير المؤمنين ورهطـــــه و يمشي على الأرض العريضة دعبل

أما و الذي أرسى ثبيرا مكانه لقـــــد كـــــادت الدنيا لذاك تزلزل

و لمـــن أمير المؤمنين بفضلـــه يهـــم فيعفـــــو أو يقول فيفعـــــل(1)

و يقال أن أبا تمام حين سمع هذه الأبيات قال له لقد قتلته يا بكر، فألحق بالأبيات بيتين إشارة إلى كلمة أبي تمام هما :

و عاتبني فيـــــه حبيب و قــــــال لي لسانك محذور و سمك يقتــــل

و إني و إن صرفت في الشعر منطقي لأنصف فيما قلت فيه و أعدل(2)

لمّا تولى العبيديون زمام الحكم حاولوا تسخير كلما وسعهم لأجل التبشير بدعوتهم الإسماعيلية في وجه المذهب السنّي الذي وجدوه في شمال إفريقيا ، و كان من أنجع الأسلحة المؤثرة في ذلك سلاح الشعر، فأغدقوا الأعطيات للشاعر كيلا و لمن مدحهم أو أومدح دعوتهم كيلين ، فنجد منهم، خليل بن إسحاق الطرابلسي، و سعدون الورجيني الذي قال في مدح المهدي:

هذا الإمام الفاطمي و من به أمنت مغاربها من المحـــــذور(3)

1) –ابن عذارى، البيان المغرب، 154/1 .

2) – المصدر نفسه ، 154/1 .

3)– ٍ الدواداري، أبو بكر بن عبد الله بن أيبك ، كنز الدرر وجامع الغرر ، مطبعة ،عيسى البابي الحلبي ، 115/6 .

و عبيد الله المهدي نفسه كان شاعرا مجيدا، إذ نجد في بعد المصادر قطعا من الشعر تنسب إليه منها أبيات مشهورة يفتخر فيها بفروسيته و حبه للوغى و البطولات و تركه لحياة البدخ و الرخاء:

من كان مغتبطا بلين حشيــة   حشيتي و أريكتي سرجــي
من كان يعجبـه و يبهجــه   نقر الدفوف و رنة الصنـج
فأنا الذي لا شـــيء يعجبني   إلا اقتحامي لجة الوهــج [1]

و كان بعده ابنه شاعرا كذلك ومن قوله :

ألا إن حدّ السيف أشفى لدى الوصب   وأحرى بنيل الحق يوما إذا طلب [2]

ومن شعراء تلك المرحلة كذلك أيوب بن إبراهيم الذي مدح الخليفة العبيدي المنصور لما قضى على ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد إذ يقول فيه:

يا بن الإمام المرتضى و ابن الوصي   المصطفى وابن النبي المرســـل
الله اعطــاك الخلافـــة و اهبـــا   و أراك للإسلام أمنع معقــل [3]

و في نفس الموضوع كذلك مدح أبو القاسم الفزازي أيوب العبيدي لحمايته لهم من ثورة مخلد بن كيداد إذ يقول:

كريم المساعي والأيــادي سمت به   أبوة صدق من ذؤابة هاشــــم
شريف الأداني والأقاصى مهذب   إذا ما عددنا فضل أهل المكارم

و نجد كذلك من أهم شعراء هذه الفترة علي بن محمد الإيادي الذي يعد من أهم شعراء الدولة العبيدية عرف بشعره و بخدمته لبعض خلفاء العبيدين و فيه يقول محمد بن شرف: "أما علي بن الإيادي التونسي فشعره المورد العذب، و لفظه اللؤلؤ الرطب، و هو بحتري الغرب، يصف الحمام، فيروق الأنام، ويشبب فيعشق و يحبب" من شعره واصفا اسطول المهدي:

1) – مبارك الميلي ، تاريخ الجزائر في القديم والحديث 2/ 133 .

2) – محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (310هـ) ، تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري) ، دار التراث، بيروت، ط2 – 1387 هـ ، 11/75 .

3) – المقريزي، أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين (845هـ)، اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ، تح:جمال الدين الشيال، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية / لجنة إحياء التراث الإسلامي ، ط1،1/87 .

أعجب لاسطول الإمام محمـــد و لحسنـه و زمانـــه المستغرب

لبست به الأمواج أحسن منظر يبدو لعين الناظـــر المستعجب

من كل مشرفة على مـــا قابلت إشراف صدر الأجدل المتنصب

دهماء قد لبست ثيـــاب تصنع تسبي العقول على ثياب ترهب [1]

وله قصيدة بديعة أخرى يصف فيها قصر المنصور الذي بناه في صبرة يقول فيها:

بنى قبـــة للملك في وسط جنـــة لها منظر يزهى به الطـــرف مونق

لها جدول ينصب فيها كـــأنـــه حسام جلاه القين بالأرض ملصق

لها مجلس قد قام في وسط مائهـــا كما قام في فيض الفـرات الخورنق

إذا بث فيها الليل أشخاص نجمه رأيت وجوه الزنج بالنـــار تحـــرق[2]

و بتولى المعز الفاطمي لزمام الحكم توافد عليه الشعراء و تزاحموا في حضرته، ومن دون شك أن أهمهم في هذه الفترة ابن هانئ الأندلسي، حيث يقول له لما افتتحت مصر على يد جوهر الصقلي :

يقول بنو العباس هل فتحت مصر فقل لبني العباس قد قضي الأمر[3]

مع توجّه المعز الفاطمي صوب مصر حدثت عدة تغيرات على مستوى الحياة الأدبية والفكرية على مستوى المغرب و على مستوى المشرق باعتبار بوابته المصرية ، إذ أنّ الفـاطمين نقلوا التراث المغربي الذي أسسوه طوال حكمهم ببلاد المغرب باعتبار خزائن الكتب و رجال الفكر الذين اصطحبوهم إلى هناك ، رغم أن فترة حكمهم كانت تمثل امتداد لحكم و فكر المشرق ، كما أن إخلاءهم لبلاد المغرب فسح المجال للصنهاجيين لكي يثبتوا ذاتهم و الشخصية التي أصبحوا عليها من خلال السياسة و الأدب و الفكر ، يقول الشاذلي بويحيى: "لا بد من الإشارة إلى أن الملوك العبيديين قد أخذوا معهم إلى مصر قسطا وافرا من الكتب و الأدوات العلمية التي كانت تملأ خزائن كتبهم

1) – رزق الله بن يوسف بن عبد المسيح بن يعقوب شيخو، مجاني الأدب في حدائق العرب ، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، 173/6 .

2) – الحُصري ، إبراهيم بن علي بن تميم الأنصاري، أبو إسحاق القيرواني (453هـ)، زهر الآداب وثمر الألباب، دار الجيل، بيروت 233/1 .

3) – عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامي المكي، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي ، تح: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض ، دار الكتب العلمية/بيروت ، ط1، 1419 هـ – 1998 م، 549/3 .

ويزخر بها يت الحكمة الشهير ..." ثم يقول عن التحول الفكري نتيجة انسحابهم من بلاد الغرب الإسلامي: "...بذلك فإن الحالة الثقافية قد أصبحت في سنة (972/362) بالذات و بشكل مفاجئ خلاف ما كانت عليه بالأمس، فانتهت الحياة الثقافية الخاصة بالعهد الفاطمي، وبدأت حياة ثقافية جديدة مع انطلاق دولة جديدة يبدو أنها أعند شعورا من الأخرى بانتمائها الأفريقي، وأكثر تحجّرا من ذلك الحنين نحو المشرق الذي كان يفقد العديد من الأنظمة السياسية بالمغرب عوامل الدوام و الأصالة ثم إن سنة (362هـ/972م) هذه هي سنة وفاة ابن هانئ ، وهو حدث لا يمثل في الحقيقة نهاية طور من الحياة الأدبية بإفريقية بقدر ما يحدد بدء طور جديد فهذا الشاعر الذي كان مقامه بإفريقية أقصر من أن يجعله ممثلا لمدرسة شعرية تكون قد زالت بزواله، قام في المقابل بسن طريقة جديدة أو أسلوب جديد في الشعر سوف ينسج على منواله شعراء إفريقية زمنا طويلا ، وسوف يكون لذيوع صيته دور العامل الحافز بالنسبة إلى الانتاج الشعري ، كما سيساعد كتاب المغرب الإسلامي على التخلّص من مركب النقص حيال المشرق ، فقد أصبح بإمكان المغرب أن ينجب شاعرا بمنزلة المتنبي... "[1] .

بالجملة فإنه بتولي الصنهاجيين لزمام المغرب الإسلامي ازدهر الأدب و الشعر و الحياة الثقافية بشكل عام لما تميز به الحكام الصنهاجيين من الثقافة الواسعة و الحب للعلم و العلماء ، إضافة إلى أنّ طبيعة الخطاب تطورت إذ استقل الصنهاجيون بالحكم السياسي ما أتاح لهم تحررا ثقافيا ، إذ غالبا ما كانت الدول السابقة مشرقية في الأراضي المغربية و هو أمر منطقي[2] ، فلا عجب أن نجد في هذه المرحلة شعراء كثيرين و نقاد فطاحل ، ودليل ذلك حجم قصائد المدح التي قيلت فيهم ، إذ نجد ابن سفيان الشاعر يقول في المنصور الصنهاجي(386هـ) :

و معترك ضاق القضا في مقامه ... من الطعن و الأرض العريضة خاتم
تجلى لها المنصور فانجاب جنحها ... و لبته في لثم التراب الجماجم
قناتهم في حيث لا السيف ينتظى ... كأن ضياه في التراقي تمائم

---

1) – الشاذلي بو يحيى ، الحياة الأدبية بإفريقية في عهد بني زيري ، ج1/ص 51 ، 52 .
2) – ينظر: عبد الله العروي، تاسيس الغرب الإسلامي، دار الطليعة ، بيروت ، ط1، 2004م، 18.

كأن الطلا وسط العجاج خناصر　　　و قد صيغ من بيض الفرند خواتم[1]

ومدح قرهب الخزاعي كذلك باديس ابن المنصور فقال:

أبني مناد سلكتم سنن الهدى　　　و العقد منكم بالوفاء معـــار
و كأن باديس المملك فيكـم　　　شمس الضحى و كأنكم أقمار
راق تلاع العز يحمى حـوزه　　　حد البواتـــر و القنا الخطار
و حدا بحده جازع في مهمة　　　و شدا به الحضار و السمار [2]

كذلك نجد من أهم شعراء الدولة الصنهاجية و شعراء باديس على الخصوص إبراهيم بن القاسم الرقيق القيرواني[3] الذي اشتهر بالتاريخ و الكتابة و كان رئيس الإنشاء في الدولة الصنهاجية ، يقول عنه ابن خلدون: "الرقيق مؤرخ إفريقية و الدول التي كانت بالقيروان و لم يأت من بعده إلا مقلّد له"، ويقول فيه ابن رشيق: "هو شاعر سهل الكلام محكمه لطيف الطبع قويه ، تلوح الكتابة على ألفاظه، غلب عليه اسم الكتابة و علم التاريخ و تأليف الأخبار و هو بذلك أحذق الناس ، وله في باديس أشعار مختلفة منها قوله:

و ما مثل باديس ظهير خلافـة　　　إذا اختير يومـا للظهيرة موضع
نصير لها من دولة حاتـــميـة　　　إذا ناب خطب أو تفاقم مطمع
حسـام أمير المؤمنين وسهمــه　　　وســم زعـاف في أعاديـــه منقع[4]

---

1) – ينظر: شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي ، الإمارات ليبيا تونس صقلية ، ص 217 .

2)- ينظر: شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي ، الإمارات ليبيا تونس صقلية ، ص 217 .

3)- الرقيق (حوالي 425 هـ): إبراهيم بن القاسم المعروف بالرقيق القيرواني، أبو إسحاق، الكاتب الأديب الشاعر المؤرخ، ولد بالقيروان ومات بها وتاريخ ميلاده ووفاته غير معروفين، كما أن تفاصيل حياته غير معروفة بدقة، تولى الكتابة الخاصة لثلاثة أمراء صنهاجيين زيريين: المنصور (374-386) وباديس (386 – 406)، والمعز (بداية من 406)، من مؤلفاته: الأغاني، نحا فيه منحى أبي الفرج الاصبهاني، مجلد ضخم، الاختصار البارع للتاريخ الجامع، عدة مجلدات، ولعله اختصار لتاريخه الكبير عن افريقية والمغرب، أخبار بني زيري الصنهاجيين، ، **قطب السرور في وصف الأنبذة والخمور**، في جزءين، وهو الكتاب الذي وصل إلينا كاملا من مؤلفاته.

4) – ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ، 1./99 .

و تولى بعد باديس مطلع القرن الخامس ابنه المعز الذي كان فارسا أديبا فتسابق الشعراء في مدحه وتكاثروا حتى قيل أن مداحه بلغوا مائة شاعر .

من أهم الشعراء كذلك و أكثرهم شهرة ممن ينحدر من المغرب الأوسط بالضبط نجد عبد الكريم النهشلي (405هـ)[1] شيخ ابن رشيق و كاتب المنصور بن بلكين و تميم ابن المعز الذي اشتهر بشعره وتآليفه، من أشهر قصائده بائية يمدح فيها المنصور بن بلكين و يصور مجلسه، يقول فيها :

و مجلس موقـــور الجلالـــة تنثني   عيون الورى عنه و ينبو خطابها
ترى فيه رفع الطرف خفضا كأنما   لحـــاظ الرجـــال ريبة تستريبها
إذا حكتها ظلت نواسج عبقـــر   حواسد مدسوسـا إلى عتابـــها
على ملك تهدى إلى مكرماتــــه   عقائل أشعـار بزف شبابــــها
همام دعت كفــــاه قاصية العلا   فلباه منهـــا صفوها و لبابـــها

كذلك نجد في هذه الفترة من الشعراء المشهورين عبد الله بن محمد التنوخي المعروف باين قاضي ميلة إذ كان أبوه فعلا قاضيا، صحب أباه إلى جزيرة صقلية فاتصل بواليها ثقة الدولة و فيه قال هذه الأبيات[2]:

أغـــر قضاعــــي يكـــاد نوالـــه   لكثرة ما يدعو إلى الشكر يجحف
سعى وسعى الأملاك في طلب العلا   ففــاز وأكـدوا إذ أخف وأقطفـوا
ويقظان شاب البطش بالبر و التقـى   بكفيـــه ما يرجى وما يتخـــوف
حسام على من ناصب الدين مصلت   و ستر على من راقب الله معـدف
يســـايره جيشـــان رأي و فيلـــق   و يصحبه سيفان عـــزم و مرهف

1) – عبد الكريم بن إبراهيم النهشلي التميمي القيرواني، الأديب الشاعر الناقد، العارف باللغة وبأيام العرب وأشعارها، ولم يهج أحدا، ولد بالمحمدية (المسيلة بالجزائر) وعاش بالقيروان، وأكمل بقية حياته في المهدية، لما قدم من المحمدية تابع دراسة العلم بالقيروان في وقت كانت القيروان زاخرة بأعلام العلماء وكبار الشعراء وكان متّبعا للقديم حتى شبّه بشعراء الجاهلية، تولى الكتابة في ديوان الخراج، ثم نقل إلى الكتابة في ديوان الإنشاء على عهد المعز بن باديس، من آثاره: الممتع في علم الشعر وعمله، نظر ترجمته في: محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين ، دار الغرب الإسلامي، بيروت/لبنان، ط1، 1994 م ، 47/5 .

2) – عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن درهم ، نزهة الأبصار بطرائف الأخبار والأشعار ، دار العباد – بيروت ، 100 .

مطل علـــى من شاءه فكأنـــما　　　على حكمه صرف الردى يتصرف[1]

نجد كذلك في عصر الصنهاجيين بعض الشعراء الذي عرفوا بسهولة طبعهم و لطافة عبارتهم مثل عبد العزيز بن أبي سهل الخشني النحوي المعروف بابن البقال (406هـ) الذي يقول عنه ابن رشيق:"كان شاعرا مطبوعا يلقي الكلام إلقاء و يسلك طريق أبي العتاهية في سهولة الطبع ولطف التركيب و قرب مأخذ الكلام "، و ينشد من غزله قوله:

يا غصنا غضـــا مـــن الآس　　　و درة وهيـــا من النـــاس

صـــورك الله علـــى صورة　　　كانت بها أسباب وسواسي

ترديد ذكرى لك في خاطري　　　أكثر مـن ترديد أنفاســي

نسيـــت ودي و تناسيتنـــي　　　و ليس قلبي لك بالناســي

و ليس لي منك سوى حسرة　　　تجول بين الشوق و الياس [2]

كذلك نجد في هذه المرحلة من رقيق الشعر ماكتبه ابن الصفار السوسي ، حين سافر إلى الأندلس مجاهدا مخلفا زوجه و أبناءه وراءه حيث أنشد أبياتا في قصيدة مدح بها أحدهم ضمنها الحوار الذي دار بينه و بين زوجه أثناء توديعه لها :

بكت و شكت و استرجعت و توجعت　　　فظلت لـها مسترجعـا متباكيـــا

و قالت أما تنهـــاك أن تـــذكر النوى　　　نهى قد نهت عنك الصبا و التصابيا

ومـــن لصغار من عيـــال تركتهـــم　　　كزغب القطا يبغون طعما و ساقيا

و لـــن يجدوا للعيش بعـــدك لـــذة　　　و لن يشربوا من بعدك الماء صافيا

فقلت لـــها إن الـــذي ليس غيـــره　　　إله كفاهم حافظـــا و مراعيـــا[3]

ومن أهم الشعراء و النقاد كذلك الذين يعتبرون من أعلام المرحلة الأخيرة التي يتناولها البحث نجد الشاعر و النحوي الناقد القزاز القيرواني الذي لم يستطع ابن رشيق القيرواني أن يخفي إعجابه به وبقدرته على الشعر إذ يروي له من الغزل قوله :

---

1) – ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، 160/6

2) – القفطي ، إنباه الرواة ، 2/ 179 .

3) – الصفدي ، الوافي بالوفيات ، 106/8 .

أما و محل حبك من فـؤادي | و قدر مكـــانه فيـــه المكيـــن
لو انبسطت لي الآمـال حتى | تصيــر لي عنانــك في يـــميني
لصنتك في مكان سواد عيني | و خطت عليك من حذر جفوني
فأبلغ منك غابات الأمـــاني | و آمـــن فيك آفات الظنـــون [1]

و نجد كذلك من زمرة هولاء الشعراء علي الناسخ يخاطب ولده لما هم بالسفر إلى الديار المصرية طلبا للعلم إذ قال:

يا دهـــر مالك لا ترثـــي لمكتئب | ما بات منك خليــا قط من كرب
لم يكـف صـرفك صـرفي عـن ذوي ثقتي | حتى تعقب بالتفـــريق في عقبـــي
ابن و كـــان أبا لي في مـــحبتـــه | أمسى بأرض الفــلا فردا بغير أب
أمسيت في وطني في مثـــل غربتـــه | يا مـــن لمغترب بـــاك لمغتـــرب
و الله يا ولدي المجذوب من كبـــدي | للرأي ذاك و إن أمسى به عطبـــي
فما الحيـــاة إلى نفســـي بمعجبـــة | إن لم تجز بي أعلى السبعة الشهب[2]

ولابن عبدون السوسي كذلك أبيات قريبة من هذه المعاني يقول فيها:

على العدوة القصوى و إن عفت الدار | ســـلام غريب لا يئوب فيـــزدار
و حق بكاء العين و القلب مسعـــد | لمن بات مثلي لا حبيب و لا جار
شفـــى الله دار القيروانيـــن بعدنـــا | فقـــد مرضت للقيروانين أبصـــار
و كيف عنـــاء الطير في غير أيكهـــا | و قد بعدت منهـــا فراخ و أوكـــار
ألا يا بروقا لحن مـــن نحو صبـــرة | و ليس لـــها إلا دموعي أمطـــار
عسى فيك من مـــاء الحنيات شربة | و لو مثل ما يوعى من الماء منقار[3]

1- القفطي ، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف (646هـ)، المحمدون من الشعراء وأشعارهم، تح: حسن معمري ، دار اليمامة ، 1390 هـ - 1970 م، 259 .

2- الصفدي ، الوافي بالوفيات ، 230/21 .

3)- ابن بسام الشنتريني أبو الحسن علي (542هـ)الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تح: إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، ليبيا/ تونس ، ط1، 1981 ، 7/ 261 .

كذلك نجد من أهم شعراء هذه الفترة المتأخرة من مرحلة الدراسة محمد بن عبدون الوراق (400هـ) الذي قال عنه ابن رشيق: "شاعر وطيئ الكلام ، كلف بعذوبة اللفظ و التسلل إلى المعنى البعيد بلطافة و سكون جأش" تروى له أبيات يحن فيه إلى أهله و بلدته حيث إنه كان قد ترك بلدته سوسة و انتقل إلى صقلية يقول فيها :

يا قصر طارق الـــذي طرقت   أحشايا فيه بلابل الصـــدر
و الله ما قصرت عـــن تلف   لكنني قصـــرت بالقســر
فسقاك منهل الحيـــا و سقى   عصرا تقضى فيك من عصر
أعطى عهود الله صفقة مـــن   أعطى العهود بجانب الحجر
لو أستطيع سبحت من طرب   شوقا إليك سواد ذا البحــر

كذلك من طريف ما نجده من شعر المغاربة هو النظم في بعض الأغراض غير المعتادة مثل الهجاء والمدح والغزل كوصف الطبيعة مثلا في فترة متقدمة مثلما نجده عند أبي الحسن الكاتب (408هـ) الذي قال عنه ابن رشيق أنه كان حسن البصر بصناعة الشعر، سالكا لجميع شعابها إذ يقول في وصف البحر :

انظر إلى البحر و أمواجه   فقد علاها زبـــد متســق
تخالها العين إذا أقبلـــت   خيلا بدت في حلبة تستبــق
حمرا و دهما فإذا ما دنت   من شاطئ البحر علاها بلـق
ظهورهـا در و أكفالهـــا   ألبسها الجري صبيب العرق [1]

و نجد كذلك وصفا جميلا للنيل عند ابراهيم بن غانم الكاتب القيرواني (421هـ) إذ أقام مدة في مصر ثم عاد إلى القيروان :

النيل بين الجانبيـن كأنـــما   صبت بصفحته صفيحة صيقل
يأتيك من كدر الزواخر مده   بممسك من مائه و مصنـــدل
و كأن ضوء البدر في تمويجه   برق تموج في سحاب مسبـــل
و كأن نور السرج في جنباته   زهر الكواكب تحت ليل أليـل[1]

1) - الصفدي، الوافي بالوفيات، 2/ 154.

إلى جانب الفنون الشعرية دائما ما تنشط الفنون الغنائية إذ بدأت الفنون الغنائية المتعلقة بالفكر العربي تتطور بدءا من الفتح حيث اشتهر الفاتحون بحذائهم العربي القديم و من دون شك أن المغاربة نهلوه منهم ليصبح الأمر نشاط منظما في عصر الأغالبة خصوصا لما تولّى المهالبة زمام الأمور إذ استقدمو العشرات من الشعراء و المغنيين من المشرق ، و تواصل الأمر إذ اشتهر في الدولة الصنهاجية مغني يدعى عبد الوهاب كان حاجبا للمنصور الصنهاجي وكان شاعرا ملحّنا و متغنيّا بشعره [2] ، إلى جانب ذلك اشتهر نوع آخر من الإنشاد في بلاد المغرب ارتبط بالزهاد و العباد الذين كانوا يجتمعون و ينشدون شعر الزهد و الحكمة بطريقة طربية ، حتى يذكر في القرن الثالث الهجري أن بعض الزهاد كانوا يجتمعون يوم السبت بمسجد سمي مسجد السبت لأجل ذلك ، و من غير ريب أنّ الانشاد الديني المعروف بشمال إفريقيا يرجع في أصوله إلى تلك المراحل[3] ، و في هذا الصدد نجد من شعراء الزهد والحكمة في المغرب في تلك العصور بعض الشعراء نذكر منهم ابن الرايس الفضل بن نصر (344هـ) الذي له قصيدة يقول فيها:

ما ذا تريك حـــوادث الأزمـــان   و صروفها و طوارق الحدثان
و الجاريات السبع في الفلك الذي   يجري بقدير العظيـــم الشأن
من خفض أعلام و رفع معاشـــر   وزوال سلطان إلى سلطـــان
أما الزمان فـــواعظ لك صرفـــه   لو كنت متعظا بصرف زمان

و نجد كذلك في هذا الصدد عبد الله بن رشيق (419هـ) الذي له قصيدة يقول فيها:

خير أعمالك الرضـــا   بالمقادير و القضـــا

1) - السيوطي ،عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين (911هـ)، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، مصر، ط1، 1387 هـ - 1967 م، 362/2 ، المقري التلمساني، شهاب الدين أحمد بن محمد (1041هـ)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تح: إحسان عباس، دار صادر- بيروت – لبنان ، 39/1 .

2) - شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي ، الإمارات ليبيا تونس صقلية ، ص 154 .

3) - المصدر نفسه ص 164 .

بينمـــا المـــرء ناطق   قيل قد كان فانقضى [1]

نجد كذلك من شعراء التصوف المشهورين بالغرب الإسلامي محرز بن خلف (413هـ) الذي له قصائد زهدية كثيرة [2]من بينها قصيدة يقول فيها :

أبدت لنا الدنيا زخارف حسنها   مكرا بنا و خديعة ما فترت
و هي التي لم تحل قط لـــذائق   إلا تكدر طعمها فتمـــررت
خداعـــة بجمالـــها إن أقبلت   فجاعـــة بزوالها إن أدبـــرت
و هابـــة سلابـــة لهباتـــها   طلابة لخراب ما قد عمـرت
فـــإذا بنت أمـــرا وتم بناؤهـــا   نصبت مجانقها عليه فدمرت

في نهاية هذا المدخل نخلص إلى الكثير من الملاحظات لعل أهمها أنّ منطقة المغرب العربي لم تتأخر زمنيا عن الحراك الفكري عموما و الأدبي خصوصا عن المناطق الأخرى للثقافة العربية ، رغم بعدها الجغرافيا وحداثة عهدها بالثقافة العربية و آدابها و فنونها ، و دليل ذلك ما سبق ذكره من مختلف الأسماء و الشخصيات السالف ذكرها من رجال العلم و الأدب ، لكن واضح أن اهتمام الرحالة والوافدين الأوائل إلى المنطقة كان بقضايا الدين و الشريعة أكثر من الأمور الأخرى لأنها كانت المقصد الأول ، كما أنّ مشارب و مناهل الفكر في المغرب اختلفت و تنوعت بين الحجاز والعراق والشام ومصر والجنوب الأوروبي و غيره من المدارس ، كما هو في المشرق مع الاختلاف الطبيعي، ما نتج عنه لاحقا ظهور بعض الفنون الأدبية التي اختص بها الغرب الإسلامي دون غيره ، كما أنّ غلبة الفكر الديني على المنطقة كان له أثره في توجيه الأغراض الأدبية مثل ضعف أغراض كالهجاء و الغزل و قوة أغراض أخرى كالمدح و الوصف و كان للمذهب المالكي كبير التأثير في ذلك إذ سيطر على التفكير الديني في بلاد الغرب الإسلامي منذ النشأة إلى يوم الناس هذا .

1) – الصغاني، التكملة لكتاب الصلة، 239/2 .
2)-القاضي عياض ، ترتيب المدارك 264/7 .

الفصل الأول

مفهوم الأدب في المغرب العربي ما بين الفتح ونهاية القرن الرابع الهجري

- المبحث الأول: مفهوم الأدب
- المبحث الثاني: مفهوم النثر
- المبحث الثالث: مفهوم الشعر
- المبحث الرابع: بين الشعر و النثر

الفصل الأول: مفهوم الأدب في المغرب العربي ما بين الفتح ونهاية القرن الرابع الهجري.

نجد في هذا الفصل استعراضا لبعض المفاهيم التي نستنتج من خلالها رؤية نقاد الغرب الإسلامي للأدب بفنونه النثرية و الشعرية ، لنستطيع بعدذلك ربط انتقاداتهم و مواقفهم بمفهومهم للأدب بصفة عامة ، لذلك سنجد في البداية ، تحديدا عاما و مجملا لمفهوم الأدب و فلسفته عند علماء الغرب الإسلامي و أقسامه و أهدافه ووظائفه ، ثم نفرد بعد ذلك الحديث في كل فن على حدى، نقصد بذلك النثر والشعر، لنقف في النهاية على واقع الفنين مع بعض في بيئة الغرب الإسلامي ، وكيف أن المغرب تكلم و نقد الفنين مع بعض مشيرا في كل ذلك إلى النقاد الذين اهتموا بالشعر أو بالنثر ، أو بهما معا .

المبحث الأول: مفهوم الأدب

الأدب من المفاهيم البسيطة التي لم يتمكن الباحثون من الإجماع على حد له على مرّ الأزمان ليس في الثقافة العربية أو الشرقية فقط بل في مختلف الثقافات الغربية و الشرقية و في مختلف الأزمان القديمة و الحديثة، لأن الإشكال لم يكن متعلقا بالشكل أو المضمون بقدر ما كان متعلقا بالحدود ، لذلك وقع هذا الاختلاف، و اختلف هذا الحد عبر الزمن ضيقا و اتساعا ، لكن الأدب بقي هو الأدب .

في الفكر العربي اختلف مفهوم الأدب مع التحولات الكبرى التي عاشها الفكر الشرقي عبر الزمن من خلال المحور الرئيسي الذي هو الإسلام ، فما قبله ليس هو ما بعده، مع التحوّل العام في مختلف المفاهيم ، فالأمر ليس حكرا على الأدب ، فالشخصية الجديدة للإنسان الشرقي التي اكتسبها بفعل الإسلام كان لها الأثر الكبير في بلورة مفهوم الأدب إلى العصر الحديث ، لكن الحقيقة ومع ما سبق من اتفاق الأمم في تموّج مفهوم الأدب ، إلا أنّ الحال في الفكر الشرقي له ما يميزه ، إذ أن الأدب بمفهومه العام الشامل في الثقافات الغربية حافظ على بعض الأنساق الداخلية بين قديمه وحديثه وبقيت دائما تمثل الأدب ، رغم أنه كما الثقافة الشرقية ، دخلت عليه عوامل الدين سواء كانت مسيحية أو غيرها أما في الثقافة الشرقية فإن درجة هذا التموج كانت حادة جدا لدرجة سقوط بعض التمظهورات الأدبية عبر فترات طويلة من الزمن ، بالمقابل دخول ظواهر أدبية أخرى ما كان لها الظهور لولا هذا هذه التحولات الفكرية و الأيديولوجية في الثقافة الشرقية ، هذه التحولات جعلت الباحثين و النقاد الشرقيين من لدن الأصمعي و ابن سلام و الجاحظ إلى يوم الناس هذا يختلفون في تشخيصها وتوصيفها إيجابيا و سلبيا ، فالفكر الشرقي لولم يكن فيه إلا شرق لما وسعه إلا أن يختلف فكيف وفيه شرق و غرب و ما بينهما و ما جاورهما و أندلس وغير ذلك مما جعل أمر الاختلاف حقيقا به ليعبر عن كل هذه الاختلافات على الأقل .

إذا ذهبنا نبحث في المصادر الشرقية فإنه يصعب علينا العثور على زمن استخدام مصطلح أدب في حقله المعروف به اليوم، فهذا المفهوم الذي نستخدمه نحن اليوم يعبر عن حيز من حياتنا فيما كان يعبر عن حيز يشمل أغلب حياة الانسان الجاهلي ، لكننا نطلق عليه اليوم أدبا و لم يسميه الجاهلي آنذاك بهذا الاسم ، بل كان يسمي بعضه شعرا و بعضه مثلا أو قولا سائرا أو غير ذلك ، ليطرح السؤال هل ضيقنا عبر الزمن مفهوم الأدب و حصرنا مجاله؟ باعتبار أنه كان مفتوحا؟!

كان الجذر الثلاثي (أدب) يجيء عند الشعراء باستخدمات بعيدة كما هو عند طرفة بن العبد إذ يقول:

نحن في المشتاة ندعو الجفلى   لاترى الآدب فينا ينتقر[1]

والجفلى : هي دعوة الناس إلى الطعام دعوة عامة من غير تخصيص ، والآدب صاحب المأدبة أي الداعي ، وينتقر أي يختار [2]، هذا أقصى ما يورده مؤرخو الأدب فيما يتعلق بهذا المصطلح في العصر الجاهلي ، و البيت كما هو يشير إلى افتخار و اعتزاز الشاعر بكرمه في عز الشتاء مع قساوة الجو وشح الموارد ، و استخدامه للجذر هنا، استخدام ضيق، بعيد عما وصل إليه بفترة زمنية بسيطة ، لكن الأمر كما أشير إليه سابقا مرتبط بالمصطلح فقط لا بالمفهوم ، إذ أنّ لوازم هذا المصطلح كانت موجودة باعتباره من اللغة العربية ، مثل مفهوم الأخلاق و القيم التي يشير إليها لفظ الأدب كما في قول عتبة بن ربيعة يصف أبا سفيان لابنته هند قائلا : "... بدر أرومته ، وعز عشيرته ، يؤدب أهله ولايؤدبونه ..." [3] يعني أنه يمتلك من الصفات الكريمة و الشيم النبيلة ما يجعله مثلا يحتذي بها أهله وعشيرته في نبله و كرمه ، و كان رد هند على أبيها من جنس ما وصف بها إذ قالت له: " إني

1)-المبرّد ، محمد بن يزيد ، أبو العباس (285هـ)، الكامل في اللغة والأدب، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي – القاهرة، ط3، 1417 هـ - 1997 م، 46/3 .

2) -ابن عبد ربه الأندلسي ، أبو عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه ابن حبيب ابن حدير بن سالم (328هـ)، العقد الفريد، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1، 1404 هـ 5/8 .

3) - أبو علي القالي، إسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون بن عيسى بن محمد بن سلمان (356هـ)، الأمالي، دار الكتب المصرية، ط2، 1344 هـ - 1926م، 104/2 .

سآخذه بأدب البعل ..." [1] أي أنها ستآدبه من جنس ما يمتلك من القيم الفاضلة بما يليق برجل مثله ونبيل على درجته، و إشارة كلمة أدب في ردها تتجاوز معنى الأخلاق و الشيم إلى معنى التعامل و المعاملة.

من دون شك أنه بمجيء الإسلام تبلور وارتبط مصطلح الأدب بمفهومه الأخلاقي المنحصر في جميل الصفات و حميد الخلال و هذا التوجيه دعمته النصوص الدينية إذ نجد في الحديث النبوي المروي قوله ﷺ "أدبني ربي فأحسن تأديبي"[2] ، و أصبح منذ تلك المرحلة يكبر مفهوم ذلك المصطلح انطلاقا من المفهوم الأخلاقي و التربوي، ليصبح هذا اللفظ مع قيام الملكية في دولة الإسلام إلى مصطلح يفيد التربية و التعليم و التهذيب ، إذ ظهر مع الدولة الأموية ما يسمى بالمؤدّب و هو المعلم الذي يقوم بتثقيف و تعليم أبناء الأمراء و الوزراء و الولاة ، إذ كان أهم ما يلقنهم الفنون اللغوية والأدبية إلى جانب علوم الدين و غيرها ، لكن في مرحلة من المراحل ومع ازدهار فنون القول والإبداع صار التأديب مرتبطا أكثر بتعليم فنون القول و رواية أشعار الجاهلية و البادية و أرقى شعر العصر حتى اقتصر مفهوم التأديب في هذا الجانب ، و صار يقابله العلم الذي يعني علوم الدين والأخلاق ، و هنا بدأ يتبلور مفهوم الأدب و الفنون بالاصطلاح المعهود ، و تماشيا مع هذا التواضع الجديد ومع اتساع رقعة دولة الإسلام في عهد العباسيين صار الاحتياج إلى التأليف و التقييد إذ كبرت الدوواوين و ظهر الاختصاص و صار رجال الدولة إلى منهج أكثر تنظيما في التأديب فظهر هذا المصطلح على صدور التصانيف مما يؤكد أخذ هذا المصطلح كعلم مستقل لمكانته بين العلوم ، مثل الأدب الصغير والأدب الكبير لـ عبد الله بن مقفع وغيرها .

لكن إلى تلك الفترة الممتدة على مدار قرن كامل من الزمن عرف تحولا سياسيا من الأمويين إلى العباسين ظل مصطلح الأدب قاصرا على الحرفة التي تعنى بأبناء السلاطين و الجاهة خاصة و كل

---

1) –الآبى ، منصور بن الحسين الرازي، أبو سعد (421هـ)، تح: خالد عبد الغني محفوظ، نثر الدر في المحاضرات، دار الكتب العلمية – بيروت /لبنان، ط1، 1424هـ – 2004م، 27/4 .

2) – العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر (852هـ)، الإمتاع بالأربعين المتباينة السماع / ويليه أسئلة من خط الشيخ العسقلاني ، تح: أبو عبد الله محمد حسن محمد حسن إسماعيل الشافعي ، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان 97 .

البنين بصفة عامة، و نجد في هذا الحيز مقولة للخليل بن أحمد الفراهيدي (175هـ) كما جاء في المضاف والمنسوب للثعالبي: "حرفة الأدب آفة الأدباء"[1] ؛ و ذلك لما رآه من تخاذلهم في التأديب وحرصهم على المكانة و العطية .

و لم ينفرد مصطلح الأدب بمفهومه المنحصر في فنون القول منثوره و منظومه إلا في القرن الثالث الهجري، أين بدأت تظهر بعض نصوص العلماء التي تفرق بين هذه الفنون و غيرها، مثل المبرد (258هـ) الذي يقول في صدر كتابه "الكامل" : "هذا كتاب ألفناه يجمع ضروباً من الآداب مابين كلام منثور ، وشعر موصوف ، ومثل سائر ، وموعظة بالغة ... "[2]، و الأمر نفسه كذلك عند أبي تمام (232هـ) في الباب الثالث من ديوان الحماسة الذي جمع فيه مختارات من طرائف الشعر ، باسم "باب الأدب"[3]، و ما يؤكد هذا التبلور أن تجد الاصطلاح عند من هو سياقيا خارج دائرة اللغة و الأدب و نعني به الإمام البخاري (256هـ) في كتابه الجامع الصحيح في الكتاب الذي عقده باسم "كتاب الأدب"[4] ، ليصير بعضها لفظ الأدب و الأديب حكرا على من يشتغل في القول و فنونه نثرا و شعرا ، و لا ندري هل خدم الأدب أو ظلم بهذا التواضع .

تعاريف الأدب اللاحقة جاءت وفقا لما آل إليه أمر الأدب ابتداء من القرن الثالث وانحصار مفهومه في أفانين القول ، لذلك نجد التعريفات التي أوردها العلماء مشيرة إلى ذلك ، وتجدر الإشارة هنا إلى التعريف الذي أورده ابن خلدون (808هـ) باعتباره جامعا و غامضا في نفس الوقت ، بالنظر إلى عقدة الحد المانع ، لكنه يبقى من التعاريف التي لقيت قبولا واسعا إذ يقول تحت عنوان علم

---

1) -الثعالبي، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور (429هـ)، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، دار المعارف، القاهرة .658

2) – المبرد، الكامل، عبد الله خضر حمد، المذاهب الأدبية، دراسة وتحليل، دار القلم، بيروت ص 15.

3) -المرزوقي الأصفهاني، أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن (421 هـ)، شرح ديوان الحماسة، تح: غريد الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط1، 1424 هـ -2003 م، ص 783، شرح ديوان الحماسة، التبريزي، يحيى بن علي بن محمد الشيبانيّ، أبو زكريا (502هـ)، دار القلم – بيروت، ص 466.

4) -البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله الجعفي، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه " صحيح البخاري"، تح: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط1، 1422هـ، 2/8.

الأدب : "الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارهم ، والأخذ من كل علم بطرف"[1]، ففي تعريفه ما يشير إلى أن الأدب ليس مجرد القول و الصناعة و إنما هو الإلمام كذلك ، كما أن هذا التعريف يقبل دخول كل أشكال الأدب حتى تلك التي ظهرت في أزمنة متأخرة ، أو انتقلت من ثقافات أخرى ، وهذا أمر منطقي لتأخر ابن خلدون في السياق التاريخي ، لكن لماذا لا نجد تعاريف عند من سبقه ، خاصة عند الجرجاني صاحب التعريفات مثلا ، و هو أمر إن دلّ على شيء فإنما يدل على أن الأدب لم يكن يشير إلى علم و إنما إلى ظاهرة أو منظومة واسعة تضم داخلها مجموعة لا متناهية من الوسائط تشكل بمجموعها الأدب و تنتج بتفاعلها الأديب و الإبداع .

في العصر الحديث لا يختلف أمر الأدب كثيرا عما كان عليه في الماضي من حيث المفهوم، حيث ظل الأدب بمفاهيمه الكثيرة وظلت التعاريف حائرة بين الجمع و المنع، لذلك نجد بعض الكتّاب يشخصونه بأنه مطلق الفنون الإنشائية و الأمر لا يتعلق بالكتابة الشاعرية و الجميلة فقط نثرا أو شعرا بل يتعداها إلى مختلف أنواع الكتابة، في شتى حقول المعرفة لأنها تعبر عن آداب معينة ؟! والأمر ليس منحصرا في الشاعرية المقصودة، إذ نجد في هذا الصدد حسن شحاتة يعرفه بأنه "التراث الأدبي الجيد قديمه وحديثه ومادته ... كما قد يُراد به النواحي التي تتصل بالأحكام على نتاج الأدباء، وألوانه ومميزاته في إطار سلسلة التطور التي مرَّ بها هذا التراث من عصر إلى عصر"، و قريبا منه نجد تعريف صلاح الدين مجاور ، لماّ يقول بأنه: "صورة الحياة ـ واقعها، وفنها، وإحساسات أفرادها، وعواطفهم، وجمالها وبهجتها ـ تُعرض في ألوان من التعبير الفني الذي يرقى فكراً ويعلو أسلوباً ويسمو معنى" ، ومثله كذلك تعريفي رشدي طُعيمة ومحمد مناع[2]بأنه: "الفكرة الجميلة في العبارة الجميلة، وهو الكلام الجيد الذي يُحدث في نفس قارئه لذة فنية ويبعث في نفس المتلقي متعة وسروراً...وقد يتردد الأدب بمعنى التعبير البليغ الذي يحقق المتعة واللذة الفنية بما فيه من جمال التصوير، وروعة الخيال، وسحر البيان، ودقة المعنى،وإصابة الغرض" ، التعريف الأول عام بائن العموم، أمّا الأخرى فإنّ مفهوم الشاعرية مومأ إليه فيها ، لتقترب من المفهوم التالي ذكره ، لكنها تبقى على عمومها إجمالا .

---

1) – عبد الرحمن ابن خلدون ، المقدمة "مع تاريخ ابن خلدون" ، 763/1.

2) – عبد الله خضر حمد، المذاهب الأدبية ص 18/17 .

يرى طرف ثان أنّ الأدب منحصر في الفنون الكتابية الإبداعية الغرض منها الجمال و تحريك العواطف ، جاعلين الأدب في حيز محدود يشمل النثر والشعر و المسرح و غيره ، كما يعرّفه شوقي ضيف بأنه: "الكلام الإنشائي البليغ الذي يقصد به إلى التأثير في عواطف القرّاء والسامعين سواء أكان شعراً أم نثراً "[1] ، و مثله كذلك رأي محمد عبد القادر لما يقول عن الأدب بأنه: "الكلام الإنساني البليغ الذي يقصد به إلى التأثير في عواطف القراء أو السامعين أو في عقولهم بالإقناع سواء أكان منظوماً أم منثوراً...ويتمثل في كونه الذخر الإنشائي الذي جادت به قرائح الأفذاذ من أعلام البيان وعبروا به عن خلجات النفس وما يجيش به الوجدان، وما تترنم به العاطفة، ويسبح فيه الخيال، وما توحي به مظاهر الكون وأحوال المجتمع مما في تصويره غذاء للغة وإمتاع للنفس"[2] ، و لا يخف ما في هذا المفهوم من الإرباك لأنّ الأدب ليس شرطا أن يكون مادة ليقرأ و ليس شرطا أن يكون قراءة ثابتة وفق نسق معين ، و ليس شرطا أن يكون ما كتبه أو ما سطره مبدعه بقدر ما يكون هو ما قرأه متلقيه ، فيما يرى طرف ثالث أنّ الأدب هو مطلق الفنّ والثقافة المعبرة عن التجارب الإنسانية ، كما يرى محمد مندور إذ يورد في هذا السياق تعريفين للأدب يعبران عن هذا الشمول والعالمية و الكونية لمفهوم الأدب ، و هي رؤية تستند للواقع إذ يقول في التعريف الأول : " إن الأدب صياغة فنية لتجربة بشرية " ، و هذا التعريف بقدر ما يحتوي من الاتساع المناسب لطبيعة الأدب بقدر ما يعود بنا إلى الغموض ، فما المقصود من الفن هنا و كيف يمكن ربطه بالتجربة البشرية ، بهذا الاعتبار الأخير فإن كل الموروث الانساني يعتبر أدبا سواء أكان واقعيا أم أسطوريا ، شاعريا أو علميا، فلسفيا أم تجريبيا ، لكن اقترانه مع الفن يوحي أكثر بالجوانب الجمالية و العاطفية، و هذا ما يؤكده في تعريفه الثاني لمّا يقول: "إنّ الأدب نقد للحياة "[3]، بحيث يشير إلى أنّ تلك التجارب البشرية والفنون الأولى ليس على إطلاقها و إنما هي تلك التي تعبر عن عمل لا يرضخ للنسق الطبيعي لكل البشر ، و إنما يحاول التعبير عن ذاته من خلال النقد المباشر أو غير المباشر للآخر أو للآخرين أوللمقابل .

1) – شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، دار المعارف ، ص 7 .

2) – عبد الله خضر حمد، المذاهب الأدبية ص 17.

3)– المصدر نفسه ص 17.

هذا التباين الحاصل في مفهوم الأدب ليس واقعا في الثقافة الشرقية فحسب بل هو موجود كذلك في الثقافة الغربية، و هو أمر عائد أساسا إلى طبيعة الأدب نفسه، و رؤية المتلقي تجاه ما يمكن أن يعتبره أدبا ، لدرجة تجعل بعض المفكرين المعاصرين –وهو تودورف زفيتان- يشكك في حقيقة الكثير من المفاهيم، لكن نحن نفهم على أنّه نقد للمفهوم،بسبب القصور الحاصل فيه حيث يقول تودوروف زفيتان في هذا الصدد "علينا بادئ ذي بدء أن نشك في مشروعية مفهوم الأدب، فلا وجودها أواستخدامها في المؤسسة الجامعية يجعل الأدب أمرا مسلما به ، إذ يسعنا في البداية أن نعثر لهذا الشك على علل و يمكننا بقليل من هذا الشك بأسباب تجريبية ، فلم نكتب بعد تاريخ هذه الكلمة كاملا و لا معادلاتها في مختلف اللغات و في العصور المختلفة إلا أن نظرة سريعة بل سطحية على المسألة تدل أن الكلمة لم تكن قائمة على الدوام فكلمة أدب في اللغات الأوروبية حديثة العهد جدا بمعناها الراهن ، إنها لا تكاد تسبق العهد الثامن عشر ، فهل المقصود ظاهرة تاريخية لا أبدية ؟ ناهيك بالكثير من اللغات (في إفريقيا مثلا) التي لا تعرف من تعبير نوعي يعني النتاجات الأدبية كافة "[1]، تودوروف في هذا النص يشير صراحة إلى الاختلاف المفاهيمي للأدب في الثقافة الواحدة و في الثقافات المختلفة ، ما يجعلنا أمام حتمية قبول و اعتبار كل هذه المفاهيم في دائرة الأدب أوالآداب و هذا هو الأقرب للمنطق، بسبب اختلاف الرؤى و الأيديولوجيات والثقافات عموما ، حتى لا يقع الاقصاء أوالإغراق، لتبقى دائرة الأدب تضيق و تتسع مفهوميا حسب الزمان و المكان .

بالعودة إلى خصوص منطقة المغرب العربي في طور تكوّن المفاهيم نجد مصطلح الأدب، لكن يصعب علينا تحديد مفهومه في ضوء النصوص و في ضوء الاختلافات المفاهيمية السابقة عبر الزمن في الثقافة الشرقية ، لكن المؤكد أن مفهومه وواقعه لن يختلف عما كان عليه نظيره في المشرق ، في هذا الصدد أقدم ما نجده في هذه المنطقة بعض النصوص لدي برية ابن أبي اليسر الرياضي و لدى الرقيق القيرواني كذلك ، نصوصهم تظهر عليها غلبة الاهتمام بالقيمة و المعنى بما يتماشى و ثقافة المسلم المعتدل ، إشارة إلى الجو الأدبي العام في الغرب الإسلامي الذي طغى عليه هذا الجانب ، رغم

1) – زفيتان تودوروف ، مفهوم الأدب ودراسات أخرى ، تر:عبود كاسوحة ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ، 2002م، ص5.

أن برية الرياضي عاش جانبا كبيرا من حياته في المشرق ، حيث نجد له نصا نقله عن أبي العيناء يقول فيه : " ليس يكمل أدب المرء حتى يعرف المثل السائر و البيت النادر و يأتي به في موضعه"(1)، هنا برية لا يتكلّم في الصناعة بقدر ما يتكلّم في الملكة و كأنه يشير إلى الروح النقدية للأديب قبل أن يكون أديبا، ليكتمل و يصحّ كونه كذلك ، و هي إشارة نقدية مهمة جدا ترشدنا إلى أن نظرتهم للأدب لم تكن تقتصر على ما يحسن القول فحسب و إنما إلى من له باع في العلم والثقافة كذلك ، و كأنه يعود بنا إلى مفهوم الشاعر في الثقافة الجاهلية ، أين كان الشاعر أعلم القوم أي بمعنى العالم ، و هذا يتيح له نقد الشعر قبل قوله ، حتى يتبوأ مقعده بين الأدباء ، و ينال الحضوة لدى المتلقين ، إضافة إلى ذلك نفهم من قول برية أن الأديب ليس شرطا أن يكون القائل و إنما حتى الراوي ينطبق عليه المفهوم ، لكن الأمر متعلّق دائما بفنون القول بمختلف ألوانه ، ما يعني أنّ الأدب يعني فن القول بما يحتويه من قيمة ، هذا من حيث المبدأ ، ثم تأتي درجات الأدباء على اعتبار معايير الشهرة و الندرة وحسن المقام ، و بذلك يحصّل الأديب أعلى المراتب ، و يحصل أدبه في أعلى المقامات ، و هذا المفهوم لدى برية يشير إلى أن الأدب ليس مجرد صناعة و إنما هو فن كذلك قد يجيده من لا يحترفه ، لكن الأساس في من يحترفه، و نتبين ذلك من النصوص الكثيرة التي نجدها في كتبه تلقيح العقول أوالرسالة العذراء ، مثل إشاراته في النصوص التي ينقلها عن كيفية الارتقاء بالقول من مقام إلى مقام أرفع منه كالنص التالي : "دخل عبد الله بن طاهر إلى مدينة الري في بعض الأسحار ، فسمع صوت قمرية، فقال: لله در الهذلي حيث يقول من الطويل :

ألا يا حمام الأيك إلفك حاضر   و عصنك مياد ففيما تنوح

فكان معه عوف بن محلم الخزاعي فقال له : أجز هذا البيت(2).

يؤكده كذلك نصوص أخرى يتناول فيها برية القائل بأنه مجيد في دعم للنص السابق، فنظريته الأدبية تفهم باجتماع هذه النصوص متظافرة حيث نقل التالي:" سئل إبراهيم الموصلي عن البليغ، فقال الذي يكون معنى لفظه إلى فهمك أسرع من لفظه إلى أذنك " و سئل العتابي عن البليغ فقال:

1) - برية الرياضي ، تلقيح العقول 36 .

2) - المصدر نفسه 48.

البليغ الذي يأخذ المعنى الوحشي البعيد فيكسوه ألفاظا حلوة يبدّل بها صورته و يخرج ذلك المعنى في حلة حسنة قريبة ، و كما أن الجارية تحسنها المعارض من الثياب فكذلك المعاني تحسنها الألفاظ الحسنة"(1).

هذا النص يعبر عن الحياة في الغرب الإسلامي التي حكمتها القيم الدينية منذ أن بدأت العهد مع لغة العرب، كما أنها لم تعهد وحشي القول و غريبه، و إنما لطيف اللفظ و ظريفه، فكأنه مذهبها الأدبي كذلك، و لوكان غيره لكان مستغربا.

لكن الملاحظ أن برية الرياضي يعتبر الأدب اقتفاء لأثر السابق ، و هذا نجده في النص السابق ذكره، و يؤكده كذلك في النص التالي من الرسالة العذراء إذ يقول بعد أن ذكر مجموعة من القواعد في فنون الكتابة و أساليبها: "فامتثل هذه الرسوم و المذاهب ، واجر على آدابهم ، فلكل رسوم امتثلوها، و تحفظ في صدور كتبك و فصولها ، و افتتاحها و خاتمتها ، و ضع كل معنى في موضع يليق به"(2)، و مذهب الإتباع هذا حقيق بأمة عرفت من غيرها منهجا جديدا في التفكير والصناعة الأدبية بحيث أننا قد لا نجد غيره في الشرق يصدع بدعوته هذه و لو كان هو نفسه ، لكنه يبقى في كل الأحوال نهج رآه هو في توجيه الكتاب.

بالتحول إلى موقف مغربي آخر وهو اللغوي أبو جعفر القزاز (412هـ)(3) الذي لم يورد هذه الكلمة في كتبه الثلاثة التي وصلتنا –الحلى و الشيات ، العشرات ، ضرائر الشعر– إلا مرة واحدة في ضرائر الشعر ، لما قال: "...كثيرا ممن يطلب الأدب ، و أخذ نفسه بدراسة الكتب ، إذا مر به بيت لشاعر من أهل عصره ، أو لطالب من نظرائه ، فيه تقديم أو تأخير أو زيادة أو نقصان عما حفظ

---

1) - برية الرياضي ، تلقيح العقول 58- 59 .

2) – برية الرياضي ، الرسالة العذراء ، ص 44.

3)- القزاز (نحو 345 – 412 هـ): محمد بن جعفر القزّاز القيرواني، اللغوي الأديب الشاعر، قال ياقوت: كان إماما علامة قيما بعلوم العربية، رحل إلى المشرق وأخذ عن الآمدي صاحب ابن دريد والأخفش، وأقام مدة طويلة في مصر، حيث خدم الفاطميين، وبالخصوص العزيز، من تلامذته: ابن رشيق وابن شرف، ويعلى الأربسي، وابن الربيب، وعبد الرحمن المطرز، وسمع منه إبراهيم بن صدفة الغرناطي تأليفه «الجامع» في اللغة سمعه منه سنة 403هـ، وأخذ عنه غيره من الأندلسيين. انظر ترجمته عند: محمد محفوظ، ترجمة المؤلفين التونسيين ، 81/4.

من الأصول المؤلفة له في الكتب ، أخذ في التشنيع عليه ، و الطعن على علمه ، و الاجماع على تخطئته"[1] .

موقف القزاز و هو اللغوي المبرّز في زمانه ليس في القيروان فحسب بل في كل العالم العربي، لا يختلف عن موقف برية الرياضي ، إذ نستنتج من قوله أنه يجعل الأدب دائرة أوسع من مجرد الإنشاء اللغوي و جمالياته بل فلسفته و تاريخه و منهجه كذلك داخل ، و هي رؤية النقاد عموما ، إذ القول يتطلب نظرا و النظر يتطلب علما ، و هو لا يحصل إلا لمن حصّل شروطه التي هي الأدب ، لكن عند القزاز نفهم من الأدب المفهوم اللغوي يعني الفنون اللغوية بشتى أشكالها ، مع غياب الاشارة إلى الجوانب القيمية ، التي يسطرها الزمان و المكان في مقام كهذا ، لكن تبق السّمة أن مصطلح الأدب لم يكن يكتسي تلك الأهمية المعرفية الكبيرة إذ كان المحتوى يعبر عنه ، لكن تبقى الإشكالية قائمة ، في ما هية حده ، حتى نحلل الظواهر الثقافية الأخرى ، و نفهمها في السياق الصحيح إذ كثيرا ما تقوم الحروب الفكرية اليوم بسبب عدم تحديد الإطار المعرفي للمصطلح .

و السؤال الآخر الذي يطرح نفسه هل كان هذا الاصطلاح المعبر عن هذه الخزانة الفكرية منتشرا أم محصورا في فئة معينة من رجال الثقافة في تلك الفترة، هذا لأجل تحديد الموقف منه إجمالا إن كان يعبر عن توجّه معين، حيث إنه يمكننا تحديد بعض المواقف من قضايا معينة كالشعر مثلا أوالنثر أو التاريخ أو الفلسفة و غيرها ، فماذا كان يعني الأدب حينها ، يعني أن مفهومه هل كان يؤخذ جملة أو مجزوء؟ كلها تساؤلات جدية تجيب عن كثير من المشاكل وحريّة بانهاء الكثير من الجدل القائم اليوم .

بالانتقال إلى ناقد آخر و هو عبد الكريم النهشلي فإن المفهوم عنده لا يختلف كثيرا عن غيره من نقاد المغرب لكنه كما يبدو أكثرهم دقة و ممارسة للمصطلح و مفاهيمه ، إذ يبدو الرجل في نفسه أديبا أكثر من أي شخصية أخرى قد تظهر على غيره ، كشخصية النحوي أو اللغوي أو المؤرخ أو ما شاكل ذلك ، يشير النهشلي في كتابه بشكل واسع إلى مفهوم الأدب بشكل عام و إلى بعض

1) – القزاز ، أبو جعفر ، ما يجوز للشاعر في الضرورة ، دار العروبة ، الكويت ، ص 99-100 .

لوازمه بشكل خاص و في مجالات ضيقة أحيانا أخرى ، لكن بحكم شخصيته الأدبية فإن مفهوم الأدب عنده دائما ما كان يحوي معنى الصناعة الفنية ، و هذا من خلال نصوصه المباشرة أو النصوص التي يسوقها للتمثيل و التقريب[1].

نجد عند النهشلي أن الأدب يعني مطلق العلم مع الفطنة و حسن المنطق ، أي أن الأديب من له علم أكسبه نباهة يترجمها لسان مبين ، وينقل في هذا المعنى العام قول أبي عبد الله النديم إذ يقول: " رأيت الملوك في مجالسها و خواطرها و مجامعها ، فما رأيت آدب من الواثق ، لقد خرج علينا ذات يوم و هو يقول : لعمري لقد عرض عرضه لقول الخزاعي[2] :

خليلي ماذا أرتجي من عدى امرئ   طوى الكشح عني اليوم وهو مكين
و إن امرء قد ضـــن عني بمنطـ   ـق يســد به فقــري إذا لضنين [3]

و هو هنا إذ ينقل هذا الوصف في الخليفة الواثق لا يعني حذقه بالشعر أو النثر فقط و إنما يعني هذا كله مع الإلمام بعلمهما و خزائنهما و علوم أخرى تجعله مبجلا موقرا في مجالسه و مثل ذلك قصة نقلها عن الزبير بن بكار الزبيري قوله : دخل الوليد بن عبد الملك إلى المسجد ، فركب معه الأحوص بن محمد الشاعر ، فأتى مسجد العصيبة فلما صلى قال الأحوص : أين الزوراء التي يقول فيها صاحبكم: إني مقيم على الزوراء ....[4] البيت

فأشار إليها: هي تلك لو طولت لأستعربت سالما عليها، فقال الوليد: إن أبا عمر كان يراه غنيا بها، فعجب الناس يومئذ لأدب الوليد أن عنى بالعلم علم كنية أحيحة بن الجلاح [5].

1)- سعاد ترشاق، النقد المغربي القديم بين التنظير و التطبيق، رسالة دكتوراه ، جامعة الإخوة منتوري قسنطينة ، 2015 ، ص57.

2)- النهشلي ،عبد الكريم ، الممتع في صنعة الشعر ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ص 95-96،

3)- الثعالبي، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور (429هـ)، يتمة الدهر في محاسن أهل العصر، تح: مفيد محمد قمحية، دار الكتب العلمية، بيروت/لبنان، ط1، 1403هـ1983م، 473/3 .

4)- ابن سعيد الأندلسي ، نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، تح: الدكتور نصرت عبد الرحمن، مكتبة الأقصى، عمان/ الأردن، ص 190 .

5)- النهشلي ، الممتع، ص 35،

و قريب من هذا المعنى كذلك ينقل نصا مأثورا آخر قيل فيه: "لا تثمر الطبيعة إلا عند حسيب، كما لا تنفع الرياضة إلا في نجيب، و قالوا: الحسيب محتاج إلى الأدب، و الأدب مستغن عن الحسب" [1]، و هي إشارة إلى شرف العلم و شرف المال أيهما أغنى لصاحبه وليس مجرد الصناعة الفنية و إنما يلزم إلى جانبها العلم .

ونقل شعرا لبعضهم يقول فيه:

حظ الأديب من الدنيا هو العدم ... و للرقيع الوضيع المال و الخدم
ترى الأديب طوال الدهر في خلق ... و الفدم يبرى على أظفاره القلم
هذا غني فقير النفس محتقر ... و ذا فقير قد أغنى نفسه الكرم
حسب الأديب بأن قد قل مشبهه ... و ذاك تشركه في جهله الأمم[2]

كان يقال: خمس يقبحن من خمس، الحرص من القراء، والحدة من الأمراء، والبخل من الأغنياء، والفحش من ذوي الأحساب، والقسوة من ذوي الأسباب:

حشو قلبي أدب وافر ... و بين قلبي فتى شاعر
و الرزق عني نازح شاسع ... و الفقر عندي راكد حاضر [3]

المفهوم العام للأدب عند النهشلي هو ما دلت عليه النصوص السابقة من معاني العلم مع الفطنة و حسن الكلام و الإبيان، و المؤكد أنّ أول مجال يعنى به في هذا العلم هو الدراية باللغة وآدابها و أشعار العرب و أقوالهم و تاريخ الأقوام و الأمم ، فقد تغني في العلم المقصود عن غيرها ، وتكسب للملم بها النباهة و الفطنة المرجوة .

و يستخدم النهشلي الأدب بمفهوم الذاكرة و الثقافة الانسانية في معنى قريب من سابقه ، يعني أن التأدّب هو حفظ ذاكرة الشعوب و تراثهم و تجاربهم ، إذ ينقل في ذلك قول العتابي: " أفضل بيان العرب و أفصحه ما أداه عنها الشعر الجاري على ألسنتها بالبلاغة المحكمة ، و الحكمة

1)- النهشلي ، الممتع ، ص 153،
2)- عبد الكريم النهشلي ، الممتع في صنعة الشعر ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ص 346
3)- النهشلي ، الممتع ، ص 347،

المتقنة الباقية ، مضمنا حكمتها و سائر أمثالها شاهدا على أحسابها ، و كريم أفعالها ، مخبرا عن مروؤاتهم في سالف أيامهم ، و عن محمود خلائقهم ، و جميل وفائهم ، ليتأدب غابرهم بفعل فارطهم، و ليقتدي متعلمهم من الابناء بسالف من تقدمهم"[1]، يعني ليرث و يتعلم من هذه الذاكرة خلفهم و الأمم التي تأتي من بعدهم ، و مثل هذا المعنى نقله عن بعض العلماء بالعربية:"كان المنطق عندهم هو المؤدي إلى عقولهم، و ألسنتهم خدم أفئدتهم ، و المبينة لحكمهم ، و المخبرة عن آدابهم ، و أن لا فرق عندهم بين الإنسان ما لم ينطق ، و بين البهيمة إلا بتخالف الصورة "[2]

و من لوازم هذا المعني أن يأتي بمعنى السيرة و السنّة الحسنة المجيدة الخالدة كما ينقل عن عبد الله الاهتم قائلا لابنه:"يا بني إنا أهل بيت يتوارث علما، قلما طلبنا به حاجة ، إلا أدركناها ، و أدبا قلما ما أردنا به منزلة إلا نلناها ، يا بني لا تطلب الحاجة إلى غير أهلها، و لا تطلبها إلا في حينها ولا تطلب ما لست مستحقا ، فإنك إن فعلت ذلك كنت حقيقا بالحرمان"[3] ، و هي معاني يتداخل بعضها في بعض و يشبه بعضها الآخر ، لكن دلالتها من دون شك تحتمل كل هذه المعاني.

إلى جانب ذلك نجد عند النهشلي بعض السياقات الضيّقة لمفهوم الأدب لماّ يعني به الفنّ والصناعة اللغوية الراقية المليئة بالشجون و الأحاسيس والعواطف ، بما يكون له ردة فعل لدى المتلقي، إضافة إلى العلم بهذا الفنّ ، بل و يعتبره في مقابل العلم لاحتكامه إلى القلب و احتكام العلم للعقل، إذ ينقل عن بعض العلماء بالعربية: " أجمعوا على استحسان الكلام مع الصواب ، كما أجمعوا على كراهة الكلام مع الإسهاب ، و كرهوا زيادة المنطق على الأدب ، و زيادة الأدب على المنطق، حتى قالوا: "زيادة أدب على منطق خدعة ، و زيادة أدب على منطق هجنة ..." و قيل لرجل من ملوك العرب: "متى يكون العلم شرا من عدمه ؟ قال إذا كثر الأدب ونقصت القريحة "[4] و قوله كذلك: "الشعر أبلغ البيانين ، و أطول اللسانين ، و أدب العرب المأثور ، و ديوان علمها المشهور"[5]،

1)- النهشلي ، الممتع ، ص 33-34،
2) - المصدر نفسه ، ص 11 .
3)- المصدر نفسه ، ص 26.
4) - المصدر نفسه ص 11.
5) - المصدر نفسه ، ص 19.

فمقصوده هنا هو ذلك الكلام الشاعري الذي يخاطب العواطف و لا يخاطب العقول ، و هو هنا يشير إلى ضرورة الاعتدال في خطاب العقل و خطاب الشجون ، ليستقيم الأدب ، بل يشير إلى أن الأمر ليس تنازعا أو تناقضا بقدر ماهو ملكة تمكن صاحبها من أن يكون مقسطا و متزنا بين عقله و قلبه، ينقل في هذ المعنى قول علي بن الحسين:" العقل أمير و الأدب وزيره ، فإذا لم يكن وزير ضعف الأمير فإن لم يكن أمير بطل الوزير"[1] ، إلى جانب ذلك نفتح قوس الإشارة إلى أن نقاد الغرب الإسلامي دائما ما كان الأدب عندهم يعني القيم و الاتزان بين العقل و القلب و الابتعاد عن شطط القول و المعاني ، تماشيا مع العقلية العامة للفكر في المنطقة لكن بنسبية معينة ، باعتبار أن قضايا الأدب يصعب أن يحكمها نسق معين ، لكن بالمقارنة مع أدب و فكر ثقافات أخرى فإنه كثيرا ما كان أدب و نقد المغرب معتدلا، في حدود مع وصلنا من مصادره و نصوصه .

المبحث الثاني: مفهوم النثر

جلي من خلال الآثار التي وصلتنا أن النثر كما الأدب كانت له مكانته في الثقافة المغاربية ، واحتلت الكتابة أهمية كبيرة لدرجة أن كتب فيها بعض نقاده كما الشأن عند برية الرياضي الذي كتب رسالته العذراء فيما يتعلّق بالكتابة و فنوها و مكانتها و أهميتها ومعاييرها و تخير أوقاتها ، في وقت كان فيه الشعر هو الفنّ الأول و الصناعة المفضلة ، لكن الواضح أن هذا كان اختيارا أدبيا من طرف الأدباء في تلك الفترة لعبت فيه السياسة والظروف الاجتماعية دورا مهما في اهتمام البعض إما بالشعر أو بالنثر ، فلما نقرأ عن طبقة الكتاب عند ابن رشيق من خلال ما نجده في الأنموذج نستنتج أن النثر عند هؤلاء ارتبط بوظيفتهم في السلطة إضافة إلى مهارتهم في الكتابة ، و مهما يكن فهو من أسباب تطور النثر في بيئة المغرب الإسلامي خاصة في عصر الصنهاجيين أين صار النثر قولا و فنا، بخلاف الفترة التي سبقتها من لدن الفتوحات أين كان النثر قولا باعتبار المرحلة التي تحتاج إلى خطباء مفوهين و دعاة يمتلكون المقدرة الكلامية على الإقناع و المحاججة و غير ذلك من الأسباب[2] .

---

1) – النهشلي ، الممتع ، ص 26،

2)– ينظر: عبد المالك مغشيش ، النثر المغربي في القرنين الرابع و الخامس ، رسالة دكتوراه ، جامعة باتنة 2015 ، ص 67 .

إضافة إلى ذلك فإن النثر عند النقاد العرب هو أصل الكلام عندهم ، و الشعر جاء بعد ذلك لدواعي ثقافية لاحقة ، و المفهوم نفسه يراه نقاد المغرب ، رغم تلقيهم المتأخر للغة العربية ومنطقها، إذ يقول النهشلي : "أصل الكلام منثور"(1) ، لكنّه اهتم في كتاباته على الشعر أكثر من النثر خاصة في كتابه الممتع ، و يرى أن مرد ذلك هو ما يتميز به الشعر من قدرة على تحمل المعاني الغامضة والبليغة بخلاف النثر إذ يقول في ذلك: " الشعر أبلغ البيانين ، و أطول اللسانين ، و أدب العرب المأثور ، و ديوان علمهم المشهور"(2)، و لا نجد فيما وصل إلينا من الآثار من اهتم بالنثر أكثر من برية ابن أبي اليسر الرياضي خاصة في رسالته العذراء ، التي يمكن عدّها من أوائل المصنفات التي تعرضت لتقنيات الكتابة الديوانية خصوصا، إذ من خلالها يشير برية إلى مدى أهمية الفنون النثرية والكتابة الرسمية بشكل خاص ، بالشكل الذي يشير إلى أصالتها و أوليّتها و تصدرها و يربطها بالهوية الكونية للإنسان ، و أن الكتابة مرتبطة بالانسان كبشر إذ ينقل في ذلك عن الحسن بن وهب قوله : الكتابة نفس واحدة تجزأت في أبدان متفرقة ، ومن لم يعرف فضلها ، و جهل أهلها و تعدى بهم في رتبتهم التي وصفهم الله بها فإنه ليس من الإنسانية في شيء(3) .

هذه الإشارات التي أومأ إليها برية الرياضي ، تعتبر اليوم من اهم المباحث الفلسفية إذ يعتبر الفلاسفة أن من أهم خصوصيات العلوم الإنسانية و الاجتماعية ما يسمى بالصناعة النصانية (Textualite) ، خاصة في مباحث فلسفة اللغة ، إذ يتم التعرض في هذا الصدد إلى قضايا مثل اللغة و المرجع أو المهنى و المرجع ، النزعة النصانية ، اللغة الطبيعية و الأنساق الشكلية ، الأسلوبية والفردانية، التفسير ، بناء النص و غيرها ، حيث نجد فيما يتعلق بمؤشر اللغة على الوجود الإنساني، أن العوالم لا يمكن قراءتها من تلقاء نفسها بل يجب أن يتم ذلك من خلال نص يحترم السياقات

1) - النهشلي ، الممتع ، 11 .

2) - المصدر نفسه ، ص 19،

3) - برية الرياضي ، الرسالة العذراء ، ص 60.

البراجماتية و الفهرسية و تكوين صور من المعرفة في الوقت ذاته ، و تترتب على أثر ذلك ، شدة ذات قيمة ثنائية و غير قابلة للحل و نعني بذلك النص و السياق [1].

و بالعودة إلى برية فإننا نجده تعرض في رسالته إلى بلاغة و أدوات الكتابة و آدابها وأسبابها ، متأثرا بالكثير ممن سبقوه في هذا المجال مثل الجاحظ و ابن قتيبة ، و متأثرا كذلك بظروف عمله للكتابة الديوانية كما يبدوا في الدواوين العباسية ، إذ نراه يشير مثلا إلى قضية مطابقة الكلام إلى مقام المتلقي و ضرورة انتقاء الألفاظ المناسبة للمعاني المطلوبة ، و غيرها من تقاليد و مميزات الكتابة النثرية، الديوانية خصوصا ، بما يمكن أن نعتبر أنه من أوائل من نقل مميزات الكتابة المشرقية بشكل منظم إلى منطقة المغرب الإسلامي[2] ، و أشار في هذا الصدد إلى بعض القضايا نشير إليها فيما يأتي :

أ- أسلوب القرآن و أسلوب الكتابة :

أشار برية الرياضي[3] إلى بعض القضايا التي تخص الكتابة و هو التفريق بين أسلوب القرآن و غيره من الآساليب و أن ما جاء في القرآن قد لا يحسن استخدامه في غيره من الأساليب لاعتبارات كثيرة ذكر بعضها برية ، نفهم منها كون أن طبيعة الخطاب القرآني ليس كغيره من الخطابات ، و أنّ المتلقي كذلك ليس نفسه باعتبارات الوحي و التشريع والإعجاز و أزلية الخطاب و غيرها و بعضها أهداف غير مطلوبة و معقولة في غيره من الكتابات التي الهدف منها التبليغ و التبيان و الإفهام ، و على العموم فإن برية ذكر فيما يتعلق بهذا الموضوع قضيتين هما:

---

1) – بوخريسة بوبكر ، علوم الإنسان بين الهوية و السؤال ، تحليل ابستمولوجي في المفاهيم ، البراديجمات و النظريات ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 2013، ص 287 و ما بعدها .

2 – شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي (ليبيا تونس صقيلية) ص 317-318 .

3) - الرياضي (298/223 هـ) إبراهيم بن أحمد الشيباني البغدادي، ويعرف بالرياضي، أبو اليسر، من أهل بغداد نزيل القيروان، العالم، الأديب الشاعر، قرأ ببغداد على جلة المحدّثين والفقهاء ولقي الجاحظ، والمبرّد، وثعلبا، وابن قتيبة، ولقي من الشعراء: أبا تمّام، ودعبلا، وابن الجهم، والبحتري، ومن الكتاب سعيد بن حميد وسليمان بن وهب، وأحمد بن أبي طاهر، وغيرهم، جال في البلاد شرقا وغربا من خراسان إلى الأندلس، مؤلفاته: الرسالة الوحيدة والمؤنسة، سراج الهدى، في القرآن ومشكله واعرابه ومعانيه، قطب الأدب، لقيط المرجان، المرصعة المدبجة، مسند في الحديث، الرسالة العذراء، تلقيح العقول ، وهذه الكتب مفقودةما عدا الكتابين الأخيرين . انظر ترجمته عند: محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين 405/2 .

1- الاتصال و الإضمار:

يخصص برية بعض الأساليب بالذكر في رسالته لأهميتها حسب نظره، فمما لا يحسن محاكاته في الكتابة بأساليب القرآن هو إضمار الكلام أو وصله، و يعلل ذلك أن القرآن أنزل في قوم ملمين بكل ضروب القول العربي، و أفضل ما يحسن معهم مخاطبتهم بهذه الأساليب التي يفهمونها ويتأثرون بها، بخلاف ما يقصده البشر من كتاباتهم و رسائلهم خاصة إذا كان المتلقي من غير خارج السياق العربي، إذ يقول في ذلك برية: " اعلم أنه لا يجوز في الرسائل استعمال ما أتى في آي القرآن من الاتصال و الحذف .... لأن الله سبحانه وتعالى إنما خاطب بالقرآن أقواما فصحاء فهموا عنه جلّ ثناؤه أمره ونهيه ومراده "[1]، ومن دون شك أن هذا الذي عناه وقصده برية فيما يخش عليه الالتباس لدى المتلقي خاصة في جنس الكتابة التي يكون الهدف فيها الإبلاغ، خاصة الرسائل الرسمية.

2- مخاطبة الخاص بالعام:

يشير برية الرياضي في هذا الصدد إلى أن هدف الخطاب و طبيعة المخاطبين تجعل ضرورة اختلاف منهج الكتابة عن منهج القرآن في بعض الجوانب مثل الالتفات و مخاطبة الخاص بالعام أو العكس، للأسباب السالفة الذكر فيما يتعلق بالاضمار و الوصل و غير ذلك إذ يقول: "اعلم أنه لا يجوز في الرسائل استعمال ما أتى في آي القرآن من .... مخاطبة الخاص بالعام لأن الله سبحانه و تعالى إنما خاطب بالقرآن أقواما فصحاء فهموا عنه جلّ ثناؤه أمره ونهيه ومراده ، و الرسائل إنما يخاطب بها أقوام دخلاء على اللغة لا علم لهم بلسان العرب، و لذلك ينبغي للكاتب أن يتجنب اللفظ المشترك و المعنى الملتبس ، فإنه إن ذهب يكاتب على مثل قوله تعالى : "و أسأل القرية التي كنا فيها و العير التي أقبلنا فيها"[2] و قوله تعالى : "بل مكر الليل و النهار" [3] احتاج الكاتب أن يبين أن معناه : اسأل أهل القرية وأهل العير و بل مكركم بالليل و النهار ، و مثله في القرآن الكريم كثير"[4] .

1) – برية الرياضي، الرسالة العذراء ، ص 45.

2) –سورة يوسف الآية 82.

3) –سورة سبأ 33.

4) – برية الرياضي ، الرسالة العذراء ، ص 45.

فمن دون شك أن ما يقصده برية هنا فيما يتعلق بخصوص الرسائل الرسمية عدم التباس المراد على المتلقي، مع أن هذا يبقى متوقفا على المتلقي ففي بعض الأحيان يكون من الناجع الكتابة لبعض المتلقين بأقوى و أرفع هذه الأساليب لأنها ستكون مؤثرة في سلوكه و تلقيه للرسالة، كما كان الشأن لدى بعض الأمراء و السلاطين و الولاة أو حتى في الرسائل الشخصية في التاريخ العربي، بل نجد في الكثير من الأحيان أن أولئك الذين أبدعوا في رسائلهم هم أولئك الذي حاولوا محاكاة الأسلوب القرآني المعجز.

ب- معايير الكتابة :

ذكر برية في رسالته جملة من الضوابط اللفظية و الشكلية التي تخص كتابة الرسائل الرسمية بصفة خاصة و بعضها يتعلق بجنس الكتابة بصفة عامة نجملها في الآتي:

1- عدم محاكاة أساليب القرآن:

و هي القضية التي تناولناها فيما سبق، و هي متعلقة أساسا بالرسائل الديوانية حيث يرى برية الرياضي ضرورة التحرر من محاكاة أساليب القرآن لئلا يغيب المعنى عن المتلقي ، فحاجتنا إلى هذه الرسائل هو الإفهام بشكل مباشر ، حيث قال: "اعلم أنه لا يجوز في الرسائل استعمال ما أتى في آي القرآن من الاتصال و الحدف ، و مخاطبة الخاص بالعام ... "[1] .

2- التحكم في الأساليب:

يشير برية الرياضي كذلك في نصه فيما يتعلق بالكتابة إضافة إلى وضوح الأساليب وبعدها عن الغموض و الإبهام، أن يكون النصّ متماسكا بما لا يدع مجالا لتحويره أو تحويله ليحافظ على معانيه المقصودة ، أي شرط التظافر مع الذي قبله، فنستنتج منه أن هذا الكاتب يشترط فيه أن يكون ماهرا ملما بلغة و أساليب و معاني العربية ، بالقدر الذي يجعله يكتب وفقا لعقل المتلقي إذ يقول في ذلك: "لا ينبغي للكاتب أن يكون كاتبا حتى لا يستطيع أحد أن يؤخر أول كتابه و لا يقدم آخره"[2]، والواقع أنّ لغة الكتاب دائما ما تميزت بهذا النوع من لطافة الأساليب و سهولتها و هذا ما نجده بصفة خاصة عند كتاب المغرب ، فعند ابن رشيق في الأنموذج نجد صنفا من الشعراء الكتاب وهم

1) - برية الرياضي ، الرسالة العذراء ، ص 45.

2) - المصدر نفسه ، ص 44.

أولئك الذين امتهنوا الكتابة الرسمية في الحضرة الأميرية وأبناءهم كذلك يلحقون بهم مثل ابن أسباط الكاتب فهو لم يكن كذلك إنما أبوه هو من كان كاتبا [1] ، إضافة إلى أولئك الذين احترفوا الكتابة العلمية في الأخبار و التواريخ و الفلسفة و غيرها من العلوم ، إضافة إلى أولئك الذين اشتهروا بالخط و فنونه [2]و هي صفة لازمة للكاتب السلطاني عادة .

من مميزات شعر هذه الفئة من الشعراء كما نجده في كتاب الأنموذج أنهم يميلون إلى لطافة الألفاظ ووضوحها و النزوح نحو الطبع وقلة القول في الأغراض المشهورة مثل المديح و الهجاء و الميل إلى الشعر العلمي الذي يستعمل فيه صاحبه مصطلحات علم معين ، إلى جانب استعمال الشعر التعليمي سواء في شكل ألغاز أو نكت أو غيرها ، و تكثر في أشعارهم المراسلات ، مع ملاحظة – كما يبدو من الأنموذج- أنهم غير مكثرين من الشعر و أغراضه ، و عادة ما يطلق ابن رشيق نفَسه في ترجمتهم وسرد بعض أحوالهم و قد يكون مرد ذلك إلى أن ابن رشيق كان على مقربة منهم و على احتكاك دائم معهم لأنه كان من رجالا البلاط السلطاني، وقد يشتهر بعضهم في كثير من الأحيان بتميزه في فنون النثر إلى جانب بروزه في الشعر و هذا طبيعي بسبب الحرفة ، والشخصية العلمية التي يتميزون بها .

و يشير برية في موضع آخر من رسالته العذراء إلى مقدرة هؤلاء الكتاب و مهارتهم لما يقول أن الكاتب المستحق اسم الكتابة ، و البليغ المحكوم له بالبلاغة ، من "إذا حاول صنعة كتاب سالت على قلمه عيون الكلام من ينابيعها ، و ظهرت من معادنها ، و بدرت من مواطنها ، من غير استكراه ولا اغتصاب" ، و ينقل في ذلك حديثا للصديق للعتابي قال له : اعمل لي رسالة ، واستمده مرة بعد أخرى ، فقال له : ما أرى بلاغتك إلا شاردة عنك ، فقال له العتابي : لما تناولت القلم تداعت علي المعاني من كل جهة ، فأحببت أن أترك كل معنى حتى يرجع إلى موضعه ، ثم أجتني لك أحسنها" [3].

---

1) – برية الرياضي، الرسالة العذراء، ص 194 .

2) – الصولي أبو بكر محمد بن يحى (335هـ) ، أدب الكتّاب، : المطبعة السلفية – مصر، 1431هـ ، 46/1.

3) – أبي اليسر الشيباني ، الرسالة العذراء ، ص 65.

و يظهر ابن رشيق ذلك بشكل واضح عند ترجمته لشعراء هذه الطبقة وعددهم ثلاث عشرة شاعرا في أنموذجه، وصفهم كلهم تقريبا إلى جانب ميزة الكتابة ، بلطافة العبارة أو بوصف قريب منها مثل الملاحة و الحسن و السلاسة مثل ما قاله في أبي إسماعيل الكاتب :" لطيف الألفاظ نظيفها رشيق المعاني و جيزها ... غواصا في بحر الحكمة على در البديع ، قليل المديح و الهجاء ، كلفا بالمواعظ في شعره "(1) ، و في الرقيق القيرواني :" شاعر سهل الكلام محكمه لطيف الطبع قويه تلوح الكتابة على ألفاظه قليل صنعة الشعر "(2) ، و في كاتب كرامة: " شاعر لطيف ، حلو الكلام"(3)، و في ابن الأبزاري : "كان شاعرا لطيفا متفننا " (4) ، و في ابن أسباط الكاتب : "كان..شاعرا حاذقا ، مليح الكلام غريب القوافي ظريف المعاني قليل الشعر " (5) ، و في أبي الحسن الكاتب : في شعره من إتقان الصنعة في لطافة و حلاوة و إدماج ما يفوت كثيرا من الشعراء"(6)، وفي ابن حيان الكاتب: "شاعر ذكي متوقد سلس الكلام تطيعه المعاني ، و ينساغ له التشبيه ، وتحضره البديهة"(7)، و في المنجم: "شعره مليح البناء ملتئم الأجزاء"(8) ، و قال في الطارفي : "أكثر اشتهاره بالنثر دون النظم إذ كان فيه فارس الفرسان وواحد الزمان " (9).

في هذه النقول التي تمسّ أغلب شعراء هذه الطبقة نجد أهم الخصائص التي تمييز هذه الطبقة إلى جانب لطافة العبارة وسهولتها مثل: قلة الشعر وتجنب بعض الأغراض والشهرة بالنثر وغير ذلك، لكن تبقى أهم ميزة هي لطافة اللغة وقد يكون هذا بسبب احترافهم للكتابة السلطانية التي تتطلب مجاملات وعبارات و ألفاظ فيها جانب كبير من الاحترام و التوقير.

---

1)- ابن رشيق ، الأنموذج ص 50 .

2)- المصدر نفسه ص 55 .

3)- المصدر نفسه ص 90 ، 91 .

4)- المصدر نفسه ص 130، 131 .

5)- المصدر نفسه ص 194 .

6)- المصدر نفسه ص 360 ، 363 .

7)- المصدر نفسه ص 396 .

8)- المصدر نفسه ص 408 .

9)- المصدر نفسه ص 167، 168 .

3- ترك الإعجام والشكل:

يشير برية الرياضي كذلك في رسالته إلى قضية مثيرة ، تتعلق بالجوانب الجمالية الشكلية في النص المكتوب، وهذا يدل على رقي الذوق الحسي لذا الكاتب العربي بصفة عامة، و كيف أن هذا الذوق امتد في الشرق و الغرب ، خاصة و أنه في فترة زمنية متقدمة ، حيث يدعو برية الكتّاب إلى عدم تسويد النصّ بما يجعله نشازا مختلطا ، و إن كان المضاف إليه مما يزيده وضوحا من حيث المعنى كالإعجام و حركات الإعراب حيث يقول: "إياك والنقط و الشكل في كتابك[1] ، إلا أن تمر بالحرف المعضل الذي تعلم أن المكتوب إليه يعجز عن استخراجه ، فإني سمعت سعيد بن حميد بن عبد الحميد الكاتب يقول : "لأن يشكل علي الحرف ، أحب إلي من أن يعاب بالنقط و الإعجام ، وقال المأمون لكتابه: إياكم والشونيز في كتبكم ، يعني : النقط ، و لذلك قال ابن هانئ:

لم ترض بالاعجام حين كتبته   حتى كتبت السب بالاعراب [2]

و هذا التوجه لم يكن موقف برية فقط بل هو مذهب أغلب اولئك احترفوا الكتابة كـ عبد الحميد الكاتب و غيره، و هو دلالة كما سبق على اهتمام العرب بالجوانب الشكلية للكتابة .

- أسباب الكتابة و دوافع الإبداع الأدبي:

تناول الأدباء العرب و نقادهم مواضع أسباب القول الأدبي و دوافعه بشكل مباشر مبرزين أهميته و أثره في قوة الكلمة ، حيث كانت آثار تلك الدوافع ظاهرة عند من استكمل حضورها والعكس صحيح، و تناولوا كذلك كيف أنّ القائل الواحد يختلف قوله قوة و ضعفا حسب الأسباب و الدوافع التي عاشها أثناء قوله ، و شاهده قول الأصمعي لابن أبي طرفة: كفاك من الشعراء أربعة: زهير إذا رغب، والنابغة إذا رهب، والأعشى إذا طرب، وعنترة إذا كلب، وزاد قوم: وجرير إذا غضب[3]، حيث تشير العبارة إلى أن هؤلاء الشعراء ليسوا هم أشعر الشعراء إلا إذا قالوا في الحال التي تنتابهم فيها الوضعية الشعورية المعينة التي تدفعهم إلى قولهم ذلك ، و ذكروا مع ذلك كذلك بعض

---

1)- لماذا ينهى عن الشكل و النقط هل لأسباب جمالية فقط كما نفهم من تعليله اللاحق أم بسبب التأثير على المعنى و الفهم كذلك ، يضاف إليه من خلال هذه التوصية نفهم و نعرف السياق الثقافي المتقدم الذي كتبت فيه هذه الرسالة .

2) – برية الرياضي، الرسالة العذراء ، ص 51 ، 52 .

3) – ابن عبدربه، العقد الفريد ، 120/6 .

الأسباب العامة التي يجب أن تجتمع للقائل إذ يجعلها الجرجاني (392هـ) أربعة و هي : الطبع والذكاء و الرواية و الدربة[1] ، يعني أن الأديب ينبغي أن يكون ذو علم و ثقافة و مهارة إضافة ألى عامل مهم و هو الطبع كما يقول الجرجاني ، و هذا العامل الأخير تحدث عنه النقاد القدامى كثيرا كالجاحظ و ابن قتيبة و ابن طباطبا و غيرهم[2] ، لكن لا يوجد من هؤلاء من شرح هذا المصطلح إلا إيماء ، لكن حازم القرطاجني عرفه بعد ذلك في فترة متأخرة فقال أنّ: "الطبع هو استكمال للنفس في فهم أسرارا الكلام ، و البصيرة بالمذاهب و الأعراض التي من شأن الكلام الشعري أن ينحى به نحوها ، فإذا أحاطت بذلك علما قويت على صوغ الكلام بحسبه عملا "[3] ، يعني أن الطبع هو موهبة فطرية تتطور بالعلم و العمل و الممارسة و يسميه أيضا قوة التشبيه أو السجية و القريحة في بعض الأحيان[4]، و بعض النقاد يشير إلى الطبع بالبديهة أو الارتجال كابن بسام الشنتريني[5] .

و الحقيقة أن الحديث عن أهمية الطبع في الصناعة الشعرية ليس حكرا على الثقافة العربية فقط بل نجد الغرب كذلك من لدن اليونان تناولوا هذه القضية حيث نجد أرسطو يتكلم عن هذه القضية حيث يشير إلى أن الشعر ليس متاحا للكل حيث يقول : "... إن الشعر من شأن الموهوبين بالفطرة ، وذوي العواطف الجياشة"[6] ، و تسائل هوراس كذلك في خصوص هذه المسألة لما قال : هل الشعر الناجح نتاج الطبيعة أم الفن" و أجاب بنفسه فقال " لست أتبين ماذا يستطيع التحصيل

---

1)- القاضي الجرجاني ، الوساطة بين المتنبي و خصومه ، تح: محمد أبي الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، ط1، القاهرة ، 1966م ، ص 15-16.

2) - الجاحظ، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، (255هـ)، البيان والتبيين ، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1423 هـ، 59/1 ، الدينوري ، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (276هـ)،الشعر والشعراء، دار الحديث، القاهرة، 1423 هـ، 94/1 ، ابن طباطبا محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم ، الحسني العلوي، أبو الحسن (322هـ)، عيار الشعر، تح: عبد العزيز بن ناصر المانع ، مكتبة الخانجي - القاهرة ، الجرجاني ، الوساطة ص 15 .

3) - القرطاجني حازم ، منهاج البلغاء ، ص 199 .

4)- القرطاجني ، أبي الحسن حازم، منهاج البلغاء و سراج الأدباء، الدار العربية للكتاب ، تونس 2008م ، تح الحبيب ابن الخوجه ، 308 .

5) - ابن بسام الشنتريني ، الذخيرة ، 7/ 37 .

6)- أرسطو ، فن الشعر ، تر: عبد الرحمن بدوي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، 1953م ، ص 409 .

أن يثمر من غير نفحة وافرة من الموهبة الفطرية ، أو الموهبة الفطرية من غير التحصيل ، إن أحدهما ليلح في طلب الآخر ، و يعاهده على صداقة باقية"[1].

و تناول النقاد المغاربة الأوائل هذه المسائل كذلك خاصة المتأخرين منهم أما المتقدمين فنجد عندهم إشارات في ذلك حيث أشار برية الرياضي في رسالته العذراء إلى قضية ما يتعلق بدواعي ودوافع الكتابة الأدبية سواء كانت شعرا أم نثرا ، من معطيات نفسية و مهيئات مادية و معنوية تلهم الأديب على قول أسمى ما يمكن أن تجود به قريحته ، حسب ما يقتضيه الظرف و المقام ، و هو ما يجعل الأدب فعلا صادقا من حيث المبدأ بالرغم ما قد يحتويه من مبالغات ، و من الطريف أن أغلب النقاد و الأدباء عادة ما يتكلّمون عن دواعي الشعر و أسبابه و قلما نجدهم يتحدثون عن دواعي الكتابة النثرية بصفة خاصة ، و هو ما تناوله برية في رسالته العذراء و إن كان قد أدخل في نقاشه الشعر كذلك إذ يقول في ذلك: "...وارتصد لكتابك فراغ قلبك ، و ساعة نشاطك ، فتجد ما يمتنع عليك بالكد والتكلّف ، لأن سماحة النفس بمكنونها، وجود الأذهان بمخزونها ، إنما هو مع الشهوة المفرطة في الشعر و المحبة الغالبة فيه ، أوالغضب الباعث منه ذلك ، قيل لبعضهم : لم تقول الشعر ؟ قال : كيف أقوله ، و أنا لا أغضب ولا أطرب"[2] ، حيث نجد في ما قاله إشارة مباشرة إلى أنّ الكتابة الأدبية بصفة عامة تستلزم أمرين :

الأول: الزّمن المناسب .

حيث يرى برية الرياضي أنه لأجل الكتابة القوية يلزم تخير الأوقات المناسبة ، خاصة الساعة التي ينشط فيها الذهن ، و تنشرح فيها القريحة ، أو تتحفز للقول ، و تختلف هذه الساعة بين القائلين لاعتبارات تخصهم و محيطهم .

---

1) – هوراس ، فن الشعر ، تر: لويس عوض ، مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر القاهرة ، 1947م ، ص 94 .

2) – برية الرياضي ، الرسالة العذراء ، ص 58 .

و في هذا الخصوص يشير احسان عباس إلى هذه القضية عند ابن قتيبة حين يشير إلى العلاقة بين الشاعر و الزّمن، إذ أن بعض الأوقات ذات تأثير خاص في المزاج الشعري، كأول الليل قبل تفشي الكرى و صدر النهار قبل الغذاء [1].

الثاني: الحالة النفسية المناسبة.

لا يقصد هنا برية الحالة النفسية الإيجابية للشخص و إنما الإيجابية للقول ، إذ أن الحالة النفسية السلبية للشخص قد تكون إيجابية للأدب كالرهبة و الحزن و غير ذلك ، و هذه الأحوال الصادقة ، أو المطابقة لموضوع الكلام ، هي التي تعطيه قوته و عمقه و بلاغته .

نجد إشارات لذلك كذلك عند القاضي عياض في ترتيب المدارك ، حين ينقل بعض القصص للأسباب التي دعت بعض الأدباء و الشعراء لقول شعر لأسباب مختلفة كالرغبة أو الرهبة أو غير ذلك كمثل هذه القصة التي هجا فيها أبو المضرجي الشاعر ، بني غانم ، فاتصل ذلك بالقاضي فضجر منه، و اشتهر الشعر، فقيل لابن غانم : ليس لك إلا أبا الوزن فإنه يلقاه بكل ما يكره .

و كان أبو الوزن مضحكا ضعيف الشعر، فأتى به إلى ابن غانم، فقال له : بلغني أنك بعيد الصوت و نحن نحب من يؤذن في الجامع ، و قال لبعض خدمه: ادفع لأبي الوزن خمسة أقفزة قمحا ، وخمسين قفيزا زيتا ، و مائة درهم حتى ننظر في أمره فلما قبض ذلك أبو الوزن ، قال للذي به للقاضي ، و الله قصة ، فإني لا أصلح أن أكون مؤذنا ، فأخبر بالأمر ، فقال : قد كفى ، فدخل يوما على إبراهيم بن الأغلب في جملة الشعراء فنظر إلى الأمير ثم أنشده :

إني و إني و إنني و أنـــا   و أهل بيتي معظمو الأمـرا

ثم أشار إلى أبي المضرجي و قال :

إن أبي المضرجي شاعركم   يضرط كلمـــا شعـــرا

و قال القاضي : و يعد هذا بيتا قبيحا تركناه لفحشه و رفثه و إن كان بيت الأبيات الثلاثة في بابه.

---

1) – إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، (1424هـ)، ط4، 1983، دار الثقافة، بيروت – لبنان، 111/1.

فضحك الأمير ومن حضر، و انكسر الآخر، و علم من حيث أتى، فجاء إلى ابن غانم[1] معتذرا، مقسما أنه ما هجا أحدا من أهل بيته، فأظهر ابن غانم ألا علم عنده بشيء من القضية، فسأله كف أبي الوزن عنه، فأمره بذلك، فقال: لا و الله حتى أعطى مثل ما أعطيت حين هجوته، فأمر له بمثل ذلك [2].

أمثال هذه القصص عند القاضي عياض فيما يتعلق بشعراء و أدباء و علماء مغاربة كثيرة يشير فيها كثيرا إلى أسباب القول مثل المال أو الغضب للعرض و القبيلة أو غيرها، بما يجعله مهما ومؤثرا، إشارة إلى أن قوة القول من قوة دافعه وسببه.

و أكثر من تكلم عن الحالة النفسية لدى النقاد العرب نجد ابن قتيبة الذي تحدث عن الحوافز النفسية الدافعة لقول الشعر كالطمع كما في القصة السالفة أو الشوق و الطرب و الغضب ، و ما يثير هذه الحوافز كالشراب و المناظر الطبيعية الجميلة[3] ، و يومئ إلى ذلك في حديثه عن الكميت في مدحه بني أمية و آل أبي طالب فإنه كان يتشيّع و ينحرف عن بني أمية بالرأي و الهوى ، و شعره في بني أمية أجود منه في الطالبيين ، و لا أرى علة ذلك إلا قوة أسباب الطمع و إيثار النفس لعاجل الدنيا على آجل الآخرة [4].

1) – ابن غانم (128 – 190 هـ): عبد الله بن عمر بن غانم بن شرحبيل بن ثوبان الرعيني أبو عبد الرحمن، الفقيه، الورع، الثقة، الثبت، روى عن مالك، وعليه كان معتمده، وروى عن سفيان الثوري، وإسرائيل بن يونس، وعثمان بن الضحاك المدني، وجماعة، وروى بإفريقية عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم، وخالد بن عمران، ودخل الشام، والعراق في طلب العلم، ولقي أبا يوسف صاحب أبي حنيفة، وروى عنه سحنون في المدونة، له كتاب جمع فيه ما سمعه من الإمام مالك يسمى ديوان ابن غانم. انظر ترجمته عند: محمد محفوظ: ترجمة المؤلفين التونسيين، 248/5 .

2) – القاضي عياض ، ترتيب المارك و تقريب المسالك ، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية ، المملكة المغربية ، 1983م ، 77/3 .

3) – إحسان عباس ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، ص 111 .

4) – ابن قتيبة ، الشعر و الشعراء ، 80/1 .

المبحث الثالث : مفهوم الشعر

يملي المنطق أن يكون مفهوم الشعر عند علماء المغرب غير متجاوز لإطار مفهوم الأدب بصفة عامة كما عرض من قبل فهو تحصيل محصل منه، لكن إفراده يجيء لابراز بعض الخصائص المفهومية التي تتعلق به.

الغريب في الفكر النقدي العربي أنّ الكثير من المفاهيم المحورية لم تنضبط تحت تعريف متفق عليه يلم شتات معانيها ، و يبين قواعد مبانيها ، و يوضح أهدافها و مراميها ، و ليس بعيدا منا مفهوم الشعر ، فإن كان ممارسة اشتهرت لدى العرب حتى بلغ أقصى مكانة فيهم يمكن أن يحتلها علم ما ، فإن نقادهم انفرط شمل تفكيرهم في لملمة مفهوم الشعر ، بسبب تعلقه بالمشاعر والوجدان من جهة ، و بسبب ارتباطه باللسان في الجهة الأخرى ، فتحديد المفهوم تاه بين هذين الطرفين ، و مع الزمن و تطور فنون القول ، و تحديد العلوم ازداد هذا التباين ، و دليل ذلك بعض النماذج مما سنسوقه .

الجاحظ (255هـ) برغم تزعمه لقائمة نقاد العرب و بنائه للكثير من المفاهيم النقدية العربية إلا أننا لا نجد عنده مفهوما ضابطا لحد الشعر إلا إيماء من خلال قوله: "المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي و العربي و البدوي و القروي ، و إنما الشأن في إقامة الوزن ، و تخير اللفظ و سهولة المخرج و كثرة الماء و في صحة الطبع و جودة السبك ، فإنما الشعر صناعة و ضرب من النسج و جنس من التصوير"[1]، اشتهر هذا التعريف عند الجاحظ و أثار الكثير من الجدل المتعلّق أساسا بمسألة اللفظ و المعنى ، لكن هدفنا في هذا المقام فهم حده للشعر الذي سيكون من خلال نصه متكونا من الصناعة اللفظية إلى جانب الوزن ، و هو تعريف يكشف عن الجزء الجلي من هذه الصناعة باعتبار الزمن الذي قيل فيه ، أين كانت جمالية الشعر تكمن في ضبط الوزن و حسن استخدام المعاني المتاحة بانتقاء الالفاظ المناسبة ، و كما قلت سابقا فإن هذا

1)- الجاحظ ، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، (255هـ)، الحيوان، دار الكتب العلمية/ بيروت، ط2، 1424 هـ، 67/3 .

التعريف جاء ليشرح الشعر بأهم المميزات التي كانت تختص به في تلك الفترة التي بدأ الأدب فيها يتجه نحو الصناعة و الاستقلال ، و المؤكد أنّ من جاء بعد الجاحظ أفاد منه هذا المفهوم كابن طباطبا (322هـ) الذي قال أنه : "كلام موزون ، بائن عن المنثور الذي يستعمله الناس في مخاطباتهم ، بما خص به من النظم الذي إن عدل عن جهته مجته الأسماع ، و فسد على الذوق ، و نظمه معلوم محدود ، فمن صح طبعه و ذوقه لم يحتج إلى الاستعانة على نظم الشعر بالعروض التي هي ميزانه ، ومن اضطرب عليه الذوق لم يستغن من تصحيحه و تقويمه بمعرفة العروض والحذق به، حتى تعتبر معرفته المستفادة كالطبع الذي لا تكلّف معه"[1]، ابن طباطبا ركز في تحديده للشعر على محاولة تمييزه عن النثر بكل ما استطاع تبيانه من الوسائل و القرائن ، مغلبا جانب كونه موزونا ، معتبرا خلوه من الوزن مفسدة ليس للشعر فقط بل للكلام عموما ، مبيينا نزوعه نحو الشعر ، لكن يبقى اللافت في تعريف ابن طباطبا و الجاحظ من قبله هو أن كلا التعريفين بتركيزه على محاولة التفريق بين الشعر و النثر أهمل الإشارة بدقة إلى ما يميز الشعر من الخصائص غير اللفظية ، أو أنّ هذه التعاريف توهم بسلطة اللفظ دائما في هذه الصناعة .

و نجد عند قدامة بن جعفر (337هـ) أن الشعر هو: "قول موزون مقفى يدل على معنى"[2]، و هو التعريف الذي قبله أغلب النقاد و علماء الأدب ليس بسبب كونه جمع ومنع بل بسبب كونه الأقرب و الأوضح، رغم ما يستدرك من كونه لم يشر إلى طبيعة المعنى الدال عليه إن كان مباشرا أم غير ذلك إن كان صدقا أم غير ذلك، إن كان حقيقة أم غيرها، و ما قد يلاحظ كذلك على مفهوم الوزن، و لكن من حيث العموم يعتبر أقرب تعريف.

و صاغ على منواله من علماء الغرب الإسلامي ابن رشيق الذي قال بأن الشعر يقوم بعد النية من أربعة أشياء و هي اللفظ و الوزن و المعنى و القافية ، فهذا هو حد الشعر ، وهذا التعريف و إن كان دلاليا و ليس مفهوميا فإنه يؤطر لنا مصطلح الشعر وفق نهج قدامة دائما ، لكن يمكن القول أنّ ابن رشيق تميز بكون كمال و نضج الأفكار يبدو واضحا في مفاهيمه

1) – ابن طباطبا عيار الشعر ص 5 .

2)– قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي، أبو الفرج (337هـ)، نقد الشعر، مطبعة الجوائب ، ط1، 1302 ص 03.

فتأكيده للمعنى إلى جانب اللفظ و الوزن يبين مركزيته في الشعرية العربية ، بالرغم أنّ النقاد السابقين لم يهملوه بكل تأكيد كما يفهم من السياق لكن ، عدم التنصيص عليه يفتح باب الجدل والمناقشة، كما وقع مع الجاحظ[1] .

بالتحول إلى موقف النهشلي في هذا الصدد، و إن لم نجد في ما وصل إلينا من تراثه نصا واضحا يشرح فيه مفهوم الشعر إلا أنه يمكن لنا أن نستنتجه من مجمل نصوصه الواردة إلينا التي تثير الكثير من التساؤلات، من بينها أن الشعر في لغته عند العرب لم يختلف أساسا عن النثر وإنما حصل ذلك لاسباب تتعلق بالحفظ فوضعوا له أوزانا خاصة و حتى التغني به فهو مما يهدف إلى لهذا الغرض، لكن التساؤل المطروح هو أنّ التغني الموجود في التراث العربي يرتبط كذلك بأحوال ومقامات شعورية معينة ، فهل ما قاله النهشلي لم يراع فيه هذه المقامات ؟! إذ يقول في نصه التالي: "لما رأت العرب المنثور يند عليهم و يتفلت من أيديهم ، و لم يكن لهم كتاب يتضمن أفعالهم ، تدبروا الأوزان و الأعاريض ، فأخرجوا الكلام أحسن مخرج بأساليب الغناء ، فجاءهم مستويا ، و رأوه باقيا على مر الأيام ، فألفوا ذلك و سموه شعرا"[2] ، ثم إن ما يفهم من قوله أن عملية تشعير القول كانت عملية منظمة ، إذ أن العرب عملوا على إيجاد سبل لتخليد أقوالهم وأيامهم ، و لم يكن بفعل التراكم الطبيعي و الاعتباطي المرتبط بالذوق و الانسان و المحيط ، ويرجح هذا الأمر، عندما نعرف أن الشعر عند العرب ارتبط بفئة قليلة نالت سمة العلم في البيئة العربية البدوية أو الحضرية ، حيث تذكر بعض الدراسات أن الشاعر عند العرب كان أعلم إنسان في بيئته ، يعني أن هذه الفئة سعت بشكل مقصود إلى إيجاد طرق و أساليب تنظم بها فنون القول ، و تحاول من خلال حفظ تاريخهم و آدابهم بفعل التغني ، و يؤيده كذلك ما نقله من أن: " الشعر عندهم يعني الفطنة و معنى قولهم ليت شعري أي ليت فطنتي"[3] ، و الفطنة كما هو معلوم تعني العلم و التبين و المهارة و الحكمة و الحذق و بعد النّظر و كلها معاني تؤيد القول

1)- رشيدة كلاع، النقد المغربي القديم في ضوء نظرية النص ، من خلال كتابي العمدة و منهاج البلغاء، رسالة دكتوراه ، جامعة قسنطينة 1 ، 2014 ، ص 88 .

2) - عبد الكريم النهشلي ، الممتع 19، إحسان عباس، تاريخ النقد عند العرب 441 .

3)- المصدر نفسه ، الممتع 19 .

السابق ، من أن الشعر عند العرب صناعة عملوا على إقامتها و تنظيمها و تطويرها لغرض الحفاظ على لغتهم و تاريخهم وآدابهم .

و هذا الموقف من النهشلي لو سلمنا به فإنه قد يخالف الكثير من المواقف المتعلقة بنشأة وتطور الشعرية العربية و أغراضها ، و يفتح باب الجدل كذلك فيما يتعلق باللفظ و المعنى وغيرها من القضايا على شاكلة ما حدث مع الجاحظ ، أكثر من ذلك فإننا نجد في نصوص أخرى ما يؤكد هذا التوجه الذي ينفي التراكم و الاعتباطية و يؤكد الصناعة و التواضع حيث يقول أن : "خير كلام العرب وأشرفه عندها هذا الشعر الذي ترتاح له القلوب ، و تجذل به النفوس ، وتصغى إليه الأسماع ، و تشحذ به الأذهان ، و تحفظ به الآثار ، و تقيد به الأخبار"(1) ، حيث ينصص على أن الشعر إلى جانب أنهم كانوا يريدون به التعبير عن خوالج النفوس كانوا يريدون به حفظ الآداب والتاريخ، و هو مع ذلك أرقى فنون القول عندهم بسبب أنهم سعوا ليصير كذلك من خلال اجتهادهم في صناعته ، و إحكام وضع الأوزان و المقامات الغنائية و المعاني الشاعرية التي جعلت منه " أبلغ البيانين ، و أطول اللسانين ، و أدب العرب المأثور ، و ديوان علمها المشهور"(2) كما يقول النهشلي نفسه .

و ما قاله النهشلي يتعارض حتى مع نظريات نشأة الشعر و ظهوره لدى الانسان كله و ليس عند العرب فقط، و هذا حتى عند بعض كتاب الغرب الإسلامي كمحمد بن عثمان الذي نقل ما هو معروف لدي الكثير من النقاد في باب أول من تكلم بالشعر آدم : قلت –أي محمد بن عثمان– من أول من تكلم بالشعر في الدنيا ؟ قلت آدم قلت أي شيء كان شعره ؟ قال لما رأى وحشة الدنيا أنشأ يقول :

تغيرت البلاد ومن عليها　　　فوجه الارض مغبر قبيح

تغير كل ذي طعم ولون　　　وقل بشاشة البلج المليح

---

1) - النهشلي ، الممتع ، ص 11 .

2)- المصدر نفسه ، ص 19،

و بدل ما في الأرض أثلا بجنات من الفردوس فيح

أرى طول الحياة علي غما فهل أنا من حياتي مستريح [1]

و هذه الرواية على ما فيها من احتمال الانتحال إلا أنه يبقى أن الشعر قديم قدم الأمم و أنّ مما في أيدينا من الأشعار العالمية أقدم مما هو منسوب إلى العرب من قديم شعرهم، يعني أن الشعرية صناعة قديمة تكونت عند الشعوب بفعل التراكم الثقافي و انتقلت بين الشعوب بحكم التفاعل ، فصاغ كل منهم شعره وفق قوالب و أوزان وليدة بيئته و شخصيته .

بالانتقال إلى أحد أهم نقاد و لغويي الغرب الإسلامي و هو القزاز نجده لا يختلف كثيرا في تحديد مفهوم الشعر عن سابقيه من النقاد المشارقة و المغاربة ، حاصرا إياه في اللفظ و المعنى و الوزن والقافية باستخدام أدوات النحو و البلاغة[2]، و هو و إن لم يذكر هذا المفهوم صراحة إلا أنّ فهمه واضح و صريح في نصوصه حيث يقول في كتابه ضرائر الشعر : "... و إنما قصدنا إلى ضرب من عيوب الشعر ، أردنا أن نقدمه أمام ما نحن ذاكروه ، و مما يجوز للشاعر في شعره من غامض العربية ومستنكرها في المنثور ، ليكون فيما أخبرنا حجة لهذا و أمثاله ، إذ كانت عيوبه أكثر من أن يتضمنها كتاب أو يحيط بها خطاب ، من الفساد في المعاني و الخطأ في اللغة و اللحن في دقائق العربية وفساد التشبيه و التقديم و التأخير ووضع الشيء -في- غير موضعه و اختلاف القوافي ، وما يجوز فيها من الإكفاء و الإقواء و غير ذلك "[3].

حيث أن القزاز أشار في تبيينه للعيوب التي يمكن أن تلحق الشعر من فساد في المعنى أو ضعف اللغة أو عدم التعامل الأمثل مع البلاغة و البيان أو الخروج عن نسق الأوزان ، و هي الثوابت الأساسية للشعر ، بما يميزه عن غيره من الأقوال، بمفهوم المخالفة فهو يقول الشعر لفظ و معنى ووزن و قافية .

1) - محمد الطالبي، الصراع اللاهوتي فيي القيروان أيام الأغالبة ، منشورات سوتيميديا، ط1، تونس 2017، ص 81 .

2) - الحسين الأقرع ، مفهوم الشعر عند القزاز ، رسالة ماجستير ، جامعة ورقلة الجزائر ، ص 28-29 .

3) - أبو جعفر القزاز، ضرائر الشعر 146 .

وظيفة االشعر :

تحدث نقاد العرب عن أغراض الشعر باعتبارها الأهداف و الوظيفة التي يقوم بها الشعر إضافة إلى اعتباره تعبيرا عن الشعور المؤدي إلى أهداف أخرى ،كأن نجد عند البعض أن الشعر أغراضه وأهدافه استجلاب المنافع و استدفاع المضار ، أو غير ذلك[1] ، و هذا ما نجده كذلك عند نقاد المغرب إذ نجدهم يتحدثون بشيء من التفصيل البعيد أحيانا حتى عن الدواعي الشعورية ، إلى التعليمية أو الإخبارية مثلا، لذلك نجد الشعر التعليمي كيف اشتهر في منطقة المغرب بسبب هذه العقلية التي كان الشعر طارئا عليها و ارتبط تطوره بالظاهرة الدينية ، لذلك فإن مفهومه ارتبط بهذه الظواهر .

نجد في هذا الصدد بالخاصة عبد الكريم النهشلي الذي يشير إلى أثر الشعر في استجلاب الخير و المنفعة للبشر، مع عدم زيادة اهتمام بالمنافع البشرية أو الذاتية التي قد يجلبها المدح أو الهجاء أو الرثاء، و إنما كانت رؤيتهم إلى الأهمية الأبعد و الأشمل بما يشير إلى حكم ، و ليس إلى مجرد تناوله كظاهرة أدبية جمالية فقط إذ يقول النهشلي في ذلك : كم عسير كان الشعر فرج يسره ، ومعروف كان سبب إسدائه ، و حياة كان سبب استرجاعها ، و رحم كان سبب و صلها ، و نار حرب أطفأها ، و غضب برده ، و حقد سله ، و غناء أجتلبه[2] .

و هي إشارة إلى الآثار المادية و المعنوية للشعر كيف يكون سببا لاستجلاب المنافع و التفريج عن النفس، و هو مع ذلك سبب لأضداد هذه الأمور، فهل يرى النهشلي أن الشعر ينبغي أن ينأى عنها، أم أنه أشار إلى إيجابياته فقط، إذا رأينا فيما قدّمه النهشلي في كتابه الممتع ، إذ نجده لا يورد أبياتا في الهجاء ، بل يتعامل معه بالشكل الذي يوحي رفضه له ، و هذا يفسر ماقاله في وظائف الشعر و أغراضه ، ما يعني أنه كان ينظر له من جهة أخلاقية ، و هذا لم يقتصر على النهشلي فقط بل نجد تلميذه ابن رشيق كذلك على نفس النسق إذ نجده يميل نحو رفض الهجاء كما قرّره في كتاب

1) - حازم القرطاجني ، منهاج البلغاء .

2) - عبد الكريم النهشلي ، الممتع ، ص 13 .

العمدة فكثيرا ما يشيد بأولئك الذين رفضوا الهجاء لورعهم ، و يقرّع أولئك الذين أفرطوا فيه ، و هذا النهج دافعه أخلاقي ديني ، و هو يبدو متوافقا مع شخصية ابن رشيق المائلة نحو الدعة والهدوء والاعتدال ، قال في الأنموذج عند ترجمة الفراسي : "كان شاعرا خليعا ماجنا شريرا كثير المهاجاة ، قليل المداراة، خبيث اللسان" (1) ، و في عبد الله بن رشيق: "كان له في الشعر حظ كبير إلا أنه لم يمدح لمثوبة ، ولا أعلمه هجا أحدا قط " (2) ، وقال في القفصي البزاز: شاعر قوي الطبع مهول ... وليس له مدح و لا هجاء لكفايته و ديانته و ما عليه من طلاوة العلم الشرعي"(3) ، و غير هذه النصوص كثير ، و هي كلها تؤكّد على موقفه الثابت في رفض الهجاء و النفور منه و احتفاله بأولئك الشعراء الذين التزموا هذا المسلك ديانة و مروءة .

لكن نجد أنه حاول أن يكون متزّنا مع نفسه بحيث لا تؤثر خلفياته الفكرية و العقائدية والسياسية على حكمه على الشعراء فقد يكون الشاعر مخالفا لأراءه لكن ذلك لا يسقطه من كونه شاعرا ، كما أنّ عدم استخدامه لمبدأ النقد الديني أو الأخلاقي بشكل واسع و مفرط يوحي بأنه لم يرد أن يجعله مطية للمتعصبين و السياسيين ليستغلوه كورقة للعبة السياسية و الإقصاء الفكري والجسدي ، و هذا يعكس النضج الكبير الذي بلغه ابن رشيق وإدراكه لوظيفة و أهداف الأدب والشعر القِيَمِيَة و الفنية و الجمالية ، بخلاف الكثير من النقاد الذين انساقوا وراء المذاهب و المواقف والتعصب للأشخاص .

نلاحظ كذلك أنّ استخدام ابن رشيق للنقد الديني أو الأخلاقي ليس معيارا ثابتا و إنما هو متغيّر حسب المقامات و الأعلام، و كثيرا ما كان لمجرّد الاستئناس و التمهيد، كما أنه ارتبط في مواضع كثيرة بملابسات أغلبها سياسي كما سبق فيما يتعلق بالشيعة الروافض أو بعض النواصب (4) وهذا هو الخط الذي قرّره في العمدة و اتبعه في الأنموذج.

---

1)- ابن رشيق ، الأنموذج ص 146 .
2)- المصدر نفسه ص 191 ، 192 .
3)- المصدر نفسه ص 320 .
4)- المصدر نفسه ص 286 ، 287 .

و هذا النهج نفسه نجده عند أغلب النقاد الأوائل إذ لم يولوا في التأليف النقدي القضايا الدينية والأخلاقية أهمية كبيرة لأنها لا تتعلق بأمور لفظية أو أسلوبية أو فنية ، فهم لم يرفضوا شاعرا لمعاقرته للخمر أو حبه للنساء أوتعلّقه بالغلمان، أو لاعتقاده بالجبر أو الرفض أو الاعتزال أو الدهرية أو غير ذلك بل كانت العبرة عندهم دائما هي الأدب و الفن ، و هذا الغالب على النقاد الأوائل مثل ابن قتيبة و ابن المعتز و غيرهما ، لكن هذا لم يمنعهم إلى أن يشيروا إلى بعض القضايا الدينية والأخلاقية ، بل إن أكثرهم تظهر عنده الخلفية الدينية الإسلامية ، لكنهم مع ذلك استطاعوا أن يعطوا لكل ذي حق حقه في الأدب والشعر .

لكن الملفت أن ابن سلام في طبقات فحوله أفرد مبحثا للشعراء اليهود(1)، و هو تصرف غير مفهوم المقصد من ابن سلام، إذ أن يهود شبه جزيرة العرب لم يكن لهم ما يميزهم في أسلوبهم ولغتهم إذ كانوا مستعربين، و تميزهم أنهم أهل كتاب و علوم، أما اللغة و الأدب فإن لغتهم كانت لغة العرب و أدبُهم كذلك.

لكن مع مرور الزمن نضجت الرؤية تجاه الشعر أكثر ، و تأثر من دون شك بمختلف البيئات التي عرفته ، فنجده ينحى منحى أخلاقيا خاصة في المرحلة التي نحن بصدد دراستها ، وهو متأثر في ذلك من دون شك بالظروف الفكرية التي غلب عليها الفقه و النقاش الديني والتكوين الأساسي الموجه كذلك ، فنجد أمثلة كثيرة في ما ذكره النهشلي لعلماء و فقهاء وقضاة مغاربة وظفوا الشعر بالشكل الذي أشار إليه ، و نجد ذلك كذلك في ترتيب المدارك للقاضي عياض(2) إذ يقول في ترجمة ابن أبي عيسى(1) : ذكر الحسن بن مفرج أن رجلا من أصحاب ابن

---

1) – محمد بن سلّام بن عبيد الله الجمحي بالولاء، أبو عبد الله (232هـ)، طبقات فحول الشعراء، تح: محمود محمد شاكر، دار المدني/جدة، 279/1 .

2) –القاضي عِيَاض (476 –544 هـ): عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي، أبو الفضل: عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته. كان من أعلم الناس بكلام العرب وأنسابهم وأيامهم. ولي قضاء سبتة، ومولده فيها، ثم قضاء غرناطة. وتوفي بمراكش مسموما، قيل: سمه يهودي. من تصانيفه " الشفا بتعريف حقوق المصطفى و الغنية في ذكر مشيخته، و ترتيب المدارك وتقريب المسالك في معرفة أعلام مذهب الإمام مالك ، و شرح صحيح مسلم و مشارق الأنوار مجلدان، في الحديث، والإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع في مصطلح الحديث . انظر ترجمته عند: الزركلي ، الأعلام99/5.

أبي عيسى أتاه في الليل فذكر له أن فقيهين مشهورين يصبحانه في قصة سماها له بشهادة مدخولة نصح له فيها و حذره من قبولها فلما جلس من الغد أتاه أحدهما فأعرض القاضي عنه و بسر في وجهه لعله يقوم فيكفي شأنه ، فتمادى فلما رأى عزمه على التصميم في الشهادة ، تناول القاضي سحاءة بين يديه فكتب فيها من حيث لم يره الآخر ثم طواها و ألقاها في حجره فلما تصفحها الآخر إذا فيها مكتوب :

أتتني عنك أخبـــار لها في القلب آثار
فدع ما قد أتيت له ففيه العار والنـــار

فلم يكد يقرأها حتى قام منطلقا و لقي صاحبه فقال له ، النجاء فقد شعر بنا[2] .

في هذه القصة إشارة إلى الأثر النفسي والاجتماعي للشعر في مقابل أمور عظيمة مثل مجلس القضاء وحكمه، كيف أن القاضي نفسه استخدم الشعر، بدلا عن سلطاته وصلاحياته التي يمحنها له منصب القضاء، إذ حصل مراده ببيتين من الشعر.

و نجد كذلك قصة أخرى فيما يتعلق بالقضاء و شؤونه و الشعر أن القاسم بن محمد قال: "…. ركبنا مع القاضي في موكب حافل من وجوه البلد إذ عرض لنا فتى متأدب، يتمايل سكرا، فلما رأى القاضي، أراد الفرار، فخانته رجلاه، فاستند إلى الحائط و أطرق، فلما قرب منه القاضي رفع رأسه و أنشأ يقول: [3]

ألا أيها القاضي الذي عـم عدلـه فأضحى به في العالمين فريـــدا
قـــرأت كتـــاب الله ألفين مـــرة فلم أر فيه للشـــراب حـــدودا
فإن شئت أن تجلد فدونك منكبـــا صبورا على ريب الزمان جليـــدا
و إن شئت أن تعفو تكن لك منـة تروح بها في العالميـــن حميـــدا
و إن أنت تختار الحدود فـــإن لي لسانا على هجو الرجال حديدا

---

1) – القاضي عياض ، ترتيب المارك ، 101/6 .
2) – المصدر نفسه ، 101/6 .
3)– القيسي ،الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان ابن عبد الله ، أبو نصر (528هـ)، مطمع الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، تح: محمد علي شوابكة، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط1، 1983م،ص 265 .

فلما سمع القاضي شعره أعرض عنه و لم يأمر باستنكاهه ، و مضى لشأنه كأن لم يره .

هذه القصة تبين أهمية الشعر ومكانته [1]، و أمثال هذه القصص في التراث العربي كثير جدا، كيف أن الشعر نجى صاحبه من القتل أو الجزاء.

و نقل في ترجمة أبي علي بن خلدون الذي كان من فقهاء إفريقية و علمائها وصلحائها من أصحاب أبي الحسن القابسي ، الذي كان رأسا بافريقية ، جليل القدر في فقهائها ، مطاعا ، وكانت العامة تتبعه ، و كان شديدا على أهل البدع و الروافض ، مغريا بهم يستند منه أهل السنة إلى ملجأ ، حتى نظم ذلك شاعر الرافضة المعروف بالتاخوري في قطعة له، وهو قوله :

عيني من التغميض ممنوعة و مهجتي بالنار ملذوعة
من حب ظبي حسن وجهه طرفه بالمسك مصنوعة
لي كبد من فرط إعراضه إلا تكن ذابت فمصوعة
كأنما ذكرى الهوى عنده ذكر ابن خلدون لدى الشيعة[2]

و في هذه القصة إشارة إلى الطابع العلمي للشعر إذ كان جزءا من الصراع الثقافي و العقدي، و كيف أنّ هذا القائل عبر عن الواقع الذي يعيشه و ما سيؤول إليه أمره في ظل وجود أبي علي ابن خلدون، و هي أبيات تشير إلى الواقع التاريخي الفكري الاجتماعي السياسي والديني .

و نقل عن ابن رشيق قال: كتب محمد بن علي الطبني حين عزم أبو عمران الفاسي على السفر إلى الحج إليه:

أقول و النفس حرى منك والهة مما تحاذره من فقد محياها
فإن تقم لم يرعني فقد مرتحل و إن ترد سفرا و دعتك الله
نفسي بما ترتضيه غير كارهة و حسبها أن ما أرضاك أرضاها

فأجابه أبو عمران رحمه الله بهذه الأبيات :

---

1) – القاضي عياض ، ترتيب المارك ، 101/6 .

2) – المصدر نفسه ، 105/7 .

حياك ربك من خل أخي ثقة　　　و صان نفسك بالتكريم مولاها
من كل غم و شان لا يوافقها　　　فهو العليم بما يديه مولاها
و لا أضاع لها الرحمان حرمتها　　　و قولها إن تسر و دعتك الله
فالله يجمعنا من بعد أوبتنا　　　ويؤتنا من وجوه البر أسناها [1]

هذا البيت يشير إلى أثر المراسلات الشعرية و المكاتبات التي كانت بين العلماء بالرغم من الجو الديني العام المزهد في الشعر ، يعني برغم تراجع أهمية الشعر و الشعراء عما كان عنه في الجاهلية وعما هو عليه في المشرق للاعتبارت التاريخية و الجغرافية إلى أن الشعر ظل ظاهرة معرفية مهمة يستخدمها حتى الفقهاء و المحدثين ، و يذكر كذلك أن ابن غانم أحد أشهر قضاة إفريقية كان يكاتب أبا يوسف القاضي [2].

و نجد في ترجمة في ترجمة أبي القاسم خلف بن أبي القاسم الأزدي : ... أن فقهاء القيروان أفتوا برفض كتبه و ترك قراءتها لتهمته لديهم ... و يقال إن الذي مكن تغييرهم عليه ، أنه وجد بخطه في ذكر بعض بني عبيد و أسبابهم ، يتمثل في تقريضهم بهذا البيت المشهور :

أولئك قوم إن بنو أحسنوا البنا　　　و إن وعدوا أوفوا و إن عقدوا شدوا [3]

هذه القصة تبين كيف تغير موقف الفقهاء بسبب الشعر وما تركه فيهم من أثر.

عند برية الرياضي كذلك من خلال كتاب تلقيح العقول نستنتج أنه يرى أن الشعر يقال ليتمثل به، يعني يصبح مثلا وحكمة وعظة، لذلك هو لا يهتم بالشعر وصاحبه أو إذا كان الشعر منحولا أو مسروقا أو مطبوعا أو مصنوعا وغير ذلك.

---

1) – القاضي عياض ، ترتيب المارك ، 252/251/7 .
2) – الرقيق القيرواني ، تاريخ إفريقية والمغرب ، ت المنجي الكعبي، الدار العربية للكتاب ، ط2 ، تونس ، 2005 ، ص272.
3) – القاضي عياض ، ترتيب المارك ، 257/258/7 .

ونجد عنده كذلك أن من وظيفة الشعر الإبلاغية للأغراض السياسية من خلال أن المؤلف كثيرا ما يعطف إثبات شعر لسياسيين أو مفكرين تفيد ما أرادوا، دليل ذلك كثرة الأشعار التي ينقلها لأمراء بني الأغلب.

- **الموقف من الشعر**:

اشتهر المغرب الإسلامي في بداية اندماجه في ثقافة الشرق بغلبة فنون غير الشعر كالحديث والفقه و غيره ، إذ أن حركة العلم و الثقافة ارتبطت أساسا بالعلوم الدينية فكان المغاربة يهاجرون إلى المشرق لأخذ علوم الدين في الدرجة الأولى و على رأسها الحديث و الفقه ، و اللغة والأدب باعتبارهما علوما أساسية لفهم هذه الفنون الدينية ، فكانت أشعارهم متأثرة بذلك ، وانتقاداتهم كذلك، بما يمكن أن نعتبره نقدا دينيا ، ظهر مع انتشار الإسلام ، فبدأت منذ الوهلة الأولى تظهر بوادر منهج نقدي قائم على أساس أخلاقي غرضه خدمة الدين و المجتمع أولا ثم الأدب في الدرجة الثانية، ولكن الواقع أن هذه القضية لم يختص بها المغرب فقط إذ أنّ الجيل الأول من نقاد العصور الإسلامية كانوا في معظمهم علماء بالدين و أصوله وفروعه ، فراعوْا أثناء قراءتهم للتراث العربي القيم الدينية الإسلامية ، مع بعض التساهل مع الشعراء وتجلّى ذلك في شعراء الجاهلية ، لاعتبارات موضوعية ومعرفية تتعلق بالتدوين و الاستشهاد في تفسير القرآن الكريم ، إضافة إلى الاعتبارات الذوقية والجمالية، لكن الثابت أن نقّاد العصور الإسلامية أكّدوا أنّ الشعر الذي يوحّد و لا يشتّت ويدعوا إلى الخلق الكريم و يشحذ الهمم وينعش الخواطر، و يحوي المعاني الجليلة والألفاظ المبتكرة هو الشعر القمين بالرواية و الاعتبار [1].

لكن بعد عصر صدر الإسلام تراجع المد الديني في توجيه الأدب و النقد ، بسبب توسع الدولة و اختلاط الأجناس البشرية المكونة لمجتمعها ، يقول عبد العزيز جسوس : "إن الحقبة الإسلامية الفاصلة بين مرحلتين ... قد عرفت تميزا في نقداتها عن العصر الجاهلي و عن الحقبة

---

1) – عبد العزيز قلقيله ، النقد الأدبي القديم في المغرب العربي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط2، 1988م ، ص 377 ، ومحمد مرتاض ، النقد الأدبي القديم في المغرب العربي ، إتحاد كتاب العرب ، دمشق ، ص 172 .

الأموية من القرن الأول ، بظهور نواة لتصور إسلامي جديد عن الشعر و نقده ينهض على المزاوجة بين معايير العقيدة و المجتمع و الفنّ لتوجيه الشعر و نقده ، بحكم المنعطف الذي عرفه المجتمع العربي في هذه الحقبة ، و لكن هذه النواة قد انطفأت شعلتها بالانتقال إلى الحقبة الأموية حيث اختفى معيار العقيدة بأخلاقها و قيمها من تقويم الشعر و تحديد الموقف من الشعراء و أصبحت المناداة صريحة بفصل الدين عن الشعر"[1].

و على العموم فإنّ الإسلام أولى للأدب و الشعر قيمة مهمة تليق بمكانته لدى العرب وتعكس تسامح الإسلام و تفتّحه و دعوته إلى الجمال و العلم الذي يدعوا إلى غرس المبادئ السامية كما قال عبد الكريم النهشلي، و نقل في ذلك قول عمر ﵁ : "الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أعلم منه" ، و قال علي ﵁ : "الشعر ميزان القوم ..." [2] .

لكن مع ذلك فإن بعض الأغراض الشعرية لم تعرف ذلك الرواج كما هو الشأن في المشرق وذلك لأسباب دينية اتفق فيها العالم و السياسي ، إذ يقول ابن رشيق في حق النهشلي أنّه لم يهج أحدا قط [3]، في إشارة إلى موقفه من الشعر رغم أنه شاعر و لغوي كبير ، ثم إن الهجاء مثلا قد يرتبط بأسباب سياسية فلا يصير مكروها عند أصحابه على الأقل ، كأن يهجو شاعر طائفة سياسية مخالفة مثلا ، كما نجده عند بكر بن حماد الذي اشتهر بقول الشعر و ميله إلى الزهد و التأمل في هموم الحياة ، لكنه رد في يوم من الأيام على دعبل الخزاعي لما هجا الخليفة العباسي المعتصم قائلا:

أيهجو أمير المؤمنين و رهطه ... و يمشي على الأرض العريضة دعبل
أما و الذي أرسى ثبيرا مكانه ... لقد كادت الدنيا لذاك تزلزل
و لكن أمير المؤمنين بفضله ... يهم فيعفو أو يقول فيقبل
و عاتبني فيه حبيب و قال لي ... لسانك محذور و سمك يقتل

1) – عبد العزيز جسوس ، نقد الشعر في الطور الشفوي ، مطبعة تينمل ، مراكش ، المغرب ، 1995م، ص 11،10 .
2) – عبد الكريم النهشلي، اختيار الممتع ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا ، تونس 1978م ، ص 32 .
3) – النهشلي ، مقدمة الممتع ص 4 .

و إني و إن صرفت في الشعر منطقي لأنصف فيمـــا قلت و أعـــدل [1]

و يروى كذلك عن أبي عثمان الحداد[2] الذي كان عالم كلام اشتهر بمناقشاته للفرق المخالفة أبياتا في ترك الشعر و طلب الرزق –و كان أولا يعانيه ثم تركه–:

رغبت بنفسي عـن دنى المكاسب و ما أعجزتني حيلـة عـن مطالبـي
أبت همتي إلا سـموا إلى العـلا و إن طأطـأتني حـادثات النـوائب
فإن لم أنل دنيا فقد نلت همة تنـزه نفسـي عـن دنى المعـايب
تراني و في نفسـي هـموم كثيرة ضحوكا لأخفي عن جليس وصاحب[3]

و أنشدله علي بن أبي سعيد البصري في كتابه (المغرب) في المعنى :

عـد يا عـادلي عـن التثريب كـم كربـة أدت إلى محبـوب
ما ارتكاسي في السعي يبسط رزقا لا و لا الخفض قاطعي عن نصيبي
غير أن القعود من سبب العـدم و طـي البـلاد شـأن الأريب

و كتب سعيد إلى حماس القاضي:

تعـودت مس الضر حتى ألفتـه و أسلمنـي مس الليالي إلى الصبـر
ووطن قلبي للأذى الأنس بالأذى و قد كنت أحيانا يضيق به صـدري
و صيرني من النـاس راجيـا لكثرة صنع الله من حيث لا أدري[4]

1) – ابن عذارى ، البيان المغرب ، 154/1 ، يحيى بوعزيز ، الموجز في تاريخ الجزائر ، ديوان المطبوعات الجامعية ، ط2، 1995 ، 1/ 122 .

2)- ابن الحداد (219 – 302 هـ): سعيد بن محمد بن صبيح بن الحداد الغسّاني القيرواني، أبو عثمان، من علماء اللغة والفقه، والكلام، والجدل، مع قوة العارضة، وحضور البديهة، صحب الإمام سحنون، وكان يطربه جدا، ويذهب في الثناء عليه كل مذهب، وسمع من غيره من شيوخ القيروان كأبي سنان يزيد بن سنان الأزدي، ورحل إلى طرابلس فسمع الحديث من أبي الحسن الكوفي، وسمع منه ابنه عبد الله، وأبو العرب التميمي وأحمد بن موسى التمار، من مؤلفاته: كتاب الاستواء، كتاب الاستيعاب، كتاب الامالي، توضيح المشكل في القرآن، كتاب المقالات، رد على أهل المذاهب أجمعين، معاني الأخبار. ينظر: محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، 105/2 .

3)- القاضي عياض ، ترتيب المارك ، 90/5 .

4) – المصدر نفسه ، 90/5 .

و ينقل القاضي في ترتيب المدارك أن بعض العلماء كان يعمل على إخفاء أشعاره بسبب أنه شعر، يراه اللغو من القول لشدة تورعه وزهده حيث يقول في أبي عبد الله محمد بن قعنب : كان فقيها معروف المكان في المالكية بافريقية ، و كان مع ذلك حليما أديبا حسن المعاشرة ، مائلا إلى الشعر ، له أشعار كثيرة ، و ستر في آخر عمره أشعاره التي صنع في حداثته ففما أنشدله منها :

أستغفر الله في قـــولي و ما كتبت ... كفي و أملاه قلب هائم قلق
لا أرتضي الشعر لكن فرقة فجعت ... و العيش يدني حبيبا ثم نفترق [1].

قال في معرض ترجمته لأحد الفقهاء وهو حبيب ابن الربيع :

قال بعض أصحابه: طال بنا المجلس يوما حتى قلق بعض الحاضرين، فلما كمل الجزء أنشد حبيب[2]:

الصبر جارك فاستعن بجواره ... عند الحوادث و المهم النازل
فلتحمدن جـــواره متعجـــلا ... و لتعطين ثابـــه في الآجـــل

هذه الأبيات تذل على أنه بالرغم من أن بعض الفقهاء كانوا يرون ترك الشعر و ستره إلا أن البعض الآخر لم يكن يرى حرجا في ذلك ، إشارة إلى الاختلاف الفكري لدى العلماء في تلك الفترة.

و يقول في ترجمة عبد الله بن سعيد اللجام أبو محمد :"كان يقول الشعر في معاني الزهد"[3] حيث أن الكثير من الشعراء في تلك الفترة كانوا لا يرون الشعر إلا في أغراض الحكمة و الزهد على الأكثر.

من أحسن شعره و أمر أن يكتب على جوانب سرير نومه ليكثر النظر إليه ، قوله :

---

1) – القاضي عياض ، ترتيب المارك ، 123/5 .

2) – ابن فرحون إبراهيم بن علي بن محمد ، برهان الدين اليعمري (799هـ)، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تح: الدكتور محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث للطبع والنشر، القاهرة، 337/1.

3) – القاضي عياض ، ترتيب المارك ، 24/6 .

لا يغرنك يـــا محمد ليل بت فيـــه علـــى فراش وثير
ناعم البال مطمئنا فلا بـ ـد من النعش بعد هذا السرير

بل أكثر من ذلك أن له أشعارا أخرى حيث يقول عن تقلبه في السفارات :

ألفتني الهموم مذ كنت طفلا لم ترعني و قد علاني القتير(1)

و كما أشرنا سابقا فإن هذا ليس بسبب رؤية سلبية تجاه الشعر أو أنه محكوم بوجهة نظر دينية و إنما بسبب انشغالهم بما هو أهم منه في حياتهم و هو الدين الذي هو أساسا وضعية فكرية يعيشونها حديثا ، و مثال ذلك ما نجده في أشعار محمد بن أحمد اللؤلؤي :

إني و إن كنت القريض أقـــوله يوما فليس على القريض معولي
علمي الكتاب و سنة مأثـــورة و تفننـــي في أضرب و تحـــولي
فإذا ذكرت ذوي العلوم وجدتني في السبق قدام الرعيل الأول(2)

و مما يروى في هذا الصدد كذلك مما نجده عن القاضي عياض في ترتيب المدارك من قصص عن أبي الحسن القابسي الذي كان من أهم الأسماء العلمية و الفقهية الوازنة في المغرب حين سمع شعرا لأبي إسحاق الجنبياني يقول فيها:

مالي تلاد و لا استظرفت من نشب و ما أؤمـــل غير الله من أحـــد
أن القنـــوع بـــحمـد الله يمنعنـــي من التعـــرض للمنانـــة النكـــد
إني لأكـــرم وجهـــي أن أعرضــــه عند السؤال لغير الواحد الصمد

فقال أبو الحسن القابسي مثل الجنبياني يقول هذا و يصدق فيه (3) .

و نقل القاضي عياض كذلك عن ابن التبّان: حكما نقديا واضحا يلخص رؤية المغاربة عموما تجاه الشعر ، و أنه مرتبط بدرجات اهتماماتهم مع الثقافة عموما ، و أن الأولوية لتلك التي بها يصلح شأن الإنسان في الدنيا و الآخرة ، و هذا بعيدا عن كون أن

---

1)- القاضي عياض ، ترتيب المارك ، 101/6 .
2)- المصدر نفسه ، 114/6 .
3)- المصدر نفسه ، 229/6 .

الشعر و الأدب حالة شعورية لا يمكن للنفس كبحها أو أنه تعبير عن الخوالج قد يجيش مع الظروف حتى لدى أولئك الذين لا يرون الشعر ، و هذا ما يومئ إليه قول ابن التبان لمـّا يقول: "خذ من النحو و دع و خذ من الشعر و أقلّ و خذ من العلم و أكثر ، فما أكثر أحد من النحو إلا حمقه ، و لا من الشعر إلا أرذله ، و لا من العلم إلا شرّفه "(1) و هو نفسه كان ينشد شعرا كثيرا إذ ينقل عنه القاضي عياض أنه كثيرا ما ينشدهم :

قد غاب عنك ثقيل كل قبيلـة ممن يشوب حديثـه بمـراء
فالآن طاب لك الحديث و إنما طيب الحديث بخفة الجلساء

و قال عنه القاضي كذلك أنّه كان –رحمه الله- يسمع التعبير و يرق لهذه المعاني ، سأله ابن الخراط يوما و قد وجد عنده معبرا، فقال له : أليس التعبير بدعة ؟ قال: والاجتماع على إلقاء المسائل بدعة ، فبلغ كلامه السبائي ، فشق عليه، قال اللبيدي : قال ابن التبّان يوما : لا شيء أفضل من العلم ، قال الجبنياني ، العمل به أفضل ، فقال : صدق ، العلم إذا لم يعمل به صاحبه فهو وبال عليه، و إذا عمل به كان حجة له و نورا يوم القيامة (2).

و ينقل في ترجمة أبي بكر ابن عبد الله بن أبي زيد: ... لم يكن بالطائل المعرفة ، و له ولأخيه، خاطب ابن رشيق بقوله :

يا موضعي أملي على التحقيق و سميي الصديق و الفـاروق
ما زال رأييكما كرأي أبيكمـا يجري على التسديد و التوفيق
لكن أمت إليكما دون الـورى فسرقت أمن ما أكون فريقي(3)

1)- ابن فرحون ، الديباج المذهب ، 432/1.
2)- القاضي عياض ، ترتيب المدارك ، 257/256/6 .
3)- المصدر نفسه ، 272/7 .

إذ في خطاب ابن رشيق له و قبوله لذلك إشارة إلى أنه قبل الشعر و يستحسنه بالرغم مما يبدو عموما من موقف المغاربة من الشعر إضافة إلى أن أباه ابن أبي زيد القيرواني من أعظم و أهم من يمثل التيار الفقهي في المنطقة.

هذا بالرغم من أن الإمام مالك الذي يرى أغلب المغاربة رأيه نقلت عنه أقوال يصرح فيها بكراهته للشعر ، في مواقف معينة ، و ذلك نجده في كتاب المدونة الكبرى التي تعتبر عند المغاربة أهم مصدر للفقه المالكي ، خاصة و أن جامعها مغربي و هو الإمام سحنون ، لذلك اشتهرت بينهم وكانت العمدة ، حيث ينقل سحنون عن ابن القاسم في المدونة موقف الإمام مالك من الشعر في ثلاث مواضع و أحوال مختلفة :

الأول: متعلق بقراءة الشعر في الطواف، حيث يقول سحنون: "فهل كان يكره مالك الحديث في الطواف؟ قال –أي ابن القاسم-: كان يوسع في الأمر الخفيف من ذلك، قلت: فهل كان مالك يوسع في إنشاد الشعر في الطواف؟ قال: لا خير فيه وقد كان مالك يكره القراءة في الطواف، فكيف الشعر؟ وقال مالك: ليس من السنة القراءة في الطواف"[1]، أي أن الإمام مالك رحمه كان يكره إنشاد الشعر في الطواف باعتباره جنسا من الكلام عموما، إذ كان يرى كراهته جملة في الطواف.
الثاني: يتعلق بـ إجارة معلم الشعر وكتابته ، يقول سحنون: "أرأيت إن استأجره على أن يعلم ولده الشعر؟ قال: قال مالك: لا يعجبني هذا، قلت: أرأيت إن استأجرت كاتبا يكتب لي شعرا أو نوحا أومصحفا؟ قال: قال مالك: أما كتاب المصحف فلا بأس بذلك وأما الشعر والنوح فلم أسمعه من مالك ولا يعجبني؛ لأنه كره أن تباع كتب الفقه، فكتب الشعر أحرى أن يكرهها"[2]، في هذا الموضع كذلك يصرح الإمام مالك أنه لا يحب تعليم الأولاد الشعر و لا يحب كتابته ، لكن فيما يتعلق بالكتابة نفهم شيئا آخر ، و هو أنه لم يعجبه لكونه شعرا ، بل لأنه لم يكن يقبل كتابة العلم بصفة عامة سوى القرآن الكريم ، و هو موقف قديم متعلق بكتابة الحديث و ما سوى القرآن خشية أن يختلط به، و ليس رفضا لكتابة الشعر لأنه شعر فقط ، و هذا يفتح باب النقاش لإعادة فهم النصوص السابقة سنؤجله إلى ما بعد عرض الموضع الثالث .

1)- مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني (179هـ)، المدونة ، دار الكتب العلمية، ط1، 1994م، 426/1 .
2)- المصدر نفسه ، 431/3 .

الثالث : متعلق بـ إجارة دفاتر الشعر أو الغناء قلت: "أرأيت إن استأجرت دفاتري فيها نوح أو شعر وغناء يقرأ فيها؟ قال: لا يصلح هذا، قلت: لم؟ قال: لأن مالكا قال: لا يباع دفاتر فيها الفقه، وكره بيعها وما أشك أن مالكا إذا كره بيع كتب الفقه، إنه لبيع كتب الشعر والغناء والنوح أكره، فلما كره مالك بيع هذه الكتب كانت الإجارة فيها على أن يقرأ فيها غير جائزة؛ لأن ما لا يجوز بيعه عند مالك فلا تجوز الإجارة فيه"[1] ، و هذا الموقف كما السابق نجد فيه أن الإمام مالك يرفض إجارة كتب الشعر و الغناء لأنه يرفض جنس الكتابة من أصلها من سوى القرآن .

و الحاصل أن هذه النقول كلها تثبت كره الإمام مالك للشعر لاعتبارات متعددة ، بعضها ديني بحت و بعضها منهجي يتعلق باختلاط المكتوب بالقرآن و غير ذلك ، لكن ليس في هذه النصوص ما يدل على الرفض أو التحريم ، خاصة أن قول الإمام مالك في المدونة أكرهه أو لا يعجبني يعبر عن موقفه الشخصي كما ينقل بعض علماء الأصول ، لكن كرهه للشعر واضح من النصوص وانتقل هذا الموقف منه إلى عموم عقلية بلاد المغرب ، و نستشعر ذلك من مثل النقول السابقة، لكن نجد معه بعض ممن قبل الشعر و قاله بالرغم من نزعته الفقهية ، ما يؤكد لنا أن موقف الإمام مالك السابق موقف شخصي و مرتبط بالملابسات المنهجية السابقة .

المبحث الرابع : بين الشعر و النثر

في هذا المبحث نود الإشارة إلى كل من واقع الشعر و النثر في بيئة المغرب حسبما توفر بين أيدينا من نصوص في هذا المجال ، و كيف نظر المغاربة إلى النثر بجانب الشعر أو العكس من كافة الجوانب، سواء اللغة أو الأسلوب أو الأثر و غير ذلك ، حيث أن أهم ما يتبادر إلى الذهن لما نتحدث عن النثر بجانب الشعر هو المفاضلة بين الفنين و هي القضية التي تعرض لها النقاد العرب عموما ، خاصة في القرن الرابع الهجري حيث نجد المرزوقي (421هـ)[2] يفضل بشكل صريح النثر على الشعر ناظرا إلى الجوانب المعرفية الواقعية و التاريخية ، أما الحاتمي (388هـ)[3] مثلا و ابن رشيق (466هـ)[4] فيرون تفضيل الشعر و تقديمه ناظرين إلى الجوانب الفنية و الجمالية و البلاغية، فاختلاف الموقف بسبب اختلاف الرؤية ، رغم أن ابن رشيق من خلال كتاب الأنموذج يبدي احتفاء بالغا بطبقة

1)- مالك بن أنس ، المدونة ، 432/3 .

2) - المرزوقي ، شرح ديوان الحماسة ، 20 .

3)- الحاتمي ، حلية المحاضرة ، تح: هلال ناجي ، بغداد 1978م ، 21/1-27

4) - أبو على الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (463 هـ)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط5، 1401 هـ - 1981 م 19/1.

الكتاب واصفا إياهم بأوصاف توحي بميله لاختصاصهم ، و هو ما نجده بشكل واضح عند ابن بسام في الذخيرة إذ يصرح بشكل مباشر بأنّه بدأ بذكر الكتاب لأنهم صدور في أهل الآداب[1] ، فهم عنده أرفع شأنا من الشعراء، و يؤكد ذلك بما لا يدع مجالا للشك بأن تفضيله نابع من أسباب معرفية وليست سياسية أو اجتماعية أو غير ذلك إذ يقول في ترجمة أعيان قرطبة مثلا : "أول ما ذكرت من أهل قرطبة من كان بها من ملوك قريش ، في المدة المؤرخة من أهل الشأن ، ثم من تعلق بسلطانهم ، أو من دخل في شيء من شأنهم ، وتلوتهم بالكتاب و الوزراء ثم بأعيان الشعراء "[2] فحتى في عطفه أعيان المترجم لهم يعطف الشعراء بالأداة التي تفيد التراخي في العطف ، و لما يترجم لأولئك الذين يجمعون بين النثر و الشعر فإنه يبدأ بذكر شيء من نثرهم ، بل قال في أحد المواضع عن الشعر أن: "أكثره خدعة محتال ، و خلعة مختال ، حده تمويه و هزله تدليه و تضليل"[3] ، و هو حكم قاس في حق الشعر لم يقله حتى أولئك الفقهاء و المحدثين الأوائل فضلا عن المتأخرين.

و شبيه بموقف ابن بسام نجد موقف الكلاعي الذي يصرح كذلك أن النثر أرفع منزلة من الشعر ، لأن النثر أصل ، و النظم فرع منه ، كما أن النظم يحمل على الكذب و اللغو في الدين و قد يكون سببا لفساد العقيدة و أن الرسول –صلى الله عليه و سلم حذر منه[4]– لما قال : "لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا خير له من أن يمتلئ شعرا" [5]، و أنه سبب لمساوئ كثيرة كالتكسّب منه ، و أنّه مترنم به كذلك و الترنّم من باب الغناء و الغناء رقية الزنا[6] –كما

1)- ابن بسام ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، 32/1 .

2) - المصدر نفسه ، 32/1 .

3) - المصدر نفسه ، 18/1 .

4) - الكلاعي محمد بن عبد الغفور (ذو الوزارتين)، إحكام صنعة الكلام ، دار الثقافة ، بيروت لبنان ، 1966م، ص 36، الشريف علاونه ، النقد الأدبي في الأندلس –عصر المرابطين و الموحدين–، وزارة الثقافة ، الأردن ، 2005م، ص 50 .

5)- رواه البخاري في صحيحه ، باب ما يكره أن يكون الغالب على الانسان ، 36/8 ، و رواه مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري ، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (261هـ) ، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي/ بيروت، كتاب الشعر ، 1769/4 ، و رواه ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجة اسم أبيه يزيد (273هـ)، سنن ابن ماجه، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية ، باب ما كره من الشعر ، 1237/2 ، و رواه أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (275هـ)، سنن أبي داود ، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا/بيروت، باب ما جاء في الشعر ، 302/4.

6) - ابن الأثير ، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين (630هـ)، الكامل في التاريخ ، تح: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت/لبنان، ط1،

يقول– و الجامع بين رأي ابن بسام و الكلاعي ، هو النظر إلى الشعر من جهة دينية أخلاقية بحثة.

و بين هؤلاء الأندلسيين نجد علما آخر توسط هذه المواقف و هو محمد بن يوسف السرقسطي ، إذ لما نقرأ له نجده و كأنه نصب نفسه حكما للفصل بين أنصار الشعر ومؤيدي النثر ، إذ دعى إلى ضرورة تجنب المفاضلة بين الشعر و النثر على سبيل العموم ما دام كل منهما فن قولي ، له وظيفة و غاية ، و تجري عليه معايير القبح و الجمال و الإبداع بقوله:"فلا تفضلا قائلا على قائل ، إلا بفضل فاضل ، و طول طائل ، و الإحسان ضروب ، والشمس طلوع وغروب ... و خذا في كل الأحوال بالأعدل الأقسط ، و ميلا إلى السهل والأبسط ، و لا تعدلا عن السواء الأوسط"[(1)] ، و هي دعوة صريحة إلى أنّ المفاضلة بين النثر والشعر من فضل الكلام باعتبار أن الجمالية نسبية و أن لكل فكر قوله اللائق به شعرا أم نثرا .

و الواقع لدى نقاد المغرب الأوائل أنهم لم يناقشوا هذه المسألة بهذه الحدة، رغم أن أسبابها كانت موجودة، و هي وجود طبقة من الشعراء و وجود طبقات أخرى من الفقهاء و العلماء والكتّاب، الذين كانت صناعتهم الأولى هي الكتابة، إلا أن مناقشتهم أو إشارتهم لهذه القضية كانت هادئة لا تنبئ عن صراع أدبي واضح، إذ نجد فيهم من تناول هذه القضية بشكل واضح علمان، الأول برية الرياضي ورؤيته تجاه هذه القضية لغوية بحتة ، و النهشلي و رؤيته أدبية جمالية.

الاتجاه الأول: الرؤية اللغوية الأسلوبية

برية الرياضي في رسالته العذراء أشار بما يشبه المقارنة بين الشعر و النثر إلى الفروقات اللغوية و الأسلوبية بين لغة الشعر و لغة النثر ، و أنهما مختلفتان ، لطبيعة و أغراض كل فنّ ، و أن بعض ما يجوز في الأول لا يجوز في الثاني، كالضرورات الشعرية و الخروج عن بعض أساليب العربية و الانحصار في الوزن ، في الوقت الذي تكون فيه الكتابة النثرية أكثر تحررا باعتبار أنها لا تتقيد بالأوزان ، ويكون التعبير فيها سهلا مباشر ، إذ يقول برية: "لا يجوز في الرسائل ما يجوز في الشعر ، لأن الشعر موضع

1417هـ / 1997م ، 307/4، الزمخشري ، محمود جار الله (583هـ)، ربيع الأبرار ونصوص الأخيار، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط1، 1412 هـ، 118/3 .

1) – محمد بن يوسف السرقسطي، المقامات اللزومية ، عالم الكتب الحديث ، الأردن ، 2006م، 558 . الشريف علاونه، النقد الأدبي في الأندلس، ص 50.

اضطرار و الشعر مقصور مقيد بالوزن والقوافي ، فلذلك أجازوا لهم صرف مالا ينصرف من الأسماء ، و حذف مالا يحذف منها ، فاغتفروا فيه الإغراب و سوء النظم ، و التقديم و التأخير ، و الإطمار في موضع الإظهار ، وذلك كله غير مستساغ في الرسائل ، و لا جائز في البلاغات"(1) .

فالرياضي يحاول التفريق بين النثر و الشعر تفريقا علميا و ليس مفاضلة جمالية ، فهو يرى أن النثر له وظيفة مباشرة و هي الإبلاغ و الإفهام و البيان ، لذلك دعى في مواضع إلى الابتعاد عن محاكاة أساليب القرآن لأن جميع المتلقين قد لا يستوعبون رسالة المتكلم الواحد ، بينما الشعر طبيعته الإغراب و الإطراب .

و يسهب برية في هذا الصدد في تبيان الأساليب التي لا تصلح في كتابة الرسائل كتصغير الاسم موضع التعظيم، حيث يقول أنّه وإن كان ذلك جائزا على مثل قولهم : "دويهية وجديل وعذيق و لا يجوز كذلك في الرسائل كلّمت إياك ، و أعني إياك ، و إساءة النظم في التأليف في الشعر كثير و تكون الكلمة بشعة حتى إذا وضعت موضعها ، و قرنت مع أخواتها، حسن حالها وراقت ، كقول الحسن بن هانئ :

"ذو خصر أفلت من كد القبل"(2) .

و غيرها كثير من الأساليب التي عدد أنها تجوز في الكتابة و لا تجوز في الشعر أو العكس، وأن هذا اختيار يتعلق بكل باث و بيئته و سياقه لذلك يقول في رسالته: "فامتثل هذه الرسوم والمذاهب، واجر على آدابهم ، فلكل رسوم امتثلوها ، و تحفظ في صدور كتبك و فصولها ، وافتتاحها و خاتمتها ، و ضع كل معنى في موضع يليق به"(3).

و قريب من موقفه نجد القزاز القيرواني ، الذي و إن لم يذكر ذلك في معرض المفاضلة أوالمقارنة إلا أنه أشار إلى الفرق بين لغة و أساليب كل فنّ في معرض حديثه عن الضرورات الشعرية في كتابه ما يجوز للشاعر في الضرورة ، إذ يشير إلى ضرورة علم باحث الأدب بالضرورات الشعرية حتى يقف على الفرق بين الشعر و النثر من حيث التعامل مع المعاني و الأساليب ، و فهم كل قائل في سياقه الشاعر أو الناثر ، و عدم مؤاخذة كل صاحب لغة بلغته بالنظر إلى لغة الآخر، إذ لكل قائل لغته حسب فنه ، خاصة الشاعر الذي تجبره ظروف الشعر على التجوز في اللغة عن الأساليب

1) – برية الرياضي ، الرسالة العذراء ، ص 46-48.

2) – المصدر نفسه ، ص 46-48.

3) – المصدر نفسه ، ص 44.

المعهودة والمألوفة إذ يقول: "هذا كتاب أذكر فيه ما يجوز للشاعر عند الضرورة ، من الزيادة والنقصان، والاتساع في سائر المعاني ، من التقديم و التأخير ، و القلب و الإبدال ، و ما يتصل بذلك من الحجج عليه ، و تبين ما يمر من معانيه فأرده إلى أصوله ، و أقيسه على نظائره ..... وذلك أن كثيرا ممن يطلب الأدب و أخذ نفسه بدراسة الكتب، إذا مر به بيت لشاعر من أهل عصره أو لطالب من نظرائه، فيه تقديم أو تأخير، أو زيادة أو نقصان، أو تغير حركة عما حفظ من الأصول المؤلفة له في الكتب أخذ في التشنيع عليه و الطعن على علمه ...."[1] .

يعني أن القزاز بالرغم من أنه لغوي و نحوي العهد به أن يكون منضبطا بقواعد اللغة و وفيا للنسق اللغوي الثابت بما يوحي انتصارا للنثر ، إلا أنه يعتبر أن لكل فن لغته و أساليبه و لا مجال للتنقيص من فن مقابل فن ، و خص بذلك الشعر باعتبار أن الخروج عن النسق اللغوي يعتريه ، وبالرغم من ذلك فإن فلسفته تقبل ذلك ، و إن كانت غير مقبولة في عموم الكتابة ، فلا مجال للمفاضلة كذلك بين الفنين .

الإتجاه الثاني : الرؤية الجمالية

الموقف الثاني الذي نجده في هذا الصدد هو موقف النهشلي[2] الذي يفاضل بين الشعر بالاعتبارات الجمالية حيث أن الشعر أكثر جمالية و بلاغة ، لأن العرب أوجدوا هذا الفن أساسا للتعبير عن خوالج نفوسهم ، و للتعبير عن المعاني التي تعتري أحوالهم ، و يشير مع ذلك إلى أولية النثر و أصالته من خلال قوله التالي: "لما رأت العرب المنثور يند عليهم ويتفلت من أيديهم ، و لم يكن لهم كتاب يتضمن أفعالهم تدبروا الأوزان و الأعاريض ، فأخرجوا الكلام أحسن مخرج بأساليب الغناء فجاءهم مستويا ، و رأوه باقيا على مرّ الأيام ، فألفوا ذلك و سموه شعرا "[3]، فتأخر الشعر حسبه تطورا للاستعمال اللغوي عند العرب في طرق التعبير ، فالشعر حسبه بطبيعته الغنائية يساعدهم على حفظه ووعيه ، أما إشارته إلى فضل الشعر على النثر من الناحية الجمالية في قوله: "الشعر أبلغ البيانين ، و أطول اللسانين، وأدب العرب المأثور ، و ديوان علمها المشهور"[4]، لكن الموقف يوحي ببعض التعارض مع

1) – القزاز ، ما يجوز للشاعر في الضرورة ، 99 .

2)– مغراوي فطمة، ألسنة النص الشعري في النقد المغاربي القديم، جامعة وهران ،2012 ، ص 85 .

3) – النهشلي ، الممتع ، ص 19 .

4) – المصدر نفسه ، ص 19،

موقف برية الذي يرى أن الكتابة أبين في التعبير و ألسن في الوصول إلى ذهن السامع ، إلا إذا كان يقصد التأثير النفسي فإنه يكون كذلك .

لكن النهشلي كما برية الرياضي يفتح المجال للحديث كذلك عن الاختلاف بين الشعر و النثر ، إذ لا تعتبر فيه المفاضلة أمرا منطقيا باعتبار أن كل واحد فيهما له ما يميزه عن الآخر من الناحية الأسلوبية و اللغوية ، و ما يتيحه الأول كوعاء للأفكار و الخوالج والكلمات قد لا يتيحه الآخر و العكس ، كبعض الأغراض في الشعر كالمدح أو المراسلة المباشرة في النثر، يقول النهشلي: "من عجيب الشعر أن مديح النفس و الثناء عليها قبيح على قائله ، وزار عليه إلا في الشعر ، و قد اغتفروا الضرورة في الشعر ، و لم يغتفروها في غيره، رغبة في تخليد أخبارهم، و كانوا لا يكتبون فجعلوا روايته بمقام الكتاب" (1).

يعني أن طبيعة و أسلوب كل فن تختلف كلية عن الآخر ، و اللغة و المحتوى كذلك ، لدرجة أن ما يعتبر فنا بليغا وراقيا في أحدهما يعتبر منقصة و هبوطا في الآخر ، فلا مجال للمقارنة من حيث اللغة أو من حيث المعاني .

و أشار كذلك إلى الفرق بين الشعر و النثر فيما يتعلق باللغة و ما يتجوز فيها في مقابل النثر ، مما يجعل الشعر مختلفا عن النثر في لغته و أغراضه ، و يجعل النثر كذلك بسبب لغته يختلف عن الشعر في أهدافه .

– أقسام الشعر و أقسام النثر

دأب علماء النقد و الأدب على تقسيم الشعر إلى أقسام مختلفة باعتبارات مختلفة بين كل ناقد و آخر ، قد تكون هذه الاختبارات فنية غالبا أو أخلاقية أو نفسية أو اجتماعية أو تاريخية أو غير ذلك، لذلك نجد في هذا الصدد عدة تقسيمات بسبب هذه الاعتبارات ، إذ نجد من أوائل من وضع هذه التقسيمات أبو تمام الشاعر الذي رتب كتابه الحماسة في عشرة أبواب: الحماسة ، المراثي ، الأدب ، النسيب ، الهجاء ، الأضياف ، الصفات ، السير و النعاس ، الملح و مذمة النساء(2) ، و من أشهر من وضع التقسيمات كذلك التي سار في فلكها النقاد نجد

1) – النهشلي ، الممتع ، ص 24 .

2) – المرزوقي ، شرح ديوان الحماسة ص 19 .

قدامة بن جعفر الذي قسم الشعر حسب أغراضه و موضوعاته فجعلها في ستة أقسام هي : المدح والهجاء و المراثي و التشبيه و الوصف و النسيب (1)، و هي تقسيمات فنية العبرة فيها بمرمى الأشعار .

و قسم ابن قتيبة الشعر باعتبار لفظه و معناه إلى أربعة أقسام هي: قسم جاد لفظه ومعناه، و قسم جاد لفظه دون معناه ، و قسم جاد معناه دون لفظه ، و قسم تأخر لفظه و معناه"(2)، وقريبا منه كذلك تقسيم ابن طباطبا يرى أن الشعر باعتبار ألفاظه و معانيه فيذكر أنه : شعر صحيح المعنى رث الصياغة ، و شعر رديء النسج و شعر محكم النسج ... و غير ذلك (3).

و نجد كذلك قريبا من هذه الذهنية في التقسيم ابن خيرة المواعيني الذي مع نقله لفنون الشعر التي يجمعها المديح و الهجاء و الحكمة و اللهو فإنه ذكر مع ذلك تقسيما آخر يرى فيه أن الشعر ثلاثة أقسام هي : الشعر المتين الصلب و الشعر الغامض و الشعر الرطب السهل ، يعني أنه يراه من جهة الوضوح و الغموض و السهولة و الجزالة(4) .

و بعضهم يدخل الاعتبارات الزمنية في التقسيم فنجد الشعر عنده تاريخيا و فنيا جاهليا وإسلاميا و محدثا ، و لكل قسم من هذه الأقسام خصائصه الجمالة و الفنية (5).

و نجد عند ابن السراج الشنتريني تقسيما يبدو أخلاقيا أو قيميا لما يقول أن الشعر أربعة أنفعها الزهد و المواعظ و الأمثال الحسنة و أظرفها الأوصاف و التشبيهات ، و ما يتصرف فيه من المعاني و الآداب ، و شرها الهجاء و الملاحاة ، و رابعها ما يتكسب به "(6) و هذا التقسيم يجمع بين الأبعاد الأخلاقية و الفنية و الاجتماعية .

---

1)- قدامة بن جعفر ، نقد الشعر ، ص 8 .

2)-ابن قتيبة الشعر و الشعراء ، ص 63/1 .

3) - ابن طباطبا ، عيار الشعر ، ص 11 .

4) - الشريف علاونة ، النقد الأدبي في الأندلس ص 61 .

5) - المصدر نفسه ص 60 .

6) - إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي في الأندلس ص 443 .

و من أطرف التقسيمات التي يمكن أن نجدها تقسيم ابن سعيد الأندلسي لأقسام الكلام بصفة عامة شعرا كان أم نثرا و قلة من فعل ذلك ، حيث يرى أنه خمسة أضرب : المرقص والمطرب و المقبول و المسموع و المتروك ، فالمرقص حسبه ما كان مخترعا أو مولدا ، يكاد يلحق بطبقة الاختراع ، كقول امرئ القيس :

سموت إليها بعدما نام أهلها   سمو حباب الماء حالا على حال

و المطرب ما نقص فيه الغوص عن درجة الاختراع إلا أن فيه مسحة الابتداع ... و المقبول ما كان عليه طلاوة مما لا يكون فيه غوص على تشبيه و تمثيل ... و المسموع ما عليه أكثر الشعراء مما به القافية و الوزن دون أن يمجه الطبع و يستثقله السمع و المتروك ما كان كلا على السمع و الطبع [1]، و هو تقسيم غريب يحتاج الكثير من التحليل إذ كيف يمكن الجمع بين الشعر و النثر خاصة فيما يتعلق بالمرقص و المطرب و هي من خصائص الشعر، لكن المؤكد من خلال المصطلحات التي يستخدمها أنه يقسم الشعر باعتبار تأثيره في نفسية المتلقي.

و ذكر حازم القرطاجني في سبيل حديثه عن أقسام الشعر اعتبارات كثيرة نجد فيها الأسس النفسية و المنافع و المضار و اختلاف أنحاء التخاطب و غيرها ، إذ يقول في هذا الصدد: "الارتياح للأمر السار إذا كان صادرا عن قاصد لذلك أرضى فحرك إلى المدح و الارتماض للأمر الضار إذا كان صادرا عن قاصد لذلك أغضب فحرك إلى الذم ... و إذا كان الارتياح لسار مستقبل فهو رجاء ، و كان الارتماض لضار مستقبل كانت تلك رهبة ، و كان الارتماض لانقطاع أمل في شيء كان يؤمل ، فإن نحي في ذلك منحى التصبر و التجمل سمي تأسيا أو تسليا و إن نحي به منحى الجزع و الاكتراث سمي تأسفا أو تندما .... فقد تبين أن أغراض الشعر أجناس وأنواع ، فأما الأجناس الأول فالارتياح و الاكتراث و ما تركب منهما ... والأنواع التي تحت هذه الأجناس ، هي الاستغراب و الاعتبار و الرضى و الغضب و النسيب و الرثاء ..." [2]، والحقيقة أن حازم بهذا البسط أغرب و أطنب ، و تحليل هذا الكلام يحتاج صفحات ذات العدد لأنه جمع

1) - ابن سعيد الأندلسي ، المرقصات و المطربات ، دار حمد و محيو ، 1973م ، ص 7 .
2) - حازم القرطاجني ، منهاج البلغاء ص 337 .

اعتبارات كثيرة الكثير منها أخلاقي و قيمي ، و قريب من هذا التقسيم عند حازم نفسه نجد تقسيما آخر بما يشبه التلخيص إذ يرى أن الشعر نوعين متمايززين الشعر الجدي و الهزلي(1) .

و قريب من رؤية حازم التي ترى بعين القيمة و الإخلاص نجد ابن حزم بعقليته الدينية الذي يرى أن الشعر ما كان فيه الحكم و الخير مع الابتعاد عن أضرب الغزل و ما ينزل منزلته و شعر التصعلك و التغرب و الهجاء (2).

بالعودة إلى نقاد المغرب نجد أهم شخصية تناولت هذه المسألة بشيء من الخصوصية عبد الكريم النهشلي ، الذي إضافة إلى التقسيم الشائع المتعلّق بأغراض الشعر يورد تقسيما حسب جودة الشعر ، لكن معيار الجودة غير واضح لديه إن كان مرتبطا بالجوانب القيمية و الأخلاقية أم بالجوانب اللغوية ، حيث ينقل عنه ابن رشيق قوله أن الشعر يجمعه أصناف أربعة : "المديح والهجاء و الحكمة و اللهو ثم يتفرع من كل صنف من ذلك فنون ، فيكون من المديح المراثي والافتخار و الشكر و يكون من الهجاء الذم و العتاب و الاستبطاء ، و يكون من الحكمة الأمثال و التزهيد و المواعظ ، و يكون من اللهو الغزل و الطرد و صفة الخمر و المخمور"(3).

إلى جانب ذلك اشتهر عن النهشلي تقسيم آخر برؤية فنية مؤكد أن الجوانب الأخلاقية حاضرة فيها باعتبار عقلية النهشلي التي تميل نحو تحصيل المنفعة و الفضيلة من الشعر و البعد عن سفاسف الأمور و مبتذلها ، إذ يقول في الممتع نقلا عن أحدهم: الشعر ثلاثة أصناف ، فشعر يكتب و يروى ، و شعر يسمع و لا يروى و شعر ينبذ و يرمى" ، فهذا الكلام يوحي أن رؤيته باعتبار الجودة لكن الجودة ليست باعتبار الطبع أو الصناعة بل باعتبار القيمة ، لأن الشعر الذي لا يرقى إلى لغة الشعر و معانيه فإنه لا يستحق صفة الشعر ، وليس كما قال ينبذ و يرمى ، فهو

---

1) - حازم القرطاجني ، منهاج البلغاء ص 337 .

2) - ابن حزم الأندلسي أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد القرطبي الظاهري (456هـ)، رسائل ابن حزم الأندلسي (رسالة في مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق والزهد في الرذائل) ، تح: إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت/لبنان، ط1، 1980م، 330/1 .

3) - ابن رشيق، العمدة ، 121/1.

شعر معتبر محفوظ و مقيد ، لكنه في نظر النهشلي لا يستحق الرواية و الحفظ بل حقه النبذ والإهمال لنزوله في القيمية و الفضيلة ، و الشأن نفسه بالنسبة للشعر الذي ذكره في المرتبة الثانية و هو الذي يستحق السمع، كأن كانت أهميته معرفية أو لغوية أو تاريخية تستأهل حفظه أما اعتباره من الناحية القيمية فلا ، أما المرتبة الأولى عنده فهو ذلك الشعر الذي استكمل شروط اللغة والفضيلة.

و يؤكد رؤيته الأخلاقية تجاه الشعر من خلال ما نقله في هذا الصدد من أن أهمية الشعراء باعتبار القيمة الأخلاقية لأقوالهم، إيجابا أم سلبا إذ يسوق في ذلك قولا لأبي سفيان بن حرب لابن الزبعري : لو أسهبت في شعرك ، قال حسبك من الشعر غرة لائحة، و سبة فاضحة ، وأنشدني في نعت الشعر[1] :

الشعـراء فاعلمـــن أربعـــه   فشاعر يجري و لا يجرى معه
و شاعر ينشد وسط المعمعه   و شاعر لا يرتجـــى لمنفعـــه
وشاعر يقال خمر في دعه

ففي هي الأبيات إشارة إلى صنف الأشعار أو الشعراء الذين لا يعتبر بشعرهم لاعتبارات المنفعة في شعرهم كشعر الخمريات أو الفخر والحماسة أو غيرها بما لا يفيد حسب النهشلي منفعة.

إلى جانب النهشلي نجد برية الرياضي الذي يمثل جانب المنتصرين للنثر في هذا البحث و لو من الناحية الشكلية باعتبار أنّ أهم مدونة له اعتمدناها كانت حول فن منثور ، حيث يشير بشكل غير مباشر كذلك إلى أن الكتابة أضربا و مسالك مختلفة سنها الكتاب قديما و لا زالوا سائرين في فلكها و الذي يبدو من إشاراتها أنها مسالك لغوية خالصة حيث يقول "فامتثل هذه الرسوم والمذاهب، واجر على آدابهم ، فلكل رسوم امتثلوها ، و تحفظ في صدور كتبك و فصولها ، وافتتاحها وخاتمتها، و ضع كل معنى في موضع يليق به"[2]، و نفهم من هذا النص للرياضي كذلك رغم سلوكه خط الكتابة الديوانية الرسمية ، و يتضح ذلك أكثر من خلال اهتمامه الكبير بالمتلقي ، إلا أنه يبدي مرونة تجاه بقية الأضرب من الكتابة في إشارة إلى حسه العلمي و النقدي الكبير ، إضافة إلى الإشارة

1) – النهشلي ، الممتع ، ص 28 .

2) – برية الرياضي ، الرسالة العذراء ، ص 44.

إلى أن الكتابة الديوانية نفسها أضربا و أنواعا و مقامات باعتبار المتلقي كذلك ، فهو بذلك لم يخرج عن مبدإه و رؤيته العامة تجاه الكتابة بصفة عامة .

في ختام هذا الفصل و كخلاصة يمكننا القول أنّ الأدب في بلاد الغرب الإسلامي يحمل بعض الملامح الخاصة ، لكنها لا تختلف كثيرا عن عموم مفهوم الأدب عند العرب ، إذ تبدو في مفاهيم الأدب العامة عند المغاربة ملامح النضج و النزوع نحو العلمية خاصة لدى نقاد القرن الثالث و الرابع ، كالرياضي و النهشلي ، و يؤكد ذلك النزوع نحو الأخلاق و القيم و الدين في الرؤية تجاه الأدب ، إذ يتجلى ذلك خاصة في أغراض و فنون الشعر ، لكن الإشارة العامة و الدائمة هي الاهتمام بالوظيفية الإبلاغية و التواصلية للأدب ، و عدم إهمال الجوانب الفنية و الذوقية ، إذ أنها جزء مهم في عملية الإبلاغ و في إيصال الرسالة للمتلقي بالشكل المفيد كما يليق باللغة و مقامها وأهميتها في حياة و وجود الإنسان .

الفصل الثاني

قضايا النقد في المغرب ما بين الفتح ونهاية القرن الرابع الهجري.

- المبحث الأول : لغة الأدب
- المبحث الثاني: الانتخاب الأدبي
- المبحث الثالث: التأثير النفسي للشعر
- المبحث الرابع: أثر البيئة في الأدب .
- المبحث الخامس: فلسفة الطبقات .

الفصل الثاني: قضايا النقد في المغرب العربي ما بين الفتح ونهاية القرن الرابع الهجري.

بعد أن تعرضنا لبعض المفاهيم العامة للقضايا الأساسية للأدب و النقد نتحول للإشارة بشكل تفصيلي إلى بعض القضايا النقدية في بلاد الغرب الإسلامي ، بما يتعلق بالمفاهيم السالفة بشكل أساسي ، كالقضايا المتعلقة بلغة الأدب و الفن كاللفظ و المعنى ، والقديم و الجديد ، و الطبع و الصنعة و السرقات و الضرورات و غيرها ، لنقف على المنهج الذي اتبعه نقاد الغرب الأوائل ، وكيف كانت رؤيتهم تجاه هذه القضايا ، إضافة إلى بعض المسائل الأخرى المرتبطة باللغة و الأسلوب دائما ، مثل التأثير النفسي للأدب ، و أثر البيئة في الأدب ، بما سيجعلنا نقف على خصوصية التفكير النقدي في هذه المنطقة ، و بالطريقة التي تجعلنا نفهم من خلالها سر النحو الذي نحاه النقد في بلاد المغرب بعد ذلك مع ابن رشيق و الحصري و ابن شرف و غيرهم [1].

1)- بشير خلدون ، الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي ، المكتبة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، 1981م ، ص 35 و ما بعدها ، و محمد مرتاض ، النقد الأدبي في المغرب الإسلامي ص 23 .

المبحث الأول : لغة الأدب

في هذا المبحث سنتعرض إلى القضايا النقدية المشهورة و هي اللفظ و المعنى ، الطبع والصنعة، القديم و الحديث ، السرقات الأدبية ، إضافة إلى قضية الضرورات الشعرية باعتبارها مسألة مهمة لدى بعض نقاد الغرب الإسلامي ، و تعتبر هذه المسائل صاحبة الفضاء الأكبر في الجدل النقدي العربي ، فلا عجب أن نجد لها حيزا معتبرا في انقادات المغاربة كما سنعرضه .

المطلب الأول :اللفظ و المعنى .

اهتم الفكر الإنساني من لدن اليونان بقضية اللفظ و المعنى ، إلى عصرنا الحاضر بما يعرف بالعلاقة بين الدال و المدلول في الدراسات اللسانية ، فهي إذن ليست مسألة مستحدثة ، لكنها عرفت نقاشا كبيرا و جدلا واسعا عند العرب و هذا في إطار اهتمامهم بالمعايير الجمالية التي تعد من أسس الحكم على العمل الأدبي من الناحية الفنية [1].

اشتهر في هذا الصدد الجاحظ على أنه من المنافحين عن اللفظ، و عبارته في الرد على أبي عمرو الشيباني في ذلك صريحة لمّا يقول : "المعاني مطروحة في الطريق ..."[2] ، لكن و الحق يقال إن حصر الجاحظ في هذا الجانب تقزيم ظالم لقامة كبيرة في الأدب العربي ، و نصوصه الأخرى الكثيرة تؤكد أنه احتفل كثيرا بالمعنى كذلك[3]، لذلك فإن موقفه يحتاج لمناقشة و قراءة متأنية ليس هذا محلها[4].

1)- محمد غنيني هلال ، النقد الأدبي الحديث نهضة مصر للطباعة ، القاهرة ، 2001م ، ص 257 .

2)- الجاحظ ، الحيوان 3 /131، 132 .

3)- إذ يقول مثلا :"و كلما كانت الدلالة أوضح و أفصح ، و كانت الإشارة أبين و أنور،كان أنفع و أنجع ، و الدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان الذي سمعت الله عزّ و جلّ يمدحه و يدعو إليه و يحث عليه ... " الجاحظ، البيان و التبيّن 1 /75 .

4)-شوقي ضيف، النقد ، دار المعارف ،القاهرة ، ط5، ص 59، و إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب ص98،99.

لكن مقولة الجاحظ هذه تسببت في نقاش كبير و التفّ حولها الكثير من العلماء و أسّسوا عليها موقفهم من منطلق أنّ الجاحظ يعتبر مصدرا في الأدب و النقد ، من بين هؤلاء أبو هلال العسكري[1] و آخرون كثر حتى قال ابن رشيق إن أكثر الناس على تفضيل اللفظ[2]، مع التأكيد على أن آراء الكثيرين منهم تحتاج إلى إيضاح وتفصيل .

في المقابل نجد فئة أخرى اهتمت بالمعنى، يأتي في مقدمتهم أبو الحسن الشيباني الذي أقام الجاحظ ثورته ضدّه ، و نحا هذا المنحى كذلك بعض الشعراء منهم المتنبي و ابن الرومي و يتضح توجه هؤلاء لما نجدهم يركزون على المقصد و لا يبالون بما يقع في اللفظ من هجنة أو خشونة أو قبح مثلما عيب على هذين الشاعرين ، كما نجد كذلك في هذا الصف قدامة بن جعفر والآمدي[3].

بينما نجد فريقا ثالثا من لم يفصل بين اللفظ و المعنى فصلا يرجّح جانبا على الآخر، و يأتي في طليعة هؤلاء ابن قتيبة، و آراؤه مبسوطة في كتابه الشعر و الشعراء [4]، و يمكن أن ندرج معه كذلك ابن طباطبا العلوي[5] ، و الباقلاني [6] ، لكن نستطيع أن نعتبر أهم علم في هذا الفريق هو الجرجاني الذي جاء بنظرية النظم (التآزر) التي تعتبر أن الكلمة لا يعرف معناها و نظمها إلا بحسب موقعها من الجملة ، وكذلك الجملة لا يظهر حسن نظمها إلا إذا ائتلفت مع بقية الجمل[7] ، يعني أن معيار الجمال في الكلام يتأسس على التآلف بين اللفظ و المعنى .

---

1)- أبو هلال العسكري (395هـ)، الصناعتين ، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية – بيروت، 1419 هـ ص 23، 42 .

2)- ابن رشيق ، العمدة 1 /127 .

3)- الجاحظ، الحيوان 3 /131 ، ابن رشيق ، العمدة 1 /126 ، أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي (370 هـ)، الموازنة بين أبي تمام والبحتري، تح: السيد أحمد صقر، نشر/ دار المعارف ط4، 397/1 ، إحسان عباس ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب ص323 .

4)- ابن قتيبة، الشعر والشعراء ، 85/1 .

5)- ابن طباطبا ، عيار الشعر ، ص 21 ، حسين بكار، بناء القصيدة في النقد العربي القديم ، دار الأندلس، بيروت/لبنان ، ط2، 1983م ، ص 130.

6)- أبو بكر الباقلاني ، إعجاز القرآن ، دار المعارف ، القاهرة/مصر ، ص 178 ، 180 .

7)- أبو بكر عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط1 ، 1995م ، تح: د.محمد التنجي ص 47 ، 49 .

و بما أنّ ابن رشيق من أشد المعجبين بالجرجاني فإن موقفه لا يختلف كثيرا عنه لكن يمكن أن نعتبر أن عبارة ابن رشيق كانت أكثر وضوحا ، حيث صرّح أنّ : "اللفظ جسم روحه المعنى و ارتباطه به كارتباط الروح بالجسم ، يضعف بضعفه و يقوى بقوّته"[1]، معنى ذلك أن ابن رشيق يعتبر أنّ العلاقة بين اللفظ و المعنى يجب أن تكون على ارتباط تام لا يمكن الفصل بينهما ، وهو بذلك يخرجنا من صخب المواقف السابقة التي يخيّل لمقتحمها أن اللفظ و المعنى على عداوة مستديمة.

و موقف ابن رشيق هذا ليس مستغربا إذا أدركنا منهجه العام المعتدل في أغلب المسائل التي ناقشها ، و قد يعتبر البعض هذا التوسط ضعفا من ابن رشيق ، لكن هذا لا يتّجه في المنطق إذا رأينا كيف ناقش آراء سابقيه بطريقة سحرت ابن خلدون و عدها من أهم حسناته [2] ، فموقف ابن رشيق هذا جاء بعد إلمامه بآراء سابقيه و مناقشتها حقّ النقاش ، إضافة إلى إعمال ذوقه الأدبي وحسّه النقدي خاصّة بعد الاطّلاع على أرائه في نقد الشعراء .

و انعكس هذا الرأي من ابن رشيق بشكل مباشر على تراجمه للشعراء في كتاب الأنموذج ، حيث أنّه اعتبر قضية اللفظ و المعنى من المقاييس النقدية الثابتة التي يحكّم بها الشعراء ، من حيث حسن سبكهم للألفاظ و بثّهم للمعاني فيها ، و مجمل نظمهم الشعري و دليل ذلك ما أورده في ترجمة إسحاق الرافضي لما أثنى عليه أحدهم بحضرة ابن رشيق حيث قال : "أثنى عليه إسحاق و قال به و بأبي القاسم ختم الشعر، فقلت ليس إليه و لا منه في شيء ، ذاك صاحب معان ، و هذا طالب لفظ على تفاوت ما بين الكوفة و الأندلس" [3] ، حيث اقتصر نقد ابن رشيق هنا للشاعرين على منزلتهما من اللفظ و المعنى فقط ، ما يشعرنا بأهميتها النقدية في فكر و منهج ابن رشيق .

1)- ابن رشيق ، العمدة 1 /124 ، انظر

Cowell, Dustin.Onbirinci yüzyıl Kuzey Afrika şiir eleştirmeni İbn Reşîk el-Kayravânî'nin Perspektifinden Arap Edebiyat Teorisinde Belâğat kavramı, trans: Abdurrahman Özdemir, Gazi Üniversitesi Çorum İlahiyat Fakültesi Dergisi, 2004/2 .p 193.

2)- ينظر عبد الرحمن ابن خلدون ، التاريخ ، المقدمة ، ص 791 .

3)- ابن رشيق ، الأنموذج ص 78 .

و بحكم توسّط ابن رشيق في هذه المسألة فإنّه لم يكن مع أصحاب اللفظ ضد أنصار المعنى أوالعكس ، بل نقد كل شاعر على حسب إجادته في اللفظ أو المعنى أو هما معا ، لذلك فإن قضية اللفظ و المعنى نجدها في كل تراجم الأنموذج تقريبا إمّا بشكل مباشر أو بمجرد التلميح ، و قد يكتفي أحيانا بإيراد جانب من الجوانب منها فقط حسب ما يقتضيه مقام النقد .

حيث ذكر ابن رشيق هذه المسألة بشكل صريح قارنا بين اللفظ و المعنى بشكل مباشر لأغراض نقدية مختلفة إما لتبيين قوة الشاعر أو ضعفه أو توسّطه أو توفّقه في اللفظ أو المعنى أو فيهما معا أو العكس ، من ذلك ما ذكره في ترجمة الحروري النحوي و عبد الله العطار ، حيث قال في الأول : "..شاعر مفلق ذو ألفاظ حسنة و معان متمكّنة" (1) ، و قال في الثاني : " شاعر حاذق نقي اللفظ جدا ، لطيف الإشارات" (2) ، هذان النصان في مطلع ترجمة كل شاعر فيها ، نجد مثالا لإيراد ابن رشيق هذه المسألة في كتاب الأنموذج ، و هما يدلان على مدى الأهمية التي يوليها ابن رشيق لهذه المسألة في الحكم على الشعراء و تصنيفهم ، إذ جعلها في مطلع الترجمة ، على أنّها هي رأس المعايير النقدية و هي الأسّ للبقية ، فالشاعر إذا أحسن المعنى و أجاد المبنى سهل عليه باقي الأمر ، و أدرك المتلقي مقام هذا الشاعر بين نظرائه و تمكّن من تفكيك و فهم نصوصه الأدبية، فثنائية اللفظ و المعنى مهمّة جدا في العملية الأدبية و في التركيبة اللسانية ، و الوظيفية اللغوية والإبلاغية .

و كما هو ظاهر من المثالين السابقين فإنّ ابن رشيق استخدم هذا المعيار النقدي بشكل صريح و قد يكتفي بمجرد الإشارة، أي بأحد لوازم اللفظ أو المعنى أو أحد مقاربهما مع الإتباع ببعض الصفات أو التعاليق التي ترفع أو تضع من مقدرة الشاعر ، و إليك بعض الأمثلة :

قال في ترجمة ابن الغطاس: "جمع إلى رقة المعنى رشاقة اللفظ" (3) ، و في ترجمة التميمي الكموني : "شاعر فصيح الألفاظ حسن التقسيم ... عالم بأسرار الكلام إذا ركب معنى أجاده" (1) ، و في ترجمة

1)- ابن رشيق ، الأنموذج ص 162 ، 166 .
2)- المصدر نفسه ص 198 ، 202 .
3)- المصدر نفسه ص 279 .

الوراق السوسي "شاعر وطيء الكلام كلف بعذوبة اللفظ و التسلّل إلى المعنى البعيد بلطافة"[2]، وفي ترجمة ابن الفكّاه : "شاعر بارع ... حسن الطريقة حلو في جزالة"[3] و في ترجمة الزبنّي "حسن الطريقة فخم الكلام ، و ربما ركب الحلاوة أحيانا فجوّد " [4] و غيرها كثير ، وهذا التغيير في الأساليب من الجمع إلى الإفراد أو التعبير بالجزالة أو فخامة الكلام في إشارة إلى اللفظ يضفي على كتاب الأنموذج بعض الخفة الأدبية هروبا من ثقل رتابة العلم و ترداد مصطلحاته ، خاصة أن المصطلح النقدي في هذا الشأن في تلك المرحلة لم ينضبط بعد، كما إن إلحاق ألفاظ مثل: الرشاقة واللطافة والحسن والإجادة و العذوبة و الحلاوة و الجزالة و الخشونة والحوشية وغيرها هي صفات يضيفها ابن رشيق للإشارة إلى موقفه النقدي منها على ضوء ما سبق تقريره من رأيه في المسألة عموما.

فمثلا : قال في عبد الملك الدركادو: "موجِز الكلام سافر أوجه المعاني ، تفهم نجواه من فحواه"[5] وهنا مدح الدركادو لحسن إظهاره للمعاني ، و هذه الترجمة من التراجم القليلة التي أفرد فيها ابن رشيق الحكم على أحد قسمي قضية اللفظ و المعنى كما فعل مع عتيق بن عبد العزيز المذحجي حيث قال عنه: لا يطلب إلا الوزن مسامحا لنفسه في العربية ، إن أعوزته لفظة صنعها على ما يشاء"[6] ، و قال في ابن جميل :" يحب حوشي الكلام و عويص اللغة يرى ذلك قوة و فصاحة ... كتب إليه محمد بن مغيث يعاتبه في تقّعره و تكلّفه و تخلّفه"[7] و في ترجمة عنترة التميمي التونسي قال : "علاّمة بالغريب بعيدا من استعماله ، يرى ذلك ثقلا " [8] ، و في الخولاني قال: "صاحب

---

1)- المصدر نفسه ص 331 ، 335 .
2)- ابن رشيق ، الأنموذج ص 390 ، 394 .
3)- المصدر نفسه ص 136 .
4)- المصدر نفسه ص 138 ، 139 .
5)- المصدر نفسه ص 225 .
6)- المصدر نفسه ص 248 .
7)- المصدر نفسه ص 305 .
8)- المصدر نفسه ص 314 ، 315 .

قواف شرّد و لغة عويصة إذا شاء ، و له قدرة على الكلام يأخذ من رقيقه و جزله"[1] وغير ذلك من الأمثلة الكثيرة التي لو رحنا نعددها لنسخنا الكتاب كله ، لأنها مسألة محورية وأساسية في العملية النقدية، و في الأمثلة الأخيرة نلحظ كيف يعيب ابن رشيق بشكل واضح أو بإيماء الغرابة والحوشية والعويص و التقعّرَ و الغريب ، في الألفاظ ، كما يعترف كذلك لبعض الشعراء بمقدرتهم في التحكّم في الألفاظ ، و هذا تركيزا منه على النقد بالقدر التي يُبَلّغه مقصوده في الترجمة ، و يؤكّد كذلك أن معيار النقد هو الجودة المرجوة من الشعر لا أمرا آخر .

بالعودة إلى بقية نقاد المغرب الذين سبقوا ابن رشيق و الذين تتلمذ على البعض منهم ابن رشيق نفسه، يمكننا القول إن نقاش اللفظ و المعنى لما وصل إلى المغرب نضج و استقام حيث إن المغاربة تعلموا واستفادوا من نقاش المشارقة المتعلق بهذه المسألة ، و لا أدل على ذلك النضج الكبير الذي نجده في نقاش هذه المسألة عند برية الرياضي ، و الرقيق القيرواني ، و النهشلي و غيرهم .

حيث أشار برية الرياضي إلى هذه المسألة في رسالته العذراء بشكل مطول مع بعض الإشارات الأخرى كذلك في كتابه تلقيح العقول ، إذ يقدم في المصنف الأول إشارات مهمة فيما يتعلق باللفظ و المعنى ، فهو و إن لم ينتصر لطرف على حساب الآخر ، فهو على عهد الكتاب بالوضوح في العبارة و اللطافة في الإشارة إلا أنه يرى بعين أخرى ، و هي أن الاهتمام بالمعنى وبلاغته أو تنميق اللفظ و جماليته ينبغي أن يرتبط بالمتلقي و كيفية استيعابه للنص ، فالقضية مرتبطة به من الناحية التواصلية أو الجمالية ، و عدم النظر إلى الكتابة بهذا التوجه هو ظلم للكتابة و للمكتوب له إذ يقول في ذلك: "فلا تعتد بالمعنى الجزل ما لم تلبسه لفظا جزلا لائقا بمن كاتبته و مشابها لمن راسلته فإن إلباسك المعنى و إن شرف و صلح لفظا مختلفا عن قدر المكتوب إليه لم تجر به عاداتهم ، تهجين للمعنى ، و إخلال بقدره و ظلم لحق المكتوب إليه ، و نقص مما يجب له ، كما أن في اتباع تعارفهم

1)- المصدر نفسه ص 421 ، 423 .

و ما انتشرت به عاداتهم ، و جرت به سنتهم ، قطعا لعذرهم ، و خروجا من حقوقهم و بلوغا إلى غاية مرادهم ، وإسقاطا لحجة أدبهم "[1].

فموقف برية هذا يعبر عن الحالة الثقافية التي آل إليها الأمر في المغرب الإسلامي ، حيث صارت الكتابة صناعة ، و الأدباء يتفننون في طرق الكتابة ، مع تفاوت مراتبهم ، و الجمهور المتلقي كذلك خاصة في بلاد المغرب ، و هو موقف نابع من النظر إلى الأهمية الوظيفية للغة و مراعاة للجانب الجمالي للأدب ، حتى لا يختلط الأول في الثاني لذلك يقول في موضع آخر في رسالته : "فتخير من الألفاظ أرجحها وزنا ، و أجزلها معنى ، و أشرفها جوهرا و أكرمها حسبا ، و أليقها في مكانها ، و أشكلها في موضعها"[2] ، فرؤيته للفظ كما رؤيته للمعنى جمال الأول من الثاني ، و بلاغة الثاني بحسن انتقاء الأول .

ينتقل برية الرياضي في معرض حديثه عما يتعلق باللفظ و المعنى إلى الإشارة إلى بعض القضايا التقنية التي ترتفع بالكتابة فيما يتعلق بالتعامل مع الألفاظ و المعاني ، إذ يشير إلى الاهتمام بمطالع الكلام ، لأن المخبر عن صدره و نهايته ، ووضوح معانيه و جزالة ألفاظه منبئ لحسن تلقيه لدى المستمع أو القارئ إذ يقول في ذلك: " ليكن في صدور كتابك دليل واضح على مرادك ، وافتتاح كلامك برهان شاهد على مقصدك ، حيثما جريت فيه من فنون العلم ، و نزعت نحوه من مذاهب الخطب و البلاغات ، فإن ذلك أجزل لمعناك ، وأحسن لاتساق كلامك"[3] .

و يقدم في هذا الصدد إشارة لطيفة مفادها أن معيار جمال اللفظ أو قوة المعنى ، مرتبط أساسا بمدى التلقي الإيجابي للمتلقي للرسالة بوضوح و أهم عامل في ذلك هو قوة المطالع لما يقول: "فإن ذلك أجزل لمعناك ، وأحسن لاتساق كلامك"[4] .

ثم ينتقل إلى الحديث عن صدور الكتب بعد أن تناول المطالع ، و فيما يتعلق بالمطالع مرتبط أساسا برؤيته العامة في هذه المسألة و أنها مرتبطة بالمتلقي ، فيرى أن بساطتها أو قوتها ووضوحها أوغموضها ، أو طولها و قصرها مرتبط بالمتلقي ، و يعطي مثالا على ذلك برسائل الملوك التي من

1)- برية الرياضي ، الرسالة العذراء ، ص 37-38.
2) - برية الرياضي ، الرسالة العذراء ، ص 46-48.
3) - المصدر نفسه ، ص 48-49 .
4) - المصدر نفسه ، ص 48-49 .

المناسب فيها أن تكون قصيرة بأسلوب واضح و مباشر، إذ يقول في ذلك: "لا تطيلن صدر كلامك إطالة تخرجه من حده ، و لا تقصر عن حقه ، و لو صُوّر اللفظ و كان له حد لوقفت عليه ، غير أنهم في الجملة كرهوا أن يزيدوا سطور كتب الملوك على سطرين ، و هذه إشارة لا تعبر إلا عن الجملة من المقصود إليه ، لأن الأسطر غير محدودة"[1] .

بعد ذلك ينتقل إلى الحديث عن الألفاظ و المعاني كلا منها على طرف ، بما يجعل الكلام مؤديا لوظيفته الإبلاغية كما سبق ذكره ، و بما يجعله إيجابيا فيما يتعلق باستيعاب المتلقي له من كل الجوانب النفسية و الخطابية و الجمالية إذ يقول في ذلك "إن حاولت صنعة رسالة أو إنشاء كتاب ، فزن اللفظة قبل أن تخرجها بميزان التصريف إذا عرضت ، و عاير الكلمة بعياره إذا سنحت ، فربما مر بك موضع يكون مخرج الكلام إذا كنبت أنا فاعل أحسن من أن تكتب أنا أفعل و موضع آخر يكون فيه استفعلت أحلى من فعلت"[2] .

في كلامه هذا إضافة إلى ضرورة احترام قواعد اللغة الصرفية و النحوية ، الاهتمام بالأساليب التي تليق بمقام الباث و المتلقي في اللحظة التي يريد فيها التواصل الأول بالثاني ، بعيدا عن تقليد القوالب و الأساليب المتداولة ، بما لا يخل دائما بعلاقتها مع المعاني ، فالتعامل مع الألفاظ دائما يراعى فيه علاقتها بالمعاني و ارتباطها بمقام الباث و مقام المتلقي و ذلك عندما يقول: "و أدر الألفاظ في أماكنها ، واعرضها على معانيها ، وقلبها على جميع وجوهها ، حتى تقع موقعها ولا تجعلها قلقة نافرة ، فمتى صارت كذلك هجنت الموضع الذي أردت تحسينه ، وأفسدت المكان الذي أردت إصلاحه ، و أعلم أن الألفاظ في غير أماكنها و القصد بها إلى غير مظانها ، إنما هو كترقيع الثوب الذي لم تتشابه رقاعه و لم تتقارب أجزاؤه ، خرج من حد الجدة و تغير حسنه كما قال الشاعر:

إن الجديد إذا ما زيد في خلق   تبين الناس أن الثوب مرقوع[3] .

مع مرعاة التوازن دائما فيما يتعلق باللفظ أو المعنى لئلا يضطرب الكلام ، و ينشز المعنى عن ذهن المتلقي ، و يثير القلق في سمعه ، لأن الأمر متعلق به أساسا، مع عدم إهمال شيء مهم حسب

---

1) - برية الرياضي ، الرسالة العذراء ، ص 48-49 .

2) - المصدر نفسه ، ص 57-58 .

3) - المصدر نفسه ، ص 57-58 .

الرياضي ، و هو الطبع أو السجية ، يعني ضروري أن يتعامل الكاتب مع نصه بما يعبر عن شخصه وبصمته و ذلك في قوله : "على أن كلام الفصحاء المطبوعين و درس رسائل المتقدمين على كل حال مما يفتق اللسان و يوسع المنطق و يشحذ الطبع ، و يستثير كوامنه إن كانت فيه سجية"(1) .

ينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن المعنى ، مشيرا إلى الإشكالية الكبرى تتعلق بكيفية التوفيق بين اللفظ والمعنى و أن هذه القضية ليس له ضوابط تنطبق على كل الاستعمالات ، و إنما ترتبط أساسا بالمقامات المختلفة ، و الأحوال الخاصة ، يضاف إليها في كل وقت براعة الباث و ينقل لبيان ذلك كلاما عن العتابي يقول فيه : ما رأينا فيما تصرفنا فيه من فنون العلم ، و جرينا فيه من صنوف الآداب ، شيئا أصعب مراما و لا أوعر مسلكا ، و لا أدل على نقص الرجال و رجاحتهم و أصالة الرأي ، وحسن التمييز منه ، و اختياره من الصناعة التي خطبتها ، و المعنى الذي طلبته ، و ليس شيء أصعب من اختيار الألفاظ ، وقصدك بها إلى موضعها ، لأن اللفظة تكون أخت اللفظة وقسيمتها في الفصاحة و الحسن و لا تحسن في مكان غيرها و بتمييز هذه المعاني ، و مناسبة طبائع جهابذتها ، و مشاكلة أرواحهم ، جعلوا الكتابة نسبا و قرابة و أوجبوا على أهلها حفظها"(2) .

و مدى القدرة على التوفيق و الربط الحسن حسب الرياضي هو المؤشر الحقيق على قوة وجمالية الكتابة ، ذلك أن الجمالية موجودة في الألفاظ و في المعاني على حد السواء ، فإذا أحسن الباث التوفيق بينهما أضاف جمال هذا إلى رونق ذاك و العكس ، و هذا الربط الحسن لا يقوم عليه إلا أديب بارع نبيه ، ذلك أن الحكماء حسبه شبهت المعاني بالغواني ، و الألفاظ بالمعارض ، فإذا كسا الكاتب البليغ المعنى الجزل لفظا رائقا ، و أعاره مخرجا سهلا ، كان للقلب أحلى ، و للصد أملى ، و لكنه بقي عليه أن ينظمه في سلكه مع شقائقه كاللؤلؤ المنثور ، الذي يتولى نظمه الحاذق ، و الجوهري العالم يظهر بإحكام الصنعة له حسنا هو فيه ، و يمنحه بهجة هي له ، كما أن الجاهل إذا وضع بين الجوهرتين خرزة هجن نظمه و أطفأ نوره ، كان حبيب بن أوس ربما وقع على جوهرة فجعلها بين بعرتين قال الشاعر :

و لو قرنت بدرا فاخرا خرزا   من الزجاج لقلنا بئسما نظما

---

1) - برية الرياضي ، الرسالة العذراء ، ص 58-59.

2) - المصدر نفسه ، ص 59.

و الياقوت حسن، و هو في جيد النساء أحسن، و كذلك الشعر الجيد مونق و لكنه من أفواه العظماء آنق ، و التاج الشريف بهي المنظر و هو على الملك أبهى ، كما قال ابن قيس الرقيات[1] :

"يعتدل التاج فوق مفرقه "

قال أبو العتاهية لابن مناذر : بلغني أنك تقول الشعر في الدهر و القصيدة في الشهر ، فقال: نعم ، لو رضيت لنفسي أن أؤلف تأليفك و أقول :

"يا عتب يا درة الغواص"

لقلت في اليوم و الليلة ألف قصيدة .

و قال مرو بن لجأ لشاعر: أنا أشعر منك ، قال و لم ؟ قال: لأنك تقول البيت و ابن عمه و أنا أقول البيت و أخاه [2].

و فيما قاله و نقله الرياضي إشارة إلى أن التعامل مع اللفظ و المعنى صنعة ، سواء تعلق الأمر بالشعر أو النثر ، و لكن ضروري أن تقترن تلك الصنعة بشيء من الطبع لئلا ، يخرج الباث عن غرضه من الكتابة أو الكلام إلى الإغراب و الإيحاش ، و يظهر كذلك مدى مرافعته عن أساليب المخاطبة لدى الكتاب المحترفين باعتبار أنهم يتعاملون مع اللغة باعتبار أهدافه البيانية و الإبلاغية فينقل فيما يتعلق بذلك عن الجاحظ قوله: "مارأيت قوما أمثل طريقة في البلاغة من هؤلاء الكتاب ، فإنهم التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعرا وحشيا ، و لا ساقطا سوقيا" ، ذلك أن أغلب كتب وأساليب هؤلاء الكتب واضحة سهلة جزلة لطيفة كما يقول خالد بن صفوان "أبلغ الكلام مالا يحتاج إلى كلام و أحسنه ما لم يكن بالبدوي المغرب ، و لا القروي المخدج ، الذي صحت مبانيه وحسنت معانيه و دار على ألسن القائلين ، و خف على آذان السامعين ، و يزداد حسنا على مر السنين ، تجتليه الرواة و تقتنيه السراة" [3].

1) – برية الرياضي ، الرسالة العذراء ، ص 61.

2) – المصدر نفسه ، ص 62.

3) – المصدر نفسه ، ص 64 – 65.

و كما سبقت الإشارة فإن الرياضي يرى أن البراعة الحقة تكمن في مدى التعامل مع المعاني والألفاظ باعتبار أنها موجودة و ثابتة و الأساليب هي التي تختلف و اختلافها مرعاة لمقاماتها وظروفها، ذلك حسبه أن المعاني كلها ممتثلة ، و الكلام مشبع و لكن سياسته صعبة ، و تأليفه شديد إلا على جهابذته ، و فرسانه أمراء الكلام ، يصرفونه كيف شاؤوا ، ولا يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ، و لفظه معناه ، و يكون اللفظ أسبق إلى الأسماع من معناه إلى القلوب [1].

و هو من دون شك في كلامه السابق متأثر بكلام الجاحظ لما يقول أن المعاني مطروحة في الطريق، لذلك يعود ليوكد أن الكلام يتألف من إجادة التعامل مع الطرفين ، لذلك يقول: كان لفظه في وزن إشارته ، و طبعه في مطابقة معناه ، و يذكر كذلك أن الحسن بن وهب ذكر أحمد بن يوسف فقال : ما كنت أدري ألفظه آنق أم معناه ، أو معناه أجزل أم لفظه ؟

و يختم الرياضي الإشارة إلى هذه القضية في الرسالة العذراء بتمثيل جميل يشرح فيها حقيقة المعاني وواقع الألفاظ بالنسبة لها، و علاقة التكامل الحاصلة بينهما ، و ارتباط الأمر كله بالباث مقام المتلقي ، و متى ما أحسن الباث التعامل مع المقام ، كان قد قطع شوطا في حسن العبارة و روعة الإشارة ، يقول الرياضي في ذلك: " و المعاني و إن كانت كامنة في الصدور فإنها متصوّرة فيها ومتصلة بها، و هي كاللآلي المنظومة في أصدافها ، و النار المخبوءة في أحجارها ، فإن أظهرتها من أكنافها وأصدافها تبين حسنها ، و إن قدحت النار من مكامنها و أحجارها انتفعت به ، و إلا بقيت محجوبة مستورة ، و إنما يستثار الكامن منها و يستخرج المستتر من جواهرها ، بقدر حذق المستنبط وصواب حركات المستخرج و قصد إشارته ، و لطف مذاهبه ، و كذلك ليس كل ناطق ولا كل كاتب يوضح عن المعنى ، و لا يصيب إشارته ، و كلما كان الكلام أفصح و البيان أوضح ، كان أدل على حسن وجه المعنى و قد رأيتهم شبهوا المعنى الخفي بالروح الخفي ، و اللفظ الظاهر بالجثمان الظاهر ، و إذا لم يظهر بالمعنى الشريف لفظ شريف جزل ، لم تكن العبارة واضحة ، ولا النظم متسقا وتضاءل المعنى الحسن تحت اللفظ القبيح ، كتضاؤل الحسناء في الأطمار الرثة[2] .

و على نفس العقلية فيما يتعلق بالعلاقة بين اللفظ و المعنى أشار برية الرياضي إلى قضية اللفظ و المعنى في كتابه الآخر تلقيح العقول إذ ينقل في ذلك قضايا تشير إليها كقوله: سئل إبراهيم

1) - برية الرياضي ، الرسالة العذراء ، ص 70 - 71.

2) - المصدر نفسه ، ص 70 - 71.

الموصلي عن البليغ ، فقال الذي يكون معنى لفظه إلى فهمك أسرع من لفظه إلى أذنك " و سئل العتابي عن البليغ فقال: البليغ الذي يأخذ المعنى الوحشي البعيد فيكسوه ألفاظا حلوة يبدل بها صورته و يخرج ذلك المعنى في حلة حسنة قريبة ، و كما أن الجارية تحسنها المعارض من الثياب فكذلك المعاني تحسنها الألفاظ الحسنة .

و سئل جعفر بن يحي عن البليغ ، فقال البليغ الذي يبلغ بلطف لسانه و حسن بيانه ، واقتداره على الكلام أن يفهم العامة معاني الخاصة ، و يكسو المعنى المستكره لفظا حلوا لا يلطف عن الأذهان ، و لا يجفو عن الأسماع .

و قيل لبعضهم ما البلاغة؟ فقال : معرفة الوصل من الفصل

و قيل لآخر ما البلاغة ؟ فقال: فقال ألا يؤتى القائل من سوء فهم السامع ، و لا يؤتى السامع من سوء فهم القائل

و قيل لآخر : ما البلاغة ؟ قال : إيجاز الكلام و حذف الفضول ، و تقريب البعيد .

و هي كلها نقول تعبر عن موقفه من التوفيق بين اللفظ و المعنى ، و أن العبرة دائما بكيفية تلقي المستمع أو القارئ للرسالة .

و نجد عند القاضي عياض كذلك في ترتيب المدارك نقولا كثيرة في حق الشخصيات التي ترجم لها ممن يعود إلى المرحلة محل الدراسة ، هي إشارات كثيرة إلى ما يتعلق بقضية اللفظ و المعنى حيث قال في حق ابن غانم: قال أبو علي ابن أبي سعيد في كتاب المعرب في أخبار المغرب : كان ابن غانم رجلا كاملا فقيها مقدما ، مع فصاحة لسان ، و حسن بيان ، و بصر بالعربية و رواية الشعر ، تروى له أبيات مستحسنة ، و كانت فيه تمتمة ، و كان أبوه مذكورا قديما في عرب إفريقية و أبنائها قبل دخول المسودة .

و قال غيره : كان من أهل العلم و الدين و العقل والورع و التواضع و الفصاحة و الجزالة [1].

قال سليمان بن عمران: كان ابن غانم كاملا متكملا فصيحا ، حسن البيان ، جيد الترسيل ، لولا تمتمته ما قام بطلاقة لسانه أحد[1] .

1)- القاضي عياض ، ترتيب المدارك ، 66/3 .

وقال في ترجمة أبي عبد الملك البوني: قال حاتم: كان رجلا فاضلا حافظا ، ناقدا في الفقه و الحديث .... حسن اللسان (2).

هذه النقول في حق ابن غانم تشير إلى اهتمام علماء المغرب بأسلوب العلماء و الأدباء من حيث قدرتهم في استخدام الألفاظ و التعامل مع المعاني ، مما يدل على حضور هذه المسألة في مخيلتهم على الأقل ، يضاف إليه الملاحظة العامة و هي الميل الدائم لدى نقاد و علماء المغرب إلى الحرص على التوفيق بين اللفظ و المعنى ، و هو نهج كان بسبب السياق المتأخر الذي وصلت فيها هذ المسألة إلى بلاد المغرب ، و عدم الوله الشديد لدى شعوب المغرب بصفة عامة إلى الاهتمام بصناعة الأدب و الشعر خاصة في السنوات الأولى بعد الفتح ، وإنما الاهتمام بالأدب فيما يتعلق بوظيفته ، خاصة الإبلاغ ، و لم يأت الاهتمام بالجوانب الجمالية إلا في فترات زمانية لاحقة .

المطلب الثاني: الطبع و الصنعة :

احتلت قضيّة الطبع و الصنعة مكانة مهمّة في الدّراسات النقدية و البلاغية العربية ، و أغلب الكتابات التراثية لا تتجاوز هذه المسألة لأنها تبحث في أصل الإبداع الأدبي ، و هي بذلك تثير جدلا كبيرا بين النقاد و البلاغيين من نواحي عديدة ، منها المفهوم ، و تصنيف الشعراء ، و مرتبة الطبع والصنعة و موقع كل واحدة عند الشعراء و النقاد و غير ذلك .

يرى الكثير من المنظّرين في مجال النقد أن الطبع المقصود به الموهبة الفطرية لدى الأديب، التي تكون له بمحض الطبيعة الإلهية ، و هي بذلك غير متاحة للجميع إلا لمن حُبي بهذه الموهبة، و هي مع ذلك أيضا الأصل الذي يعتمد عليه كلّ مبدع ، و إلّا كان إنتاجه مَواتا، يقول ابن الأثير : "وكيف تتقيد المعاني المخترعة بقيد ، أو يفتح إليها طريق تسلكه ، و هي تأتي من فيض إلهي بغير تعليم ، و لهذا اختص بها بعض الناثرين و الناظمين دون بعض"(3) ، أما الصنعة فهي الملكة

---

1)- القاضي عياض ، ترتيب المدارك ، 67/3 .

2)- المصدر نفسه ، 259/7 .

3)- ضياء الدين ابن الأثير ، المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر ، دار الرفاعي ، الرياض، ط2،1983م ، 2 /58 .

المكتسبة عن طريق التعلم والدربة و الممارسة [1]، و لم يشتهر تفضيل النقاد احد الجانبين على الآخر مطلقا رغم إجماعهم على ثبات ركن الطبع ، إلا أنه قد نفهم من بعض النصوص ميول بعض النقاد إلى أحدهما ، مثلما ينسب إلى بشر بن المعتمر قوله بالطبع[2] ، و نسبة الأصمعي إلى الصنعة [3] ، ومهما يكن من أمر فهذا لا يعدو أن يكون تفضيلا ذوقيا أو مشروطا و ليس مطلقا ، إذ ثبت أنّ كبار الشعراء كانوا يحرصون على صناعة شعرهم و تنقيحه و مراجعته مثل زهير بن أبي سلمى [4].

الطبع تحدث عنه النقاد القدامى كثيرا كالجاحظ و ابن قتيبة و ابن طباطبا و غيرهم[5] ، لكن لا يوجد من هؤلاء من شرح هذا المصطلح إلا إيماء ، لكن حازم القرطاجني حاول إفاضة الكلام في بيان المراد منه و ذلك في فترة متأخرة فقال: "الطبع هو استكمال للنفس في فهم أسرارا الكلام ، والبصيرة بالمذاهب و الأعراض التي من شأن الكلام الشعري أن ينحى به نحوها ، فإذا أحاطت بذلك علما قويت على صوغ الكلام بحسبه عملا "[6] ، يعني أن الطبع هو موهبة فطرية تتطور بالعلم والعمل و الممارسة و يسميه أيضا قوة التشبيه أو السجية و القريحة في بعض الأحيان[7]، و بعض النقاد يشير إلى الطبع بالبديهة أو الارتجال كابن بسام الشنتريني[8] .

و الحقيقة أن الحديث عن أهمية الطبع في الصناعة الشعرية ليس حكرا على الثقافة العربية فقط بل نجد الغرب كذلك من لدن اليونان تناولوا هذه القضية حيث نجد أرسطو يتكلم عن هذه القضية حيث يشير أن الشعر ليس متاحا للكل حيث يقول : "... إن الشعر من شأن الموهوبين

---

1)- ابن رشيق، العمدة 208/1 .

2)- عمرو بن بحر الجاحظ (المتوفى: 255هـ) ، البيان و التبيّن ، دار ومكتبة الهلال، بيروت ، 1423 هـ، 1/ 138 .

3)- ابن رشيق ، العمدة 1 /208 ، الشيخ بوقربة ، النقد المنهجي عند ابن رشيق ص 142 .

4)- المصدر نفسه 1/ 208 .

5) - الجاحظ ، البيان و التبيين ، ص 35-39 .، ابن قتية ، الشعر و الشعراء ، ص 33،44 ، ابن طباطبا ، عيار الشعر، الجرجاني ، الوساطة ص 15 .

6) - منهاج البلغاء ، ص 199 .

7)- المصدر نفسه ، 341-342 .

8) - ابن بسام الشنتريني ، الذخيرة ، 36/7 .

بالفطرة ، وذوي العواطف الجياشة"[1] ، و تسائل هوراس كذلك في خصوص هذه المسألة لما قال : هل الشعر الناجح نتاج الطبيعة أم الفن" و أجاب بنفسه فقال " لست أتبين ماذا يستطيع التحصيل أن يثمر من غير نفحة وافرة من الموهبة الفطرية ، أو الموهبة الفطرية من غير التحصيل ، إن أحدهما ليلح في طلب الآخر ، و يعاهده على صداقة باقية"[2].

في خصوص الطبع نجد لدى بعض النقاد خطابا جامعا و موفّقا كما هو الحال عند الجرجاني الذي يقول : "إن الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع و الرواية و الذكاء ، ثم تكون الدربة مادة له ، وقوة لكل واحد من أسبابه فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرّز ، و بقدر نصيبه تكون مرتبته من الإحسان" [3]، هذا النص هو الذي يثبت جوهر هذه القضية و مكانتها في الدرس النقدي ، والعلاقة بين الطبع و الصنعة ، و أنّ النقاش الذي حصل بين النقاد و البلاغيين ليس بسبب التضاد بين الطبع و الصنعة ، و إنما بسبب اختلال ميزان التعامل معهما في العمل الأدبي عند المبدع أوالناقد.

ابن رشيق في كتابه العمدة كما اعتدنا منه فإن مقولته لا تختلف كثيرا عن مذهب الجرجاني ، لكنه أحسن التقسيم و التمثيل ، و استفاد من مقولات السابقين حق الاستفادة ، إذ يرى أن الطبع و الصنعة مذهبان مضطردان في الشعر و أن الصنعة ليس المستقبح منها إلا التكلّف الذي يشين الشعر أما تحسين اللفظ و تجويد صناعته و إحكام معناه فذلك من محاسن الشعر ، كما هو واضح من عبارته التالية : "و من الشعر مطبوع و مصنوع ، فالمطبوع هو الأصل الذي وضع أولا و عليه المدار ، و المصنوع و إن وقع عليه هذا الاسم فليس متكلّفا تكلّف أشعار المولدين لكن وقع فيه هذا

1) – أرسطو ، فن الشعر ، ص 409 .
2) – هوراس ، فن الشعر ، ص 94 .
3)– الجرجاني ، الوساطة، ص 15 .

النوع الذي سموْه صنعة من غير قصد و لا تعمّل لكن بطباع القوم عفوا فاستحسنوه و مالوا إليه"[1]، فابن رشيق يؤكد أن التصنّع غير مقصود لذاته و إلا كان سوءة ، فحسن الصناعة مطلوب والتكلّف موضوع ، فالشأن في الطبع و الصنعة كما هو في العلاقة بين اللفظ و المعنى ، يكمّلان بعضهما.

و هو التوجّه الذي أسّس تصنيف الشعراء لدى ابن رشيق في كتاب الأنموذج على ضوئه، إذ قد يمدح شاعرا بحسن جمعه بين الطبع و الصنعة أو أحدهما ، و قد يثلبه كذلك بهما أو بواحدة فقط، و قد يمدحه بالواحدة و يسقط عنه الثانية ، و هذا ليس اضطرابا ، بل تتبعا لإجادة الشاعر أوضعفه، جريا على ما قرّره في العمدة ، فلقد نقد ابن رشيق الكثير من الشعراء بالطبع و الصنعة معا مثل : عمران بن سليمان المسيلي الذي قال فيه :"كان شاعرا مطبوعا ، سريع الصنعة جسورا على الكلام و المعاني الأبكار" [2]، و قال في القفصي البزاز: "شاعر قوي الطبع مهول يقرع السمع ويحزن في أكثر كلامه و لا يسهل إلا قليلا مع قوة ظاهرة كأنه نجدي ، و يهمل الصنعة بالجملة" [3] ، وفي القزاز : "كان له شعر جيد مطبوع مصنوع ربما جاء به مفاكهة و ممالحة من غير تحفّز له و لا تحفّل[4]، و غير هذه الأمثلة كثير في كل تراجم الأنموذج تقريبا ، و كثيرا ما يفرد ابن رشيق النقد بالطبع فقط في إشارة منه أن الشاعر يكفيه أن يكون مطبوعا مع بعض الميل الذي نلمسه من ابن رشيق تجاه الطبع من ذلك ، ما قاله في خلف بن أحمد السعدي "كان شاعرا مطبوعا" [5] ، و في ابن البقال الضرير: "و كان شاعرا مطبوعا يلقي الكلام إلقاء و يسلك طريق أبي العتاهية" [6] ، وفي الدركادو: "شاعر غزل الشعر مطبوع موجز الكلام" [7] ، و في عمار بن علي بن جميل : "كان قادرا على الشعر متوسط الطبع ، يحب حوشي الكلام و عويص اللغة يرى ذلك قوة و فصاحة"[8]، و غير

1)- ابن رشيق القيرواني ، العمدة 1/ 208 .

2)- ابن رشيق ، الأنموذج ص 311 .

3)- المصدر نفسه ص 320 .

4)- المصدر نفسه ص 365 ، 369 .

5)- المصدر نفسه ص 126 .

6)- المصدر نفسه ص 158 ، 159 .

7)- المصدر نفسه 225 .

8)- المصدر نفسه ص 305 .

ذلك من الأمثلة الكثيرة التي يلاحظ أن ابن رشيق كان حريصا جدا على إبراز جانب الطبع لدى الشعراء الذين ترجم لهم و هذا مؤكد لأهميته الأدبية ، يضاف إليه أنه لم يورد الطبع في أي موضع مع أي صفة نقص كما هو الحال مع الصنعة كما سيأتي ، إلا في المثال الأخير لما وصف عمار بن علي أنه متوسط الطبع ، و هي ليست صفة تقدمه أو تؤخره بقدر ما هي حكم نقدي يعكس حقيقة وواقع الشاعر و مرتبته ، و كتأكيد من ابن رشيق لمذهبه في الطبع و الصنعة يورد في كثير من الترجمات بعض الأحكام التي يمدح فيها التصنّع منها ما قاله في ابن زنجي الكاتب: "كان شاعرا بارعا يتعب في صنعته و يجيدها" (1) ، و ما قاله كذلك في ابن الخواص الكفيف : "منقاد الطبع لا يتكلف التصنيع" (2) يعني أنه كان يتصنع في غير تكلّف ، و في علي بن أبي علي الناسخ : "شاعر مجيد يطلب البديع و يحب التصنيع و يحرص عليه و يحترس من توابع الانتقاد" (3) ، يعني أنه يفرق بين ما يمدح من التصنيع و ما يستقبح ، هذه النصوص و غيرها تأكيد من ابن رشيق لمبدئه بأن التصنيع في الشعر مطلوب ما لم يصبح تكلّفا يظهر ثقله و أثره على جودة الشعر ، ويخرج به على ما تعارف عليه الناس بناء على ما قرّره من مراعاة للبيئة في قول الشعر و نقده .

و إن كان ابن رشيق قد شكر التصنّع لبعض الشعراء فطبيعي أن يستهجنه لدى البعض و من دون شك هم أولئك الذين تكلفوه و أرادوه لذاته من مثل أبو الفتوح بن محمد الذي قال فيه : "شعره سهل وطيء لا يتكلفه فإذا تكلف ، ظهر عليه أثر ذلك" (4) ، لأن التكلف إذا ظهر على عمل الشاعر أوحى بضعف مقدرته الإبداعية ، و مجمل القول أن ابن رشيق لا يستقبح الصنعة من الشاعر إلا إذا كانت سببا في أحد أمرين :

الأول: التكلّف و التعقيد

قال ابن رشيق ذلك صراحة في الأنموذج عند تعليقه على شعر لابن أبي النوق الطبيب : "فأنت ترى الطبع كيف حمل هذا المعنى كما تحمل الأرواح الأجسام ، ولو وضع بين فسطاط المحرزين

---

1)- ابن رشيق ، الأنموذج 107 ، 110 .
2)- المصدر نفسه ، ص 151 ، 153 .
3)- المصدر نفسه ص 261 ، 263 .
4)- المصدر نفسه ص 69 .

و حمل على مذاهب المتعصبين لرأيته أثقل من العذل و أقتل من الجهل لأن التصنّع تكلف والتكلّف مغصوب مكره " [1] ، و هذا الموقف كرّره ابن رشيق في كثير من التراجم متى ما استدعى النقد منه ذلك و لقد سبقت بعض الأمثلة على ذلك .

الثاني: عدم الانسجام

عدم الانسجام يؤدي إلى نفرة الأذن من سماع النص و هو من عيوب الكلام التي قرّرها علماء البلاغة في مباحث الفصاحة و البلاغة[2] ، و الصنعة متى ما أدت إلى ذلك صارت عيبا ، وقد يوقع الشاعر في ذلك حبّه للإغراب أو التعالي و المغالبة، قال ابن رشيق معلّقا على هذه الأبيات لـ حسين بن علي الصيرفي :

قَلَقْتُ فيكَ هذه   هذه كيف تَقلــقُ
قَرِفتُ يمُـن ميـــةٍ   هي من مي تُفْرَقُ
قتري لحن مقتفِ   فَتَقَ من حل يُرْتَقُ

قال : كل بيت من هذه الأبيات يقرأ معكوسا و هو قدرة على الكلام ليس فيه انسجام [3].

ابن رشيق في كتاب الأنموذج يطلعنا على منهج قويم في استخدام قضية الطبع و الصنعة في نقد الشعر و الشعراء ، سمة هذا المنهج الموضوعية و الاتزان ، رغم ما نلمسه من ابن رشيق من ميل نحو الطبع ، و هو ميل ذاتي ذوقي لا يخلو منه النقد و لا ينكره ، و هذا المنهج كذلك يطلعنا على طبيعة العلاقة بين الطبع و الصنعة التي ينبغي أن تكون علاقة تكامل ، شأنها شأن قضية اللفظ والمعنى ، و حين استخدامها كمعيار للنقد لا بد من مراعاة السياقات المحيطة بالشعر و الشاعر كالتاريخ و البيئة و الحالة الاجتماعية و غير ذلك .

إضافة إلى ذلك نلاحظ كذلك أن ابن رشيق استخدم قضية الطبع و الصنعة كمعيار ثابت في نقد شعراء الأنموذج و تصنيفهم .

بالعودة إلى شيخ ابن رشيق النهشلي الذي اشتهر بكونه ميال إلى النظر في الأمور المعنوية والقيمية في قول الأدب خاصة لما اعتبر أن الشعر ثلاثة أصناف ، فشعر يكتب و يروى ، و شعر يسمع و لا يروى و شعر ينبذ و يرمى" ، فإن لا نجد في كتاب الممتع الكثير من النصوص التي تتحدث عن

1)- ابن رشيق ، الأنموذج 241 ، 242 .
2)- أحمد الهاشمي ، جواهر البلاغة ، دار الآفاق العربية ، القاهرة ، ط 1 ، 2002 م ، ص 6 .
3)- ابن رشيق ، الأنموذج ص 120 ، 122 .

الطبع و الصنعة لكننا نجد بعض الإشارات لذلك خاصة من خلال اختياراته و تعليقاته، التي تشير إلى أنه لا يميل إلى التصنع و المبالغة في ترصيع ألفاظ القول ، و إنما الاكتفاء بما تنضح به السجية ، بالتركيز على جوانب إفشاء الفضيلة و نبيل الخصال، يقول في الممتع: "قيل لرجل من من ملوك العرب: متى يكون العلم شرا من عدمه ؟ قال إذا كثر الأدب و قلت القريحة" (1)، حيث نجده في هذه الجملة ربط بين الخير و الشر ، و الصنعة و السجية ، كما نفهمه من قوله ، حيث أن اهتمام القائل عنده بالصنعة اللفظية مبعد إياه عن فضيلة القول و آدابه ، لأن الغرض هو صناعة الفضيلة والسعي في الخير ، و ليس صناعة اللفظ و التنافس في القول ، مع أن هذا التعليق ينبغي أن يفهم في محله ، إذ أنّ النهشلي ساق في ممتعه عيونا من الأدب العربي و أشعاره ، ما يشير إلى أن الصناعة مطلوبة متى ما ارتبطت بغرض سام و هدف نبيل .

موقف برية الرياضي لا يختلف كثيرا عن موقف النهشلي ، فإن كان النهشلي ينظر إلى الكتابة والأدب من الناحية القيمية فإن برية ينظر إليها من الناحية الوظيفية الإبلاغية ، فمتى ما كان القول إيجابيا لدى متلقيه المباشر كان حسنا و جيدا ، و بهذا المعطى فإن الطبع مطلوب في الدرجة الأولى عند برية والصنعة كذلك ، لكن الصنعة التي تتلاءم و المتلقي ، و ليست الصنعة التي تشين المعنى وتبعده عن ذهن المتلقي ، و الطبع المقصود كذلك عنده هو السجية التي تعني بصمة الباث ، و ليس الطبع العربي الأول ، فهو في نظره كذلك ليس حسنا إذا لم يتوافق و ذهن المتلقي ، ونجد هذه الإشارات في النص الذي سبق ذكره لما يقول: "فلا تعتد بالمعنى الجزل ما لم تلبسه لفظا جزلا لائقا بمن كاتبته ومشابها لمن راسلته فإن إلباسك المعنى و إن شرف و صلح لفظا مختلفا عن قدر المكتوب إليه لم تجر به عاداتهم ، تهجين للمعنى ، وإخلال بقدره و ظلم لحق المكتوب إليه ، و نقص مما يجب له ، كما أن في اتباع تعارفهم و ما انتشرت به عاداتهم ، و جرت به سنتهم ، قطعا لعذرهم ، و خروجا من حقوقهم و بلوغا إلى غاية مرادهم ، و إسقاطا لحجة أدبهم "(2) فالطبع و الصنعة عند برية أمور نسبية تترتبط بمقام المتلقي .

1) - النهشلي ، الممتع ص 11 .

2) - برية الرياضي ، الرسالة العذراء ، ص 37-38.

لكن برية باعتبار أنه أولى اهتمامه بالدرجة للكتابة الرسمية ، فإننا نجده واقعيا جدا في طروحاته و أفكاره ، فهو مع اهتمامه بالمتلقي و ضرورة أن تكون الكتابة له ، يشير إلى أن الكتابة فن لا يمكن لمحترفه أن يبتذله ، بل عليه أن يجهد نفسه في امتلاك ناصيته و أساليبه ، ليطبعه بسجيته، و لا يوغل في صناعته بما يغييب المعنى عن المتلقي ، فالكتابة عند برية الرياضي هي إجادة أعلى فنون الصنعة بما يوافق طبع و سجية الباث و المتلقي ، إذ يقول في ذلك: "على أن كلام الفصحاء المطبوعين ودرس رسائل المتقدمين على كل حال مما يفتق اللسان و يوسع المنطق و يشحذ الطبع ، و يستثير كوامنه إن كانت فيه سجية"(1)، فالطبع عنده كذلك يمكن اكتسابه بكثرة المخالطة و الملازمة ، وحسن الصنعة عنده يعني إجادة الكتابة وفق السجايا .

و يؤكد برية رفضه للصناعة البعيدة عن فهم المتلقي التي تعتمد التعقيد و التنطع و التي تجعل وصوله إلى المعنى صعبا ، أو تلك التي تبعث الوحشة في نفسه ، أو لا تبين حاجة الباث فيها ، بل من الضروري أن يكون الكتاب مطبوعا بواقع المتكلم أو الكاتب و المتلقي ، بما يجعل التواصل بينهما أمرا سلسا حيث ينقل في كراهية التنطّع و التكلّف في القول بعض القصص حيث كتب عيسى بن لعيهة كتابا إلى بعضهم، **فعقد** كلامه و جاز المقدار في **التنطع** ، فوقع له :

أني يكـــون بليغـا   من اسمه كان عيا
و ثالث الحرف منه   إذا كتبت مســيا

و دخل كاتب على مريض فوجده يئن من علّة فخرج من عنده فوجد طائرا يقال له الشفانين بباب الطاق فاشتراه و بعث به إليه، و كتب كتابا يتنطّع فيه، و يذكر أنه يقال له: الشفانين و أرجو أن يكون شفاء من الأنين .

فأجابه لو عطست ضبا لم تكن عندي إلا نبطيا ، فاقصر عن تنطّعك و سهل كلامك.

و مثله لمخلد الموصلي ، يهجو حبيب بن أوس الطائي :

أنت عندي عـــربي   ليس في ذاك كـــلام

1) – برية الرياضي ، الرسالة العذراء ، ص 58-59.

شعر ساقيك و فخـ ـذيك خزامى و ثمام
وقفا يحللف مـا إن أعرقت فيه الكـــرام
أنا مـا ذنبي إن كذ ذبنـى فيك الأنـــام

و يؤكد مرة أخرى أن سر صناعة الكلام ما كان مؤديا للغرض موصلا للمعنى قاضيا للحوائج مؤثرا في النفس مقبولا في الآذان حيث ينقل في هذا الصدد قصة لنفسه يقول فيها: "سألني بعض أهل العلم أن أكتب له قصة إلى جعفر بن عبد الواحد القاضي ، و قال : اكتب له قصة سهلة بليغة الألفاظ ، فقلت له : دعني أكتب لك ما يصلح للقضاء ، فغضب و قال لي ما أسألك أن تعطيني شيئا ، إنما أسألك هذا المعنى الرخيص ، فاحتملت عتبه لذمامه ، فكتبت له قصة لا تصلح أن تدفع إلا لرؤبة بن العجاج يقرؤها أو الطرماح فلما بيد القاضي أراد قراءتها فإذا هي منغلقة عليه فقال له : أنت كتبت هذه القصة ؟ قال نعم قال إذن فاقرأها ، فذهب ليقرأها ، فإذا هي أشبه بالسودانية ، استعجاما عليه ، فقال له أصلح الله القاضي إنما أقرؤها في بيتي فقال له فاطلب حاجتك إذن في بيتك فرجع إلي غضبان أسفا يشتم و يؤذي ، و سألني أن أكتب له قصة على ما أرى ، فكتبت له كتابا يشبه أن يكون من مثله إلى القضاة ، فقرأها وقضى حاجته ، و علم أنه لم يكتب واحدة منها.

ليؤكد في نهاية القصة أن العبرة في الكلام في كونه صادرا من طبع و سجية الباث و السياق الذي يعيش فيه لتؤدي رسالته وظيفتها حيث يقول: "و الكتاب إذا لم يكن شبيها بحاجة صاحبه كان أحد الاسباب المانعة"[1]، حيث أن الكتابة إذا لم تكن بهذه المعطيات قد تنقلب عواقبها على صاحبها سلبا ، مع أن جمال اللفظ و عذوبته مطلوبان بالقدر الذي يخدم المعنى و يؤثر في المتلقي إذ ينقل في تلقيح العقول حديث النبي صلى الله عليه و سلم : "الجمال في اللسان و قال عليه السلام:"إن من البيان لحكمة"[2].

و نجد كذلك في هذا الصدد في بعض كتب التراجم ، و الطبقات هذه التوجه العام عند أدباء و نقاد المغرب بالبعد عن التصنع في الكلام خاصة في العصور الأولى ، و النزوع دائما نحو الطبع والسهولة في القول و اللطافة في التعبير ، إذ يقول القاضي عياض في أحد الشخصيات الفكرية في بلاد المغرب في مرحلة متقدمة جدا وهو أبو عثمان الحداد: "كان عالما باللغة ، نافذا في النحو ،

---

1) - برية الرياضي ، الرسالة العذراء ، ص67 -68 -69 .
2)- المصدر نفسه 58 .

عربي اللسان ، جهير الصوت ، إذا لحن في كلامه قال : استغفر الله ثم كرر الكلام معربا ، و إذا تكلف الشعر أجاده" [1].

و أطلق في حق شخصية أخرى لا تقل أهمية عن الأولى و هو ابن التبان: "أنه كان من أحفظ الناس بالقرآن و التفنن في علومه و التكلّم على أصول التوحيد مع فصاحة اللسان ... عالما باللغة والنحو و الحساب و النجوم ... فصيح اللسان حافظا للقرآن بعيدا من الرياء و التصنّع [2].

حيث تتكرر الإشارة في الكثير من المناسبات بعد المغاربة الأوائل عن التصنع في القول والمبالغة في تنميق الألفاظ بالرغم من علمهم بالعربية و ضروبها .

و الشأن نفسه كذلك عند ابن رشيق الذي ترجم للكثير من الشعراء و النقاد المنتمين إلى مرحلة الدراسة ، و الكثير منهم يميلون إلى الطبع في الكلام و استهجان صناعته و تكلفه على شاكلة عبد العزيز بن أبي سهل الخشني النحوي المعروف بابن البقال (406هـ) الذي يقول عنه ابن رشيق:"كان شاعرا مطبوعا يلقي الكلام إلقاء و يسلك طريق أبي العتاهية في سهولة الطبع و لطف التركيب و قرب مأخذ الكلام "، و ينشد من غزله قوله:

يا غصنا غضا من الآس ... و درة وهيا من الناس
صورك الله على صورة ... كانت بها أسباب وسواسي
ترديد ذكرى لك في خاطري ... أكثر من ترديد أنفاسي
نسيت ودي و تناسيتني ... و ليس قلبي لك بالناسي
و ليس لي منك سوى حسرة ... تجول بين الشوق و الياس [3]

1)- القاضي عياض ، ترتيب المدارك ، 79/5 .
2)- المصدر نفسه ، 248/6 .
3)- ابن بسام ، الذخيرة 500/3 .

المطلب الثالث : الضرورة الشعرية

من أهم القضايا الأدبية التي أثارت جدلا كبير بين الشعراء و اللغويين قضية الضرورة الشعرية، بين من يقبلها و من يرفضها ، بين من يعتبرها خروجا عن أساليب العربية ، و بين من لا يعتبرها كذلك ، بين من يعتبرها مقبولة في حدود الأساليب التي قالها العرب ، و بين من يعتبرها مقبولة حتى لو خرجت عن حدود الأسلوب الذي قاله العرب ، و غير ذلك من الاختلافات المفهومية ، وعلى العموم فالضرورة الشعرية يقصد بها كما يقول مجدي و هبة و كامل المهندس أنها رخص منحت للشعراء كي يخرجوا بها عن بعض قواعد اللغة ، لا قواعد الوزن و القافية ، عندما تعرض لهم كلمة لا يؤدي معناها في موقعها سواها"[(1)] ، و هذا التعريف مع ما قد يلاحظ عليه ، إلا أنه يعطي مفهوما لحقيقة الضرورة في الشعر عند العرب، و في كل الأحوال فإن الضرورة الشعرية وقع حول مفهومها اختلاف كبير ، و تباينت أقوال النقاد في قبولها و رفضها ، حيث إن علماء اللغة والأدب الأوائل دائما ما ربطوا الضرورة بالخروج عن قواعد النحو العربي ، حيث يشير الخليل الفراهيدي (175هـ) في معرض حديثه عن مكانة الشعر و الشعراء بأنهم أمراء الكلام يصرفونه أنى شاؤا و يجوز لهم مالا يجوز لغيرهم ..."[(2)] ، أما سيبويه (180هـ) في كتابه فقد أشار بشكل مباشر إلى الضرورات الشعرية و إن لم يسمها باسمها إلى أن إشارته لها كانت واضحة في باب بعنوان ما يحتمل الشعر[(3)]، وأشار المبرد (285هـ) كذلك في كتابه المقتضب إلى الضرائر [(4)]، أما ابن السراج (316هـ) فقد أسهب و أفاض في شرح الضرورات الشعرية ، حيث قسمها إلى خمسة أنواع[(5)] ، أما السيرافي (368هـ) فقد جمع الضرائر في كتاب سماه ضرورة الشعر و هذا بعد شرحه لكتاب سيبويه [(6)]، و يمكن اعتباره أول كتاب في خصوص هذا الموضوع ، أما ابن جني (393هـ) فقد أباح الضرورة و اعتبرها مقدرة عند الشاعر و

1) – مجدي وهبة ، كامل المهندس ، معجم المصطلحات العربية في اللغة و الأدب ، ط2 مكتبة لبنان ، بيروت 1984م ، ص 230 .

2) – حازم القرطاجني ، منهاج البلغاء و سراج الأدباء ، تح: محمد الحبيب ابن الخوجة ، دار الغرب الإسلامي ، 143 .

3) – سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر (180هـ) ، الكتاب ، تح: عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1408 هـ – 1988 م ، 26/1 .

4) – المبرد ، أبو العباس محمد بن يزيد ، المقتضب ، تح: محمد عبد الخالق عظيمة ، عالم الكتب ، بيروت، 146/1 .

5) – ابن السراج ، الأصول في النحو ، تح: عبد الحسين الفتلي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط1، 1985، 435/3 .

6) – السيرافي ، أبو سعيد الحسن بن عبد الله ، ضرورة الشعر ، تح: رمضان عبد التواب ، دار النهضة العربية للطباعة و النشر ، بيروت ، ط1، 1985 .

ليست ضعفا أو حاجة لا مناص عنها [1]، و كان من المتشددين في رفض الخروج عن القواعد ، ومن الذين لم يبيحوا للشاعر الإخلال بالنحو أبو هلال العسكري (395هـ) إذ عدها حالات فردية ليس لها ضوابط ، شاعت في الشعر العربي القديم لأن الشعراء لم تكن تنقد عليهم أشعارهم ، فلم يكونوا على علم بقباحتها ، و كانوا أصحاب بداية و البداية مذلة [2].

بالحديث عن موضوع الضرورات الشعرية في المغرب الإسلامي فإن الأنظار كلها توجه صوب علم واحد و هو القزاز القيرواني ، باعتبار أن له مصنفا تحت عنوان ضرائر الشعر أوما يجوز للشاعر في الضرورة ، هذا الكتاب وضعه القزاز النحوي البارع ، دفاعا عن الشعراء وعن ما يمكن أن يحصل في لغتهم مما يبدو خروجا عن قواعد و قوانين اللغة ، متتبعا بعض المواضع التي خالف فيها بعض الشعراء ظاهرا –حسبه– قواعد اللغة في الوقت الذي هم في حل لفعل ذلك باعتبار أنّ لغة الشعر تخالف غيرها من اللغات ، رادا على من رفض قبول خروج الشعراء عن قواعد اللغة باعتباره لم يستوعب فعل الشعراء لأن ما قاموا به تستوعبه العربية ، أو أن الخلل منه في تلقيه للنص ، يقول في هذا الصدد: "هذا كتاب أذكر فيه إن شاء الله ما يجوز للشاعر عند الضرورة ، من الزيد و النقصان ، و الاتساع في سائر المعاني ، من التقديم و التأخير ، و القلب و الإبدال ، و ما يتصل بذلك من الحجج عليه ، وتبين ما يمر من معانيه فأرده إلى أصوله و أقيسه على نظائره"[3]، فهو يرى أن ما وقع في شعر العرب من مخالفات ، هو من حيث الظاهر فقط ، لأن الحقيقة أن أساليب العربية تحتمل ذلك من حيث النحو و الصرف ، فأن يعود اللغوي لبعض الأساليب المهملة بسبب ما يلجؤه إليه الشعر ليس من باب الخروج عن قوانين اللغة ، و يشير القزاز إلى أهمية الإضطلاع على ما يعد من ضرائر الشعر ليستوعب الأدب لدى الشاعر و الناقد أو لدى الباث و المتلقي ، إذ يقول في هذا الصدد : "و هو باب لا يسع الشاعر جهله و لا يستغني عن معرفته ليكون له حجة لما يقع في شعره، مما يضطر إليه من استقامة قافية أو وزن بيت ، أو إصلاح إعراب ، وذلك أن كثيرا ممن يطلب الأدب و أخذ نفسه بدراسة الكتب ، إذا مرّ به بيت لشاعر من أهل عصره أو لطالب من نظرائه ، فيه تقديم أو تأخير ، أو زيادة أو نقصان ، أو تغيير حركة عما حفظ من الأصول المؤلفة له في الكتب، أخذ في التشنيع عليه و الطعن على علمه و الإجماع على تخطئته و لو نظر بعين الحق لعلم

---

1) – ابن جني ، أبو الفتح عثمان (392هـ)، الخصائص ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط4، 325/1 .

2) – العسكري ، الصناعتين ، ص 150 . سامي عوض –مالك يحيا–كسرى زهيري، الضرورة الشعرية عند أبي عبد الله محمد بن جعفر القيرواني من خلال كتابه ضرائر الشعر ، مجلة جامعة تشرين للبحوث و الدراسات ، العدد: 06 ، 2014 ، ص 5 .

3) – القزاز، ما يجوز للشاعر في الضرورة ، 99/1 .

أن ذلك لا يخرج إلا من وجهين ، إما أن يكون ذلك جائزا لعلل تغيبت عنه و لم يبلغ النهاية من علمها ، وهو كذلك ، ووهمه الذي لعله إن نبه عليه أو أعاد نظره فيه رجع إلى الصواب ، و تخطاه إلى ما لا مطعن فيه من الكلام"(1) .

فالقزاز يريد الإشارة إلى أن الأصول المؤلفة في الكتب –كما يقول أحدهم- ضوابط عامة للغة ، و ليست سلاحا لمحاربة الشعر ، فالشاعر عند الضرورة له الخروج عليها ، و ذلك وفق أسس أشار إليها النحاة أنفسهم ، كالرد إلى أصل متروك ، أو القياس على نظائر ، وأوضح اهتمامه بالجانب النحوي فيما أخذ على الشعراء بحصره عمله في موضوعات النحو و بابتعاده عما سماه النقاد عيوبا في المعاني أو اللغة ، قال :"و لم نقصد في هذا الكتاب إلى العيوب التي تجري في الشعر مما يؤخذ على الشعراء في غير النحوو لو قصدت إلى ذلك وذكرت كل ما أخذ على الشعراء في كل فن لعظم ما أردت تقليله و صعب ما قصدت تسهيله و بعد ما أملت تقريبه"(2) .

و الحقيقة أن القزاز لم يضع منهجا للتعامل مع الضرورات الشعرية ، ولم يضع لها حصرا في الأنواع و المجالات ، و إنما حاول إعطاء نماذج لما يراه من الضرورات الشعرية التي يمكن أن تحصل للشاعر ، من مختلف الأنواع خاصة في ما يتعلق بالنحو خاصة .

إذ يمكن حصر ما قام القزاز في الآتي :

أولا: ما يتعلق بالقوافي : من الإقواء و الإكفاء و السناد و الإيطاء و الإجازة

ثانيا: الزيادة و النقص : مثل نقص حركة ، أو زيادتها ، أو نقص حرف أو زادته ، أو نقص كلمة أو زيادتها ، أو نقص جملة أو زيادتها ...

ثالثا: التقديم و التأخير: ك تقديم الحركة أو الحرف أو الكلام .

رابعا القلب و الإبدال: كإبدال الحركة من الحركة ، أو الحرف من الحرف أو الكلمة من الكلمة أو غير ذلك (3).

برية الرياضي كذلك تحدث عن الضرورة الشعرية في معرض حديثه عن الفرق بين لغة الشعر وللغة النثر ، و أشار إلى أن الضرورة الشعرية لا ينظر إليها على أنها خروج عن اللغة بقدر ماهي من

---

1) – القزاز، ما يجوز للشاعر في الضرورة ، 30 .

2) – المصدر نفسه ، 46 .

3) – حسين الأقرع ، مفهوم الشعر عند القزاز ، رسالة ماجستير ، قسم اللغة العربية و آدابها ، جامعة ورقلة ، 2015 .

الجوازات و الأمور المستساغة التي يقبلها الطبع و اللسان و السمع أساسا في الشعر ، و لا يمكن تقبلها في النثر ، و لم يشر إلى حدود و ضوابط هذه الجوازات بل اكتفى باعطاء بعض الأمثلة خاصة فيما يتعلق بالقضايا النحوية ، في إشارة إلى أن أكثر ما أثار الجدل فيما يتعلق بالضرورات الشعرية هو القضايا النحوية حيث يقول في هذا الصدد: "لا يجوز في الرسائل ما يجوز في الشعر ، لأن الشعر موضع اضطرار و الشعر مقصور مقيد بالوزن والقوافي ، فلذلك أجازوا لهم صرف مالا ينصرف من الأسماء ، و حذف مالا يحذف منها ، فاغتفروا فيه الإغراب و سوء النظم ، و التقديم و التأخير ، والإطمار في موضع الإظهار ، و ذلك كله غير مستساغ في الرسائل ، و لا جائز في البلاغات .

فمن الحذف قول الحطيئة :

فيه الرماح و فيه كل سابغة جدلاء مسرودة من صنع سلام

يريد سليمان بن داود

وكقول الآخر:

و سائلة بثعلبة ابن سير و قد علقت بثعلبة العلوق

أراد ابن سيار .

و كقول النابغة :

و كل صموت نثلة تُبّعية و نسج سليم كل قضاء ذائل

يريد سليمان" [1].

و برية يشير إلى أن أمر الضرورة مرتبط أساسا بطبية الشعر المقيد بالوزن و القافية ، فأن تقع فيه بعض الخروج عن لغة النثر فهو أمر مستساغ و العكس غير صحيح .

1) – برية الرياضي ، الرسالة العذراء ، ص 46-48.

المطلب الرابع : السرقات الأدبية

تعتبر قضية السرقات الأدبية من أهم القضايا التي شغلت الفكر الأدبي و النقدي القديم من لدن العصر الجاهلي إلى يوم الناس هذا ، لأنها تمثل معيارا لمقدرة الشاعر و إبداعه في المجال الأدبي ، و مرتبته بين الأدباء من خلال تتبع أصالة ما يقول أو تقليده لغيره أو أخذه منه ، لذلك فغير مستغرب أن نجد أهم المنظّرين الأوائل للنقد الأدبي العربي من أمثال ابن قتيبة ، و ابن المعتز ، والآمدي ، و الحاتمي ، و ابن وكيع التنيسي ، و الجرجاني ، و ابن الأثير (ضياء الدين) ، و ابن عبدربه و ابن شهيد ، و ابن بسام الأندلسيين ، و أبو البقاء الرندي و النهشلي و ابن شرف المغربييْن وغيرهم يولون هذه القضية أهمية كبيرة في مصنفاتهم لأهميتها الأدبية و النقدية و العلمية .

و الحق أن هذه المسألة تحديدا عرفت جدلا واسعا عند النقاد بين من يُفْرط في التهمة بالسرقة و من يتساهل و من هو معتدل في حكمه ، و بين من يعتبر السرقة في اللفظ و من يعتبرها في المعنى و غير ذلك ، و لا يخفى ما للجوانب الذاتية المبالغ فيها و العصبية المفرطة والسياسة أحيانا وغيرها من الأسباب غير الأدبية و العلمية ، من أثر كبير في استغلال هذه القضية رفعا ووضعا للشعراء خدمة لأغراض غير أدبية [1].

لكن مع ذلك بقيت قضية السرقات في سياقها العلمي و الأدبي ، و حافظت على أهميتها النقدية قديما و حديثا ، إذ يعدّ أغلب النقاد أن السرقة من حيث المبدأ عيبا شنيعا يسقط صاحبها من مراتب المبدعين ، حيث يقول الجرجاني مثلا : "السرق داء قديم ، و عيب عتيق ، و ما زال الشاعر يستعين بخاطر الآخر ، و يستمد من قريحته و يعتمد على معناه و لفظه "[2] ، هذا الكلام قاله الجرجاني في معرض محاكمته للمتنبي مع خصومه ، و كم شهد الدارسون لعدالة الجرجاني في محكمته هذه [3]، خاصة إذا ما قورن بابن وكيع الذي أفرط في النيل من المتنبي في كتابه المنصف ،

---

1)- بدوي طبانه ، السرقات الأدبية ، دراسة في ابتكار الأعمال الأدبية وتقليدها، دار الثقافة ، بيروت . 1986م ، ص 86 .

2)- الجرجاني، أبو الحسن (392هـ) ، الوساطة بين المتنبي وخصومه ، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، ص 214 .

3)- محمد مرتاض ، النقد الأدبي في المغرب العربي ، ص 15 .

حتى قيل عنه أنه كان مجحفا و لم يكن منصفا في ذلك[1] ، و العدل في هذه القضية أن يفصّل المؤلف فيها كما فعل الكثير من المؤلفين القدامى مثل بعض المذكورين سابقا .

من خلال كتاب الأنموذج يبدو ابن رشيق مهتما جدا بهذه القضية ، و هذا أمر معقول لأهمية هذه القضية في تصنيف الشعراء ، حيث يتأكد لدى المطّلع على الكتاب أن ابن رشيق لا يفوّت الفرصة التي يجد فيها إشارة قريبة أو بعيدة منها ، و الحقّ أن ابن رشيق يعدّ من أولئك النقّاد القلائل الذين يمثلون الناقد العالم بما في هذه الكلمة من معنى حديث لعلم النقد ، و مذهبه النقدي مذهب تخطّى الآراء العربية الكلاسيكية كما عرفت لدى نقاد سابقين [2]، وتصوره لهذه المسألة في كتابيه قراضة الذّهب و العمدة يؤكد هذا الحكم ، الذي نجده يتطابق تماما مع كتاب الأنموذج في الإشارات و الأحكام النقدية المباشرة و غير المباشرة التي تتعلق بهذه المسألة .

من خلال كتابي العمدة و القراضة يتضح لنا جليا أن ابن رشيق استوعب في دراسته للقضية أغلب آراء سابقيه و أثبت في كم من مرة أنه بارع في هذا المجال ، و استيعابه لهذه المسألة في ظل مناقشة متأنية هداه إلى ابتكار أفكار جديدة صرح بها لما اعترف في كتابه العمدة أنه استند في هذه القضية على رأي و مصطلحات الحاتمي في كتابه حلية المحاضرة ، و لم يخف إعجابه كذلك بموقف الجرجاني السابق منها كذلك [3].

يرى ابن رشيق أن موضوع السرقات واسع جدا و ادعاء السلامة منه أمر بعيد ، لأن السرقة تحتوي على أشياء غامضة يصعب كشفها إلا على البصير الحاذق بصناعة الشعر و نقده [4]، لذلك فهو لا يقدم تعريفا جامعا في المسألة ، و هذا بعد التقديم الذي قدمه و هذا يبدو أمرا متعمَّدًا لأن الحدّ يضيِّق توسّعها الواقعي ، بل يقسّم ابن رشيق السرقة مباشرة إلى ثلاثة أقسام[5] :

---

1)- العمدة لابن رشيق ، 2 /281 .
2)- ابن رشيق ، قراضة الذهب ص 7 .
3)- ابن رشيق ، العمدة 280/2 .
4)- المصدر نفسه 280/2.
5)- المصدر نفسه 281/2 .

أ- سرقة اللفظ مع المعنى (النسخ) .

ب- سرقة المعنى مع تغيير اللفظ (السلخ).

ت- سرقة تعتمد على تغيير بعض المعنى أو قلبه (المسخ) [1].

و تتولّد عن هذه الأنواع سلسلة من الاصطلاحات لأوجه السرقات يوردها ابن رشيق مؤيدة بالشواهد و الشرح ، و أومأ إليها في كتابه الأنموذج بشكل مباشر و غير مباشر ، و فيما يأتي نلخص هذه المصطلحات ملحقة بشواهدها التي ذكرها ابن رشيق في الأنموذج مع العلم أن ابن رشيق صرح أنها مصطلحات متداخلة فيما بينها و قد يستخدم أحيانا بعضها محل بعض[2]:

1- الاصطراف: و هو أن يعجب الشاعر ببيت من الشعر فيصرفه إلى نفسه ، و يقسّم ابن رشيق الاصطراف إلى قسمين[3] :

أ- الاختلاب أو الاستلحاق: و هو اصطراف بيت على جهة المثل[4] .

ب- الانتحال: و هو ادعاء الشاعر لنفسه شعر غيره[5].

ذكر ابن رشيق في الأنموذج مصطلح الاصطراف و أورد شواهد عليه حيث قال في ترجمة علي بن يوسف التونسي: كان علي يستضعف شعراء عصره و يهتدم أبياتهم و ربما اصطرفها جملة واحدة ، ولا يرى ذلك عيبا بل يقول : أنا فرزدق [6] هذه الطبقة فهو يلتهم كلام الناس .... و اصطرف أبياتا للجراوي الكاتب فنازعه إياها و هجاه بقصيدة [7].

و ذكر الاختلاب في ترجمة ابن الغطاس لما أورد له :

---

1)- مصطلح المسخ لم يذكره ابن رشيق بل ذكره ضياء الدين ابن الأثير ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر 345/2.

2)- ابن رشيق، العمدة 2 / 242 .

3)- المصدر نفسه 282/2 .

4)- المصدر نفسه 282/2 .

5)- المصدر نفسه 282/2 .

6)- كان الفرزدق يفعل ذلك مع الشعراء الأقل شأنا منه ، انظر: عبد الفتاح كيليطو ، الكتابة و التناسخ ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء -المغرب- ط1 ، 1985م ، تر: عبد السلام بنعبد العالي ، ص 27 .

7)- ابن رشيق ، الأنموذج ص 299 .

و كم ليلةٍ قد جاذبتْ راحـــتِي بها   نُهُود العذارى في قميص الدجى الوحْفِ
و من يأْمنِ الدنيا يكن مثلَ قابضٍ   على الماء خانتْهُ الفـــروج من الكـــفّ

قال ابن رشيق: "البيت الأخير مختلب من قول الأول" :

و من يأمن الدنيا يكن مثل قابض   على الماء خانته فروجُ الأصابعِ

"غير أنه غيّر آخره ، و قد تقدمه سواه إلى اختلاب هذا البيت فقال ":

و من يأمن الدنيا يكن مثل قابض   على الماء لم ترجع بشيء أنامله[1]

2- الإغارة: و هي أن يأتي الشاعر بمعنى مليح فيأخذه من هو أعظم ذكرا أو أكثر شهرة ، فيروى له دون قائله الحقيقي[2] .

3- الغصب: و هو أن يأخذ الشاعر بيتا من شاعر آخر عن طريق التهديد [3].

4- المرافدة أو الاسترفاد: و هي أن يأخذ الشاعر بيتا من أخر عن طريق الهبة أو الهدية [4].

5- الاهتدام أو النسخ : و هو السرقة فيما دون البيت [5].

ذكر ابن رشيق مثالا على الاهتدام عند علي بن يوسف التونسي المذكور في الاصطراف قال عنه: "كان قادرا قوي الكلام جيد الرصف بعيد المرمى ، و كان علي يستضعف شعراء عصره ويهتدم أبياتهم و ربما اصطرفها جملة واحدة ، و لا يرى ذلك عيبا بل يقول : أنا فرزدق هذه الطبقة فهو يلتهم كلام الناس ، فعل ذلك بمحمد بن إبراهيم الكموني في بيت اهتدمه من قصيدة له و هو" :

يُلقِي شذاهُ بقلبٍ غير منقلبِ   و صفْحَتيْه بعطفٍ غير منعطِفِ [6]

6- النظر و الملاحظة : و هو تساوي المعنييان في اللفظ مع خفاء الأخذ ، و كذلك إذا تضاد المعنيان و دل أحدهما على الآخر [7].

7- الإلمام : و هو نوع من النظر ، أو هو تضاد المعنيين [1].

---

1)- ابن رشيق ، الأنموذج ، ص 231 ، 233 .
2)- ابن رشيق ، العمدة 284/2 .
3)- المصدر نفسه 285/2 .
4)- المصدر نفسه 286/2 .
5)- المصدر نفسه 287/2 .
6)- ابن رشيق ، الأنموذج ص 299 .
7)- ابن رشيق ، العمدة 287/2.

8- الاختلاس أو النقل: هو نقل المعنى من غرض إلى غرض آخر ، كنقل المعنى مثلا من الغزل إلى المديح [2].

9- الموازنة: هي أخذ بنية الكلام فقط [3].

10- العكس : هو جعل مكان كل لفظة ضدها [4].

و ذكره ابن رشيق في الأنموذج تحت مصطلح القلب[5] عند ذكره لشعر ابن الأبزاري :

و لما التقينا بعد أن ظنّ حاسدٌ   على الحبّ ألا نلتقي آخـــرَ الدهـــرِ

بثثنا شكايا أنْفُس لم يكن لهَـا   على طول أيام التفرّق مـــن صبـــرِ

و كادت لذاذات **التداني** لقُربنا   من **الوصل** أن تقضي علينا و لا **ندري**

قال ابن رشيق : "ما أحسن ما أخذ قول أبي تمام" :

أضلّهُ **البيْنُ** حتّى أنّه رَجُل   لو مات مِن شغلِهِ **بالبيْن** ما **علِمَا**

"فقلبه و صرفه إلى حيث أراد "[6] ، حيث نجد أنّ الأبزاري عكس ثلاث كلمات أساسية في بيت أبي تمام في صناعة بيته فأبدل التداني بالبين ، و والوصل بالبين كذلك ، و عدم الدراية بالعلم .

11- المواردة : تكون المواردة إذا لم يسمع الشاعر بقول الآخر و كانا في عصر واحد [7]، ويكون هذا التوارد في المعاني أوفي الألفاظ و المعاني أحيانا ، و نقل ابن رشيق في ترجمة أبي حبيب إشارة إلى المواردة لما نقل شعره الذي يقول فيه :

خطّتْ يدُ الحســنِ على خدّهِ   لامًا من المسكِ شديدُ السوادِ

حتّى إذا جـــاء إلى نِصفــهِ   وهمَّ أن يزداد جفّ المـــداد

فحقّ لي فيه لبـــاسُ الضّنى   و قلّ لي فيه لباسُ الحـــدادِ

---

1)- ابن رشيق ، العمدة 287/2 .

2)- المصدر نفسه 287/2 .

3)- المصدر نفسه 287/2 .

4)- المصدر نفسه 287/2 .

5)- ابن رشيق ، الأنموذج ص 130 ،131 و ينظر الشيخ بوقربة ، المنهج النقدي عند ابن رشيق القيرواني ، ص 242 .

6)- ابن رشيق ، المصدر نفسه ص 130 ، 131 .

7)- ابن رشيق ، العمدة 282/2 .

قال ابن رشيق : "هذه إشارة طريفة ظريفة خفية خفيفة ، و لما قال جف المداد ، دل على انقطاع الخط و خفاء منتهاه ، فاستحق عند نفسه لذلك لبس الضنى مشاكلة ، و قال : "لباس الحداد" لما بينهما من المزية ، و قريب من هذه الإشارة قولي" :

كأنّمّا عارِضُـــــهُ عندمـــا مثّل فيه الشعرُ ما مثـــــلا
صحيفةُ الكاتبِ لم يستطعْ يكتبَ فيها غيرَ أنْ بسملا [1]

و ذكر مثالا آخر لها كذلك في ترجمته للدركادو[2] .

12- الالتقاط و التلفيق أو الاجتذاب و التركيب: و هو تأليف البيت من أبيات مختلفة [3].

13- كشف المعنى : و هو توضيح المعنى المأخوذ و إظهاره [4].

هذه هي المصطلحات التي أوردها ابن رشيق في العمدة ، التي نجد الكثير من الأمثلة عليها في كتاب الأنموذج ، لكن الملفت أن فيه بعض المصطلحات الإضافية لا أثر لها في العمدة نذكرها وهي :

1- **التطفّل** : بما أن كتاب الأنموذج في أصله ليس كتاب تنظير للنقد فإننا لا نجد تعاريف أوشروحا للمفاهيم أو المصطلحات التي يوردها ابن رشيق فيه كما هو الشأن مع مصطلح التطفّل ، لكننا نستطيع الاستنتاج أن مفهومه يقرب من مصطلح الاهتدام الذي هو الأخذ فيما دون البيت من الشعر ، و شاهد ابن رشيق يوضح ذلك، حيث قال في ترجمة ابن زنجي : "صنع في قتلة الرافضة قصيدة ....اختيرت بأجمعها ، منها" :

شفى الغيظُ في طيِّ الضميرِ المكْتَمِ دماءَ كلابٍ حُلِّلتْ في المحــــرّمِ
لقدْ رفضتْكُم كلُّ أرضٍ و بقعــــةٍ و قدْ صرخت منكم بقاعُ جهنّم
فذوقوا كما ذقنـــاه أيام كفركــــمْ من الغيظ في أكبادنا و التـــأ لّمِّ

قال ابن رشيق : "تطفّل في هذا البيت على طفيل الغنوي و افتقر إليه لأنه قال" :

فذوقوا كما ذقنا غداة محجر من الغيظ في أكبادنا و التحوب [5]

---

1)- ابن رشيق ، الأنموذج ص 141 ، 144 .
2)- المصدر نفسه ص 225 .
3)- ابن رشيق ، العمدة 289/2 .
4)- المصدر نفسه 290/2 .
5)- ابن رشيق ، الأنموذج 107 ، 110 .

هذا المثال يبين أن ابن زنجي اهتدم بيت طفيل الغنوي و أخذ أربعة أخماسه و لم يأخذه كله أي لم يصرفه لنفسه كاملا بل غيّر فيه ، لذلك يمكننا إدراج هذا المصطلح مع الاهتدام ، و ابن رشيق كان قد صرّح كما نُقِل سابقا أن هذه المصطلحات كثيرة التداخل فيما بينها ، لكن استخدام ابن رشيق لمصطلح التطفّل يوحي باستثقاله لهذا النوع من الأخذ لاعتبارات قد تعود إلى حجم الآخذ والمأخوذ منه في الوزن الشعري أو لشكل الأخذ إذ أنّه لا يوحي بمقدرة الآخذ الإبداعية إذ لا يعدو أن يكون تغيير بعض الألفاظ للهروب من تهمة السرقة أو الانتحال ، كالطفيلي[1] الذي يلتمس سببا يتهرّب به من مساءلة صاحب البيت في استغلال لابن رشيق لثقافته الفقهية .

2- **الاحتذاء**: و هو قريب كذلك من مفهوم الاهتدام ، إلا أننا نستشف من استعمال ابن رشيق له أن أخذ المعنى يغلب في مفهوم الاحتذاء على أخذ اللفظ مثاله، في ترجمة المثقال الأزدي ، قال فيه ابن رشيق :"كان يألف غلاما نصرانيا خمارا فعلقه فاشتهر به ، أنشدته لي" :

رأيتُ بهرامَ و الثُريّـــا و المشتري في القران كرّهْ
كراحةٍ خُيِّرتْ فحارتْ ما بيْنَ ياقوتـــةٍ و دُرّهْ

فاحتذى ذلك و قال :

يا ساقيَ الكاسِ اسق صحْبِي وواسِيني إنّنـــــي أُواسي
و انظـــرْ إلى حيرةِ الثُريّـــا و الليل قد سُدّ باندمـــاسِ
ما بين بَهرامهـــا الملاحـــي و بين برجيسها المؤاسِـي [2]

ونقل كذلك في ترجمة الخولاني شعرا له يقول فيه :

فالليلُ ألبسنا الحدادَ و سرّنا و الصبحُ ألبسنا البياضَ و ساءَ

قال ابن رشيق: و قد احتذيت مثال هذا المعنى فقلت و زدت تشبيها في البيت الثاني:

سُرِرتَ بليلٍ كالحدادِ لبستَـــه و ساءكَ صُبْحٌ كالرداءِ المصْبَغِ
و ما ذاك إلا للشبابِ و حُبِّهِ و كُرهُ مشيبٍ ناصِلٍ و مُثمَّغِ[1]

---

1)- الخطيب البغدادي، التطفيل و حكايات الطفيليين و أخبارهم و نوادر كلامهم وأشعارهم ، دار ابن حزم ، بيروت ، لبنان ص5.

2)- ابن رشيق ، الأنموذج ص 235 ، 238 .

و ابن رشيق صرّح في هذا المثال الثاني أنه احتذى المعنى ، و البيت يوضح أنه أخذ ألفاظا كذلك مثل : "الليل" "الحداد" "لبسته" "صباح" ، ما يشير إلى أن مصطلح الاحتذاء يقارب و يوافق الاهتدام ، لكن مصطلح الاحتذاء ألطف دلالة من الاهتدام المشتق من الهدم و لا يخف ما في هذه الكلمة من السلبية ، لكن ابن رشيق لم يشر في أغلب المصطلحات التي أوردها قسيمة للسرقة إلى ما هو مستحسن منها و ما هو مستقبح ، لاعتداله في استعمال هذه الوسيلة في النقد ، لكنه في الأنموذج و في موضع واحد من مجموع سبعة و عشرين موضعا أورد فيها مسألة السرقة ،ذكر أن أحد الشعراء و هو ابن مشرق السلمي اهتدم له بيتا و ظلمه فيه لمّا أورد شعره الذي يقول فيه :

قلتُ لمَّا أنْ رمى كبِدِي   بِسهامِ الغُنْجِ و الحَـوَرِ
أنت في حلٍّ و في سَعَةٍ   مِن دمِي يا طلعةَ القَمَرِ
ليْتنِي إذ رحتَ تظلمُنــي   أتملَّى منـــــكَ بالنَظَــرِ

قال ابن رشيق : "أما البيت الأوسط فقد ظلمني فيه ظلما ظاهرا لأني أنشدته لنفسي غير مرة" :

أنت في حلّ و في سعَةٍ   من دمي يامن تَقَّلَدَهُ (2)

و لا يُعلَمُ لماذا استعمل ابن رشيق مصطلح الظلم و لم يستعمل مصطلحا آخر كالسرقة الصريحة مثلا أو غيرها لكن المؤكد أنه يشعر بالظلم جرّاء اهتدام هذا الشاعر لبيته رغم أنه أورد أمثلة كثيرة للاهتدام و لم يورد فيها مصطلح الظلم ، بل لم يشر إلى ملاحظة سلبية في ذلك ، و قد يكون دافع موقف ابن رشيق من هذا المثال أن الشاعر أفسد معناه لمّا اهتدمه أو أخذه على وجه السرقة المستقبحة خاصة وأن الشاعر من معاصري ابن رشيق و لا يخف ما يكون بين المتعاصرين من التنافس .

قبل الانتهاء من هذه المسألة تجدر الإشارة إلى أن ابن رشيق في كتابه قراضة الذهب الذي ألفه خصيصا لمناقشة مسألة السرقات ، عالج هذه المسألة بنفس الفلسفة لكن بمنهج مختلف ، حيث أنه من خلال طرحه فيه يؤكد على أن قضية السرقات واسعة والسلامة منها بعيدة و فيها مسائل غامضة إلا عن الحاذقين في الأدب و النقد ، و على أن الأخذ في أصله ليس عيبا ، فرغم أنّ اتكّال الشاعر على السرقة بلادة و عجز كما قال ، إلا أن تركه للمعاني التي سُبِق إليها جهل ، بل يقرّر ابن

1)- ابن رشيق ، الأنموذج ، ص 421 ، 423 .
2)- المصدر نفسه ص 378 ، 380 .

رشيق أن الباثّ إذا تناول معنىً فأجاد اختصاره أو بسطه، أو لطّف عبارته أو أحسن وزنه وموسيقاه، كان أولى به من مبدعه ، أما إذا تساوى مع مبدعه فيه فلا فضل له إلا حسن الاقتداء أما إذا قصّر في احتذائه ، فذاك دليل على ضعف مقدرته(1) ، و لكي يؤكد ما يراه في هذه القضية أشار إلى أن الفرزدق كان مثالا لذلك ، لأنه كان راوية للشعر مكثرا منه ، قاهرا لشعراء عصره مهيبا فيهم و لم يكن أحدهم يرميه بالعجز و التقصير فيتهمه بالسرقة (2) ، بل قرر بعض المبارت الموضوعية للذين يقعون أو يفعلون ذلك ، و هي عبارة عن ظواهر يمكن أن تنعكس على شعر الشاعر فيتهم بالسرقة و هي(3) :

أولا: اعتماد الشاعر على ذاكرته: حيث أن اعتماد الشاعر على ذاكرته كما هو الحال عند الكثير من الشعراء قد يرشح عنه ورود معانيهم و أساليبهم في شعره .

ثانيا: أكدّ ابن رشيق كثيرا على أن الشاعر الذي يروي الشعر ، يصبح شعره مثأثرا أو على نسق الشعراء الذين يروي لهم كثيرا .

ثالثا: توارد الخواطر: ألمح ابن رشيق إلى نقطة مهمة جدا تدلّ على توسع أفقه الفكري والأدبي ، مفادها أن الظروف النفسية التي يمرّ بها الشعراء باختلاف المؤثرات الطارئة عليها ، إن تشابهت فإنها قد تكون باعثا على تشابه الإنتاج الفني للشعراء ، و هذه الجزئية هي الوجه الآخر للماوردة المذكورة سابقا في أنواع السرقات و هي تمثل العرض ، و ما نذكره هنا يمثل جوهر هذه الماوردة ، و قد ذكر ابن رشيق في الأنموذج أمثلة كثيرة في خصوص هذه الجزئية، من ذلك ما قاله عقب إيراده لشعر ابن سفيان الصيرفي الذي يقول فيه :

و جُرْدٌ غَرابيبُ و مُرْدٌ غَطَارِفُ   و سُمْرٌ سَلاهِيبُ و شِيبٌ أَكَارِمُ
تخب بهم يوم اللّقـاءِ كأنَّهـــا   زعازِعِ ريحٍ زمّهـــنَ الشّكائِـــمُ

---

1)- ابن رشيق ، العمدة 281/2 .

2)- ابن رشيق ، قراضة الذهب ص 56 .

3)- هذه الأفكار منثورة عند ابن رشيق في قراضة الذهب في نقد أشعار العرب ، تح : منيف موسى ، دار الفكر اللبناني ، بيروت، ص 20 و ما بعدها ، و ينظر الشيخ بوقربة ، النقد المنهجي عند ابن رشيق ص 245 .

قال ابن رشيق : "فهذا كلام منتقى ليس فوقه مرتقى ، اتبع فيه أو **وارد** ، و مازال الناس على هذا غير أن الحاذق من باعد " [1]، لكنه لم يذكر من وارد الصيرفي في شعره .

هذه المبررات الثلاثة السابقة ترشدنا إلى بعض المفاهيم الفنية التي أومأ إليها ابن رشيق في قراضة الذهب خاصة ، و أكدها بالفعل في الأنموذج و هي :

1- **فتح باب القول**:

تماشيا مع منهج ابن رشيق العام الذي قرّره في هذه المسألة من كون أن الشعراء في عملهم الابداعي لا يمكنهم الاستغناء أو إقصاء الموروث الأدبي الذي سبقهم ، بل هم مضطرون إلى الاعتماد عليه للإبداع، لذلك فأن يستلهم الشاعر معنى لطيفا يؤسس به مفهوما جماليا جديدا في شعره فهذا من صميم العملية الشعرية ، و هو ما يعبّر عنه ابن رشيق بـ فتح باب القول[2] و مثاله في الأنموذج :

قال في ترجمة عمران بن سليمان المسيلي: "ليس قِبَلَه كبير معرفة فكنت أناوله المعاني و أفتح له أبواب الكلام إلى أن دخل الجملة و أنشد في المحافل ومدح الأشراف" [3].

و في إشارة قريبة منه كذلك قال : " و تذاكرت يوما مرة أنا و أبو العباس ابن حديدة ما قيل في دنو السحاب فعرض لنا قول محمود بن الحسين كشاجم في سحابة وصفها :

دَنَتْ من الأرضِ على كلالِها   كأنمّاَ تسألهُا عن حالهِا

فقلت لو أشار إلى العناق لكان أوصف فأنشدني في الغد من قصيدة :

يا رُبَّ مُثقلةٍ تنوءُ بِثِقلِهَا   تَسقِي البِلادَ بوابِلٍ غيْدَاقِ [4]

2- توليد المعاني و ابتكارها[5]: هذا المفهوم يذكره ابن رشيق كذلك ليؤكد على أن كل ما يقوله من تلاقح للخواطر و المعاني بين الشعراء لا ينفي أن من الشعراء الكثير ممن يقدر على توليد معاني جديدة و ابتكارها ، للدلالة على أن نبع الابداع لا يجف، ومن أمثلته في الأنموذج :

1)- ابن رشيق، الأنموذج ص 99 ، 100 .

2)- ابن رشيق ، قراضة الذهب ص 41 ، 44 .

3)- ابن رشيق، الأنموذج ص 311 .

4)- المصدر نفسه ص 73 .

5)- عبد الفتاح كيليطو ، الكتابة و التناسخ ، ص 27 .

ماقاله في ابن حربون " و قد تصفحت جميع ما رأيت له من الشعر فلم أجده ولّد معنى انفرد به و لا زاده .... " [1].

وقال كذلك في محمد بن أبي علي معلقا على بيتيه التاليين :

و أيَّامُنَا فِي مُنَى الصالحَاتِ   مَضَيْنَ و نحنُ لها عشّقُ
كأنَّ محباً توقَّى الفِّـــــراقَ   دعا فأمْشَى له الأَينُقُ

"و هذا شعر سلس و معنى بكر طريف جدا ، وما أظنه تعوطي و لا ابتذل" [2].

و هذا المذهب لم يكن رأي ابن رشيق وحده كما يبدو بل كان موقفا جمْعيا متعارفا عليه في ذلك الزمن حيث ينقل في الأنموذج قول الأربسي في حق النهشلي :"هو مؤلف كلام غير مخترع فأغلظت له في الجواب"[3] ، حيث يؤكد ابن رشيق من خلال دفاعه عن شيخه أنّه كان مؤمنا تماما بالإبداع والابتكار في الشعر رغم ما أفاض به في قضايا الأخذ الأدبي و توارد الأفكار و الخواطر.

3 – **الأخذ الأدبي**: مصطلح الأخذ الذي يتكرّر كثيرا عند ابن رشيق كبديل لمصطلح السرقة في مختلف كتبه ، يلخص لنا تصوره لهذه المسألة بكل التأصيل النظري والتطبيق العملي الذي سبق ، حيث أن ابن رشيق في كتابه الأنموذج في كل المواضع السبعة والعشرين التي تعرّض فيها لمسألة السرقات لم يذكر هذا المصطلح -السرقة- بل عبّر عنها بمصطلح الأخذ[4] أومصطلحات أخرى إلا في موضع وحيد و ذكر حينها أنه تعمّد التحامل على أحد الشيوخ وهو الأربسي لما غضّ من شيخه عبد الكريم وقال هو "**مؤلف كلام غير مخترع** فأغلظت له في الجواب ، فالتفت إلى منكرا علي ، و قال:و أنت و ما دخولك بين الشيوخ يا بني ؟ فقلت و من يكون الشيخ أبقاه الله ؟

فعرفني بنفسه ثم أخرج رقعة بخطه فيها من شعره :

1)- ابن رشيق ، الأنموذج ص 104 ، 106 .
2)- المصدر نفسه ص 347 ، 349 .
3)- المصدر نفسه 425 ، 429 .
4)- استخدم هذا المصطلح كذلك الدكتور محمد مرتاض عند مناقشته لمسألة السرقة عند نقاد المغرب العربي ، انظر:محمد مرتاض، النقد الأدبي القديم في المغرب العربي، ص 73 .

إياةُ الشَّمسِ حواهُ جسمُ لؤلؤةٍ تغيبُ من لطفٍ فيهـا و لـم تغِبِ
صفراءُ مثل النضار السُكب لابسةً درعا مكلّلـــة دُرًا مـــن الحُبَبِ
لم يتركِ الدهرُ منها غير رائحةٍ تضوّعتْ وَسَنًا ينســـاحُ كاللَّهَبِ
إذا النديمُ تَلَقَّاهَـــا ليشربَهَـــا صاغتْ لهُ الرّاحَ أطرافا من الذّهبِ

فقال كيف رأيت:

فقلت: –وأردت الاشتطاط عليه– : أما البيت الأول فناقص الصنعة مسروق المعنى"(1).

كل هذا يعتبر مؤشرا من ابن رشيق لتحفّظه أوتعقلّه في استخدام هذه الوسيلة بهذا المصطلح الموحي بالتهمة، بالنظر للسياق الزمني المتأخر ، أين حُفِظ الشعر و دُوِّن ، و انتشرت مجالس الإنشاد و اشتهرت منتدياته ، بقدر يضيِّق مجال السرقة و الانتحال ، و إن استخدم ابن رشيق هذا المصطلح في العمدة فالأمر حسب رأيي لا يعدو رغبة منه في عدم الخروج عن العرف العلمي الذي اشتهر في تلك المرحلة عند مختلف النقاد و المصنّفين ، و الحقّ أن هذا المصطلح هو الأنسب في الاستعمال في حق الشعراء لما يحمله مصطلح السرقة من الاتهام ، خاصة أن استعمال مصطلح السرقة لا يعدو أن يكون عرفا علميا كما سبق، و إن كان بعض الباحثين المعاصرين يميلون إلى استخدام مصطلح "الخلق الأدبي" ، لكن يبق مصطلح "الأخذ" هو الأنسب لما يحمله الأول من تحفظ ديني يُستَحسن عدم إغفاله .

و كمثال لاستخدام ابن رشيق لهذا المصطلح في الأنموذج ما ذكره في ترجمة الحروري النحوي : من شعره:

بِهِ السُّحْبُ تُرْجَى و الصواعق تُتَّقَى ومـاءُ الحَيَا ينهلُّ و النّارُ تحرقُ
هنالِكُمْ يُلقِـــي العصيَّ معاشِـــرٌ سوى ما شدا طيرُ الفلاة المحلَّقُ
و يرتفعُ الحزنُ الصليبُ عجاجـــةً علـــى أنَّهُ من وابلِ الدّم مغدقُ

قال ابن رشيق : أخذ هذا المعني من قولي :

ملكٌ بل بالدماءِ تَرَى الأر ضَ فَمَا للجيوشِ فِيها غُبَارُ (2)

1)- ابن رشيق ، الأنموذج ص 425 ، 429 .
2)- المصدر نفسه ، ص 162 ، 166 .

و ذكره كذلك في ترجمة الشريف الزيدي : من شعره و قد عمد إلى إجانتين من الشراب فوجد إحداهما قد صارت خلا :

رُبَّ أختيْن أمستا طوعَ ملكـي ... نجل أم تصبو إليها الرجـــــالُ
هذه حسنُها مقيمٌ و هـــذي ... غيَّرتْ حسنَ حَالهَا الأحـــوالُ
فافتضاض الحسناءِ سهلٌ حرامٌ ... و افتضاض السوآءِ صعبٌ حـلالُ

قال ابن رشيق أخذ البيت الأخير من قول ابن هرمة ، و قد توعدّه الحسن بن زيد في شرب الخمر :

أرى طيبَ الحلالِ علي خُبْثاً ... و طيبُ النفْسِ في خُبْثِ الحرامِ (1)

و قال في ترجمة قرهب بن جابر الخزاعي: من شعره :

هُدِّدتُ بالسلطانِ فيكَ و إنّما ... أخشى صدودَكَ لا منَ السلطانِ
أهوى الملامةَ فيكَ حتى لو دَرَى ... أخْذَ الرشا مني الذي يلحـــانِي
حسبي لقولِ النّاسِ بعد منيَّتِـي ... هـــذا قتيـلٌ في وِدادِ فـــلانِ

قال ابن رشيق : أخذه من قول أبي الشيص ، وزاد فيه :

أجدُ الملامةَ في هواكَ لذيذةً ... حُباً لذِكرِكَ فليَلُمني اللُوَّمُ (2)

و غيرها من المواضع الأخرى الكثيرة التي يعبر فيها بمصطلح الأخذ أو بمصطلح مقارب له، بمجموع سبعة و عشرين موضعا أي سبع و عشرين ترجمة من مجموع مائة أي أنه عدد معتبر يصل إلى حدود الثلث ، ما يدلنا على اهتمام ابن رشيق بقضية السرقة التي اهتم فيها كثيرا بالجوانب الشكلية والدلالية للنصوص و أهمل على ما يبدو فعل الشعراء ليتجنّب مغبة السقوط في التهم و الصراع المخرج من العملية الأدبية ، ثم إنه بفعله هذا يطبق ما قرّره من صعوبة الفصل في هذه المسألة إلا عن الحذاق في الأدب و النقد ، و توقفه في الحكم المباشر لا يعني عجزه أو تخلّفه عن هؤلاء الحذاق بما أنه شرح الشواهد و الأمثلة بقدر لا بأس به ، و بتركيز ابن رشيق على النصوص و تواردها وتداخلها، وغضه الطرف قليلا عن المبدعين أو المؤلفين يحصل بذلك في تفكيره اتفاق مع بعض النظريات الحديثة في علم الأدب و هي نظرية التناص كما هي معروفة عند جوليا كريستيفا و جيرار جينت وغيرهم ، كما يقول بعض الباحثين المعاصرين ، لأن هذه النظرية جاءت معتمدة على مبدأ موت

1)- ابن رشيق ، الأنموذج ص 273 ، 276 .
2)- المصدر نفسه ص 324 ، 330 .

المؤلف ، أي أن النصوص هي التي تتفاعل و تتداخل [1]، أي أن السرقات الأدبية و نظرية التناص تلتقيان في هامش محدود ، و ذكري لهذا الالتقاء بينهم من باب الإشارة المعرفية و ليس لغرض تأكيد الأسبقية أو نفيها فهذا النهج غير مجدي و يعبر عن عقد قد تكون نفسية حسب رأيي ، هذا مع اقتناعي أنّ قضيّتي التناص و السرقات ، لا يمكن جمعهما في مبحث واحد على أساس أن فلسفة كل واحدة تختلف عن الأخرى و إن اتّفقتا من حيث بعض المظاهر الشكلية ، فالأولى قائمة على وفق الفكر البنوي ، بتقرير مبدأ موت المؤلف ، و الثانية جاءت في سياق تاريخي متقدّم جدا الغرض منها نقد منتوج المؤلفين و الشعراء ، لكن هذا لا ينفي إمكانية إفادة الأولى من الثانية لكنه يبقى مجرد احتمال، البحث العلمي مستقبلا كفيل بتأكيده أو نفيه .

يمكن القول أن ابن رشيق كان متزّنا في فكره و قوله في معالجة هذه القضية حيث أنه لم يدخل في مساجلات الاتهام و التعصب كما وقع لبعض النقّاد ، بل عالج المسألة بكثير من الموضوعية و التفتح و الاعتدال ، و كان متوازنا مع نفسه كذلك من خلال مؤلفاته التي يأخذ بعضها بأعناق بعض ، حيث أن ما يقرّره في العمدة و القراضة لا يتعارض مع ما يثبته في الأنموذج بل يؤكده و يعضده بالفعل و الفكر ، و هذا الفكر أفاده كثيرا في ترجماته في كتاب الأنموذج إذ جاء مؤلفا لخدمة أغراض أدبية متخصصة ، وفق منهج تأليف ناقد و هادف ، ما يجعل كتاب الأنموذج ليس مجرد كتاب تراجم كبقية المصنفات .

عند النقاد المغاربة الذين سبقوا ابن رشيق والذين عالجوا هذه القضية نجد اسمان مهمّان الأول هو برية الرياضي و الثاني هو الرقيق القيرواني .

برية الرياضي بالرغم من أنّه يرى الكتابة الأدبية وظيفة أخلاقية ، و عادة ما يذكر أن الشعر يقال ليتمثل به ، أي ليصير مثلا يحتذى به و حكمة عابرة يستفاد منها خاصة في كتاب تلقيح العقول، و من كان هذا ديدنه فإنه لا يبالي بالمعاني و الألفاظ إن كانت للشاعر صاحب الابيات أم أخذها من غيره ، لكن الواقع غير ذلك ، حيث صرح برية الرياضي بشكل مباشر إلى أن أخذ أفكار الغير على سبيل الغصب أمر مهين ، و استكراه معاني و ألفاظ الآخرين أمر ينزل بصاحبه أكثر مما

1)- سعيد سليم، التناص التراثي، الرواية الجزائرية نموذجا، عالم الكتاب الحديث، اربد/الأردن ،ط1، 2010م ص48، 49، وينظر مقال: وحيد بن بوعزيز ، لعبة التناص في النصوص ما بعد الكولونيالية –نص سيمورغ لمحمد ديب – ، مجلة مقاليد ، مخبر النقد و مصطلحاته ، جامعة ورقلة ، العدد 03، ديسمبر 2012م ، ص 211 .

يرفعه و أدبه ، و أن يكتفي الأديب بما تنضح به سجيته خير له من لبس جبة الآخر ، إذ يقول في الرسالة العذراء: " ... هذا كله إن جريت من البلاغة على عرق ، وظهرت منها على حظ ، فأما إن كانت غير مناسبة لطبعك و لا واقعة شهوتك عليها ، فلا تنض مطيتك مطيتك في التماسها و لا تتعب بدنك في ابتغائها ، واصرف عنانك عنها ، و لا تطمع فيها **باستعارتك** ألفاظ الناس وكلامهم، فإن ذلك غير مثمر لك ، و لا مجد عليك ، ومن كان مرجعه فيها إلى **اغتصاب** ألفاظ من تقدمه والاستضاءة بكوكب من سبقه ، و سحب ذيل حلة غيره و لم يكن معه أداة تولد له من بنات قلبه ونتائج ذهنه ، الكلام الحر و المعنى الجزل فلم يكن من الصناعة في عير و لا نفير ، على أنّ كلام الفصحاء المطبوعين و درس رسائل المتقدمين على كل حال مما يفتق اللسان و يوسع المنطق و يشحذ الطبع ، و يستثير كوامنه إن كانت فيه سجية"(1) .

فالرياضي يشير بشكل واضح و منطقي أنه بدلا من اغتصاب و استعارة ألفاظ و أفكار الغير الاستفادة منها ، من خلال تدريب القريحة و صقلها بتجارب الآخرين حتى تبلغ مرتبة الإجادة كما أجاد السابقون أو أعلى منهم ، كما أن مذاكرة كلام المجيدين و المطبوعين قد يكون سببا في فتح باب للقول ، أو ملهما لإبداع جديد كما هي عادة الأباء و الشعراء أن يفيد أحدهم كما أشار ابن رشيق، أما استراق ألفاظهم و كلامهم فهو أمر مخل أخلاقيا و وظيفيا حسب الرياضي ، لأنّ لبس شخصية الآخرين من خلال كلامهم ، قد يكون سببا لعدم التلقي الإيجابي للرسالة لدى المستمع أوالقارئ و ذلك لما يقول : " لا تطمع فيها **باستعارتك** ألفاظ الناس وكلامهم، فإن ذلك غير مثمر لك ، و لا مجد عليك"(2)، و هي القضية التي يشير إليها الرياضي بشكل كبير في كل مناسبة ، إضافة إلى كون ذلك كما ذكرنا مشين لصاحبه و قادح في مروءته و فحولته إذ أنّ الكاتب المستحق اسم الكتابة –كما قال برية الرياضي– و البليغ المحكوم له بالبلاغة ، من إذا حاول صنعة كتاب

1) - برية الرياضي ، الرسالة العذراء ، ص 58-59.

2) - المصدر نفسه ، ص 58-59.

سالت على قلمه عيون الكلام من ينابيعها ، و ظهرت من معادنها ، و بدرت من مواطنها ، من غير استكراه و لا اغتصاب[1].

و في هذا النص و الذي قبله أشار برية إلى مصطلحين من مصطلحات السرقة و هما الاستكراه و الغصب الذي هو أن يأخذ الشاعر بيتا من شاعر آخر عن طريق التهديد الإكراه [2]، وهو أسوأ أنواع السرقة ، لبعد احتمال التوارد أو التصادف .

في كتابه الآخر كذلك تلقيح العقول نجد نفس الإشارات الأخلاقية و الوظيفية في النظر إلى قضية السرقة حيث يروي عن ابن المبارك في النهي عن السرقة قوله :

و لا تنطق الدهر في مجلي حديثا إذا أنت لم تحصه
و نص الحديث إلى أهله فإن الوثيقة في نصه [3].

أما الناحية الوظيفية فهو يرى أن الشعر يقال ليتمثل به ، يعني ليصبح مثلا وحكمة وعظة ، لذلك هو لا يهتم بالشعر و صاحبه أو إذاكان الشعر منحولا أو مسروقا أو مطبوعا أومصنوعا و غير ذلك ، و ذلك في كثرة إيراده لهذا المصطلح بين يدي استشهاده ببعض الأبيات أو المقاطع الشعرية .

أما الرقيق القيرواني فالذي نجده عنده فيما يتعلق بالسرقات هو إشارات قليلة في بعض المواضع، باعتبار أن الرقيق القيرواني قليل التعليق في كتابه ، لكنه أشار في بعض المواضع إلى هذه الظاهرة باصطلاح السرقة ، ليشير إلى سلبية مفهومها عنده حيث ذكر في معرض حديثه عن ربيعة بن مقرم والأعشى ، فقال: "وهذان مخضرمان و هما في عصر واحد ، لا شك أن الأخطل سرق منهما قوله :

أناخوا فجروا شاصيات كأنها رجال من السودان لم يتسربلوا"[1] .

1) – برية الرياضي ، الرسالة العذراء ، ص 65.
2)– ابن رشيق ، العمدة 285/2 .
3)– برية الرياضي ، تلقيح العقول 64 .

وأشار المؤلف إليها كذلك في قوله: "نقل هذا المعنى من شعر فلان"[2] .

و نقل عن المأمون كذلك فيما يتعلق بهذه المسألة قوله: "ما هذا أراك تسرق أشعار الناس و تتدعيها لنفسك ..."[3] ، يعني أن الرقيق كذلك يعتبر السرقة شيئا مشينا و هو الأديب المؤرخ العالم بالأدباء وآدابهم و تواريخهم ، بالشكل الذي يجعل إشارته إلى السلرقة أكثر احترافية خاصة أنه يجمع بين الأدب و التاريخ .

المطلب الخامس: القديم والحديث

عرفت الدولة العباسية مظاهر اجتماعية و ثقافية و حضارية جديدة لم يألفها الإنسان العربي البسيط ، هذه المظاهر جاءت مع الانفتاح الكبير الذي عرفته بلاد العرب بفضل مجيء الإسلام وتوسع بلاد العرب و احتكاكها بالحضارات الأجنبية ، فعاشت التمدّن الحقيقي بكل قيمه الحضارية، فغيّر هذا الوضع الإنسان العربي و طوّره انطلاقا من ثوابته الأصيلة التي تميزه ، و لا غرابة أن يمسّ هذا التغيير اللسان العربي و أدبه، بفنونه النثرية و الشعرية ، لكن الحقّ أن التطور الشعري قوبل بردة فعل عنيفة لها ما يبررها ، فالعرب منذ الجاهلية تعتبر الشعر أظهر فنون القول، لكن بعد مجيء الإسلام وظهور دولته عرف الشعر بعض الارتياب عبّر عنه الجاحظ بالضعف[4] ، وأيا كان الأمر فإن الشعر ظلّ بقوّته ومكانته ، إلى أن تحقّق الخروجُ على عموده في عز الدولة العباسية أو قبلها قليلا، فانقسم أهل الأدب فئتان : فئة تبغي الأصالة و تقدّمها ، و فئة تؤيد الحداثة و تناصرها.

مثّل الفريق الأول لغويون يُشهد لهم بالفضل في حفظ اللسان العربي ، مثل الأصمعي و ابن الأعرابي[5] و أبي عمرو بن العلاء و غيرهم، و مثّل الفريق الثاني أدباء لا تنكر مساهمتهم في تطوير

---

1)- الرقيق القيرواني ، قطب السرور ص 189 .

2) - المصدر نفسه ص 312 .

3)- المصدر نفسه 426 .

4)- الجاحظ ، الحيوان ، 128/7 .

5)- أبو عبيد الله المرزباني ، الموشح (مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر) تح: محمد علي البجاوي ، دار نهضة مصر ، القاهرة،1965م ، ص 313 ، و معجم الأدباء ، 43/6 .

الذوق الأدبي و مواكبته لعصره ، مثل عبد الله ابن المعتز ، و أبو بكر الصولي [1]، و الحاتمي [2] والحسن بن بشر الآمدي[3] و غيرهم ، مع ملاحظة أن كل هذه المواقف تتسم لدى بعضهم بالغموض أحيانا وبالتعصب أحيانا أخرى ، لذلك قام فريق ثالث معتدل مثّله ابن قتيبة و الجرجاني وابن رشيق القيرواني وآخرون، و لا ينكر كذلك ما لعبته التّهم غير الأدبية في تأجيج حدة هذا الصراع مثل ما اتهم به أبو نواس من الشعوبية[4] ، و أبو تمام من الكفر[5] و المتنبي بالزندقة وغير ذلك ، اللهم إلا ما اعتذر به ابن رشيق لبعضهم من مناصري القديم ببحثهم عن الشاهد[6] فذلك معقول فالحديث أوالحي لا تؤمن عليه الفتنة ، أما غير ذلك فهي تهم سياسية بأغطية دينية، أوتنافس عصبي لأنّ بعض الشعراء لم يكونوا عربا خلّصا .

اتخذ ابن رشيق من هذه المسألة موقفا عادلا متوازنا محايدا قوامه أن المعيار الزمني قاصر في العملية الأدبية إذ أن كلّ قديم هو محدث في زمانه بالإضافة إلى من كان قبله كما نقله عن ابن قتيبة، إذ أن الله تعالى لم يخص فئة بالكلام و فنونه عن أخرى [7]، و كأن ابن رشيق يتساءل مع نفسه عن سبب معلّل يدفع دعاة القديم لتفضيله إذ لا يوجد أكثر من التقديس الديني و هو منتف عنه .

بل يَلْمَحُ الناظر لموقف ابن رشيق استغرابا منه للتفريق بين القدماء و المحدثين و هو الذي يعتبر مهامهم تكامليةً ، كل فريق في سياقه و زمانه إذ يقول: "مثل القدماء و المحدثين كمثل رجلين ابتدأ هذا بناء فأحكمه و أتقنه ، ثم أتى الآخر فنقشه وزيّنه فالكلفة ظاهرة على هذا و إن حسن، والقدرة ظاهرة على ذاك و إن خشن"[8] ، هذا النص يبين كما سبق أن العمل الأدبي تكامل بين

---

1)- الصولي أبو بكر محمد بن يحى (335هـ) ، أخبار أبي تمام ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت/لبنان ، ط3، 1980م، مقدمة الكتاب .

2)- إبراهيم الحصري ، زهر الآداب و ثمر الألباب 3 /655 ، 665 .

3)- الآمدي ، الموازنة بين الطائيين ، 20/1 ، محمد مندور ، النقد المنهجي عند العرب ، نهضة مصر للطباعة ، ص 75 .

4)- الشيخ بوقربة ، النقد المنهجي ص 173 .

5)- الصولي ، أخبار أبي تمام ص 172 .

6)- ابن رشيق ، العمدة ، 137/1 .

7)- المصدر نفسه 138/1 .

8)- المصدر نفسه 139/1 .

الأجيال مع أنه طابع مختلف بينهم حسب أزمانهم و خصوصياتهم ، مع مراعاة مميزات كل جيل من حيث اللغة و الزمان و المكان اللذان يؤثران في المبدع و إبداعه و المتلقي و الناقد على حد سواء ، كما أن التفضيل باعتبار الزمن يهدم سنّة التراكم المعرفي التي هي سنّة كونية لتطور الإنسان ومعارفه فهي لصيقة بتطور العمران البشري و المادي ، لذلك ينقل مؤكدا ذلك نص شيخه عبد الكريم النهشلي الذي يقول فيه : "قد تختلف المقامات و الأزمنة و البلاد فيحسن في وقت مالا يحسن في آخر و يستحسن عند أهل بلد مالا يستحسن في غيره ، ونجد الشعراء الحذاق تقابل كل زمان بما استجيد فيه و حسن استعماله عند أهله ..."[(1)] ، فهذا النص إضافة إلى ما فيه من بيان لتقديم عامل الجودة لا غير ، نلاحظ فيه كذلك اهتماما من ابن رشيق بالمتلقي الذي يستحسن و يفضّل حسب ثقافته و طبيعته وذوقه ، و استجابة المتلقي و تفاعله، هو الغرض من العملية الإبداعية ، والمفاضلة ستكون قاصرة إذا لم تراع ذلك .

هذا الموقف في عرض ابن رشيق لقضية القديم و الجديد انعكس في كتابه الأنموذج لدى ترجمته لبعض الأعلام حسب ضرورة الترجمة و ملاءمة المقام ، حيث يصرّح في بعض المواقف أن بعض الشعراء رغم قدرتهم اللغوية و الشعرية بالغوا في التمسك بمنهج القدامى في الشعر قالبا و معنى و لغة، ما نستشعر منه امتعاضا من ابن رشيق لهذا النهج الذي لم يكن موافقا لروح العصر الميالة للألفاظ اللطيفة و المعاني الخفيفة كما نلمسه عند ترجمته للأبرش البلوي إذ قال : "شاعر قديم معروف بحب الغريب من اللغة ، ويورد كثيرا في أشعاره من ذلك ، و لا يبالي بلفظه كيف وقع ، و ربما سهل طريقه فجاء وفق المراد"[(2)] ، فقوله: "شاعر قديم" نفهم منه أنه يكتب على طريقة القدامى و هذا ندركه لمّا يقول : "معروف بحب الغريب من اللغة"، و استخدام الغريب و الحوشي و الخشن من الألفاظ من طريقة القدامى ، وتذييل ابن رشيق القول بـ "و ربما سهل طريقه فجاء وفق المراد" دليل صريح على أنه لا يستحسن طريقة القدامى من أبناء جيله في بيئته و زمانه ، لأنه إضافة إلى إهمال الوظيفة التواصلية و الجمالية للشعر بهذه الطريقة في ذلك الزمن ، فإنه في الكثير من الأحيان اعتبر ذلك ضربا من

---

1)- ابن رشيق ، العمدة 141/1 .

2)- ابن رشيق ، الأنموذج ص 182 .

التباهي و التفاخر و التظاهر بالمقدرة الشعرية ، ما يدخل الأدب و الفن في متاهات الصناعة اللفظية و العقد النفسية –مع أنه قد يكون مقدرة حقيقية سليقية–و يؤكد هذا ما ذكره في ترجمة عبد الله بن محمد البغدادي : "...و طريق عبد الله في الشعر خارجة عن طرقات أهل العصر تعاليا و تغاليا كأنه جاهلي المرمى ملوكي المنتمى ، قفري الأسلوب ، يخاله السامع فحلا يهدر و أسدا يزأر ، وله أمثال واستعارات على حدّة من الكلام و في جهة من البلاغة ... من شعره و قد ذكر حلول المريخ ودوران النجوم المتحدرة إلى طالعه :

و كأنهُ سيف الزّمان مجردًا   للنائبات فلا يزالُ خضيبًا
و كأنني لِتلاعُب الأيّام بي   رجلٌ لبستُ ثيابها مقلوباً

قال ابن رشيق : و هذا بديع لم أسمع مثله" [1] ، فابن رشيق بهذا التعليق يؤكّد أنّ ضابط التفضيل بين القديم والجديد هو مدى التوافق بين جموع المتلقين و النص مع تحقيق الجودة الفنية ، ويزيد هذا المعطى بيانا من خلال التهوين من أهمية الفارق الزمني و التفضيل على أساسه ، فيقول في ترجمة لابن قاضي ميله : "يسلك طريق ابن أبي ربيعة و أصحابه في نظم الأقوال و الحكايات ... صنع قصيدة في ثقة الدولة بصقلية ... و ما أعلم لأحد في وزنها و رويها مثلها ، فأجزل صلته وقرّب منزلته و ألحقه في أحد دواوين الخاصة ، من هذه القصيدة :

وَ عاذِلةٍ في بذْل ما مكلتْ يدِي   لراجٍ رجـــــاني دون صَحْب تعنّفُ
تقولُ إذا أفنيتُ ما صنتُ مـــدّة   و أحوجت من يعطيكه قلتُ يوسفُ

قال ابن رشيق : لو أن هذا الشعر لمن تقدم ذكره كابن أبي ربيعة و من سلك مسلكه لاستجيد لهم و ذكروا به و قدم على كثير من أشعارهم و لا عيب له إلا أنه متأخّر" [2] .

هذا النص الأخير نلمس منه اغتياظا من ابن رشيق تجاه ما جناه هذا التقسيم الزمني على الشعر ، حيث أنه أخّر أقواما كان حقهم التقدّم لا لشيء إلا لتأخرهم الزمني و هي حجة لا تستقيم، لكنه مع ذلك يحافظ دائما على مبادئه التي قرّرها في مواضع كثيرة و هي أن الأفضلية

1)- ابن رشيق ، الأنموذج ص 204 ، 206 .
2)- المصدر نفسه ص 209 ، 213 .

للأجود و إن بدى أحيانا متعاطفا مع المحدثين متحاملا على الأقدمين فيعود لتأكيد قانونه المعتدل بل و يلّمح أنّ للأقدم فضل السبق و الأصل ، فيقول بعد إيراده لهذا الشعر لابن الصفار السوسي :

و أنستُ بالعلياء ناراً لها سنى — لليلَى بليلٍ قد دجا و تغضَّنَـــــا
و ما أوقدتُ إلا لخابطِ ظلمةٍ — مضلٍّ و ضيفٍ جاءَ يقتادُ ضيفَنَا
فما بلغا حتّى أكلاَّ و ألصقَــا — قُلوصيْهما بالأرض من شدَّة الوَنى

" هذا كلام عربي صريح قلّما يأتي مثله للمتقدمين المحسنين فضلا عن المتأخرين لا سيما في مثل هذه القافية" [1] ، و قال في حق الشاعر القفصي الكفيف : "هو شاعر متقدّم ... متبع للعرب في أبنية أشعارها لا يعدو ذلك إلا قليلا ...قليل الاختراع" [2] ، فَعَقْدُ ابن رشيق في ترجمة ابن الصفار السوسي للمقارنةِ بين القدامى و المحدثين ووصفُه للقفصي الكفيف بالتقدّم في الشعر رغم أنه لا يزيد على محاكاة الأقدمين لدليل أنه يعتبرهم منطلقا أدبيا رغم ما في عبارته الأولى من الجراءة و بعض القسوة التي تحق له .

و كما سبق و أنّ من مبادئه التي قررها كذلك و هي عدم أحقية أحد بالقول في النص الذي نقله عن ابن قتيبة ، فإنه أكده في ترجمة القزاز فقال عنه "فضح المتقدمين و قطع ألسنة المتأخرين"[3]، فرغم أنه كما قلت سابقا أن عبارته أحيانا تكون قاسية كما في هذا الموضع في قوله:"فضح المتقدمين"، و للسائل أن يسأل ما للمتقدمين حتى نفضحهم و إنما قصده أنه بلغ مبلغهم من القول حتى ثبت أنه يمكنه القول مثلهم أو أعلى منهم كما يعتقده ابن رشيق ، فكأنه بذلك فضح بطلان مقولة "ما ترك الأول للآخر شيئا" و إلا فإن ابن رشيق أثبت في مواضع كثيرة سابقة اعترافه بالقدرة للسابقين ، لكنه بحكم عبقريته استطاع التخلص من عقدة الماضي و المقدّس ، فالكون لا يخلو من المقدّس لكن ليس فيما هو لغوي و أدبي رغم وجود القيم التي يعيش بها الإنسان.

---

1)- ابن رشيق ، الأنموذج ص 265 ، 269 .
2)- المصدر نفسه ص 336 ، 339 .
3)- المصدر نفسه ص 365 ، 369 .

و إشارات ابن رشيق في كتاب الأنموذج التي أومأ بها إلى قضية القديم و الجديد أكدت تخلّصة من عقدة التقديس للقديم التي استُنْكِحَ بها بعض الشعراء و النقّاد و اللغويين خصوصا في تلك الأزمنة المتقدمة ، كما أنّه لم يغتر ببهرج الحديث وزخرفه الذي جاء به المتأخرون، بل حكّم الذوق الذي ينبغي ، و استخدم المنطق الذي يحفظ للأدب مهامه الأدبية و يحفظ للغة فلسفتها الشكلية والدلالية .

و مجمل القول أنّ تعامل ابن رشيق مع أعلام أنموذجه في قضية القديم و الجديد جاء وفقا لما أقرّه عن هذه المسألة في العمدة و ما سبق من أمثلة يؤكد ذلك .

كما أن كلامه في هذه المسألة بقي حيا رغم بعد المسافة بين الزمن الذي عاش فيه والذي نحن فيه ، و مناقشته بهذه الطريقة في تلك الفترة تحمل الكثير من الإشارات عن شخصيته التي كانت تتمتع بالكثير من الحرية و التفتح و بعد الأفق بالإضافة إلى استشعار كنه الذوق الأدبي والعيش في كنف القيم الحية و الثابتة للمجتمع و البعد الجمالي للغة و الشعر .

فيما يتعلق بقضية القديم و الجديد عند النهشلي فإن ما بين أيدينا من كتبه لا نجد فيها إشارة واضحة إلى موقفه من هذه القضية و نقصد بذلك كتاب الممتع و ذلك لأن كتبه مع الأسف لم تصلنا و فقدت مع الزمن ، لكن لحسن الحظ أنّ تلميذه ابن رشيق نقل لنا في العمدة أهم آراءه النقدية ؛ والأحسن في ذلك أن ابن شيق نفسه نقل لنا نصا ذهبيا لأستاذه النهشلي فيما يتعلق بالمؤثرات الإبداعية من عوامل الزمن و البيئة و الأحوال و الأشخاص ، و ضرورة اعتبار هذه العوامل ليس للمفاضلة بين الآداب و لا لتقديم أحدها على الآخر ، بل لنقد كل أدب حسب ظروفه ومعطياته وتاريخيته إن صح التعبير[1] لذلك يصرح عبد الكريم النهشلي بشكل واضح أن العبرة في الأدب ليست بالتقدم أو التأخر ، أو البداوة و التحضر و إنما العبرة في إجادة القول و حسن التصرف مع القول و المتلقي ، فحسن التلقي عنده مؤشر كذلك على حسن الكلام و إجادته و هو في ذلك يتفق مع برية الرياضي الذي يرى أن جودة الكلام و إصابته مرتبط بمتلقيه ، و في هذا يقول

1) – من روّج لهذا الرأي زعماء المنهج الطبيعيّ، وجاراهم في ذلك بعض النقاد من أمثال (سانت بيف SAINTE BEUVE: 1804-1869م) وتلميذه (تين TAINE: 1828-1893م) وبرونتيير BRUNETIERE (1849-1906) وغيرهم.

النهشلي [1]:

"قد تختلف المقامات والأزمنة والبلاد، فيحسن في وقت ما لا يحسن في آخر، ويستحسن عند أهل البلد ما لا يستحسن عند أهل غيره، ونجد الشعراء الحذّاق تقابل كلّ زمان بما استجيد فيه وكثر استعماله عند أهله، بعد ألاّ تخرج من حسن الاستواء، وحدّ الاعتدال، وجودة الصنعة، وربما استعملت في بلد ألفاظ لا تستعمل كثيراً في غيره، كاستعمال أهل البصرة بعض كلام أهل فارس في أشعارهم ونوادر حكاياتهم".

إنّ هذا النصّ –كما يقول محمد مرتاض- يدور حول قضايا رئيسة ثلاث:

الأولى: تركّز على اختلاف الأمكنة والأزمنة والبلاد، ممّا يفضي حتماً إلى تقرير حقيقة الإعجاب الذي يرتبط بشعر شاعر ينتمي إلى عصر معيّن أو مكان معيّن، وهذا الانتباه من الناقد النهشلي إلى هذين الأثرين على إنتاج الشاعر يجعله أسبق في التنظير على كلّ من سانت بيف المتوفّى سنة 1869م وتلميذه تين المتوفّى سنة 1893م وكذلك معاصره رينان (RENAN) المتوفّى سنة 1892م ثم برونتيير المتوفّى سنة 1906 حيث أفاد هؤلاء جميعاً من منهج العلوم الطبيعيّة، فزعموا بالقول إنّ الزمان والمكان والجنس قوانين لا ينجو منها أيّ مبدع ونحن نعلم أنّ مشكلة الجنس والأصل إنّما هي حق أريد بها باطل، لأنّ مثل هذا المزعم يجعل الأصل سبباً في العبقريّة أو الجمود، مع أنّ الدّلائل تصرخ بأنّ هذا الحكم ليس مبنيّاً على أسس، وإلاّ لوصفنا أي مبدع تفوّق في فنّ من الفنون بالوريث الشرعيّ لعائلته أو لبيئته، أو لجنسه بصورة عامّة، مع أنّ البراهين الكثيرة تكذّب هذا الادّعاء، وقد استغلّ (رينان) هذه النظريّة ليذهب أبعد مما أشرنا إليه، فزعم أنَّ الجنس الآريّ ذو عقل منتج عبقريّ، والجنس الساميّ متحجّر العقل، محل التفكير، ضحل الحافظة... وهي أحكام –كما نلاحظ- لا تملك المؤهّلات للثبات إزاء أول معول يتصدّى لتهديمها وإفنائها، لأنّها ضعيفة الرأي، عليلة المحتوى[2].

و الحق أن إشارة النهشلي إلى أثر البيئة في الأدب موقف فريد جاء في عصر متقدّم، لم ينقل حقه من الدراسة و البحث ، و لم يبن حوله الباحثون في الفكر العربي دراسات بعده ، شأنه شأن الكثير من القضايا المتعلقة بالفكر العربي و الإسلامي ، فما دام الأمر كذلك ، أن تنسب بعض

1) – عن العمدة لابن رشيق1/ 93.

2) – النقد الأدبي في المغرب العربي ، محمد مرتاض ، اتحاد الكتاب العرب ، 79 .

القضايا التي كان للعرب سبق في الإشارة إليه ، إلى علماء غربيين أمر بدهي ، باعتبار حيوية الفكر ونشاطه ومنهجيته .

وما يهمّنا هنّا هو ما أشار إليه عبد الكريم النهشلي، واستطاع أن يقتنع به، ولا سيّما "الاستحسان". وقد تتضح هذه الصفة بصورة أكثر جلاء في التشبيه، وفي التّمثيل عامّة.

الثانية: تركّز على موهبة الشاعر وصنعته، لأنّ مبدعاً من هذا الصنف لا يسقط في فخّ التكرار، ولا في أحبولة التقليد الأعمى لكل ما مرّ، بل يعيش عصره، وينغمس في بيئته بكل مؤثّراتها، ويطلع على رغبات مجتمعه واستعمالاته المختلفة، فيعكف في عمله على ما هو ذائع في زمانه، ولكن من غير أن يحيد عن جادّة الاستواء، واتقان عمله الشعريّ بوساطة الارتقاء إلى الشعريّة الحقّة التي تنبني على عدم الغلوّ في الحكم أو التشبيه، واختيار البنى الملائمة التي تدعم النّصّ الشّعريّ، والاعتماد على تصوير فنيّ يفجّر عاطفة المتلقيّ ويجذبه نحوه.

ومثل هذا الرأي هو ما يشترطه الحداثيّون في الفنّ، لأنّ أيّ نصّ شعريّ يتوزّع في مستوياته المختلفة على بنى، وعلى تشاكل، وعلى معجم فنيّ، وعلى صور فنية تقرّب البعيد، وتموّه القريب، وتومئ بوساطة الإشاريّة أو العلاميّة غالباً[1].

يعني أن العبرة دائما في الأدب بالجودة و حسن الصنعة و لا مندوحة للتقدم أو التأخر إلا الزمن، مادامت القريحة هي المعيار ، مع الإشارة أن الكثير من نقاد العرب و لغوييهم تأثروا في قضية القديم والحديث بموقف النحويين في قضية الاستشهاد .

الثالثة: تصل إلى التمثيل والتوضيح الأكثر، فتضرب مثلاً ولكن بتحفّظ واحتراز، وهذه الصفة هي من طبيعة العلماء الذين ينشدون الدّقة في البحث، ويخشون السقوط في متاهات تغيّبهم في سراديبها، لذلك يستعمل حرف "قد" الذي إذا دخل على المضارع كان يفيد الشّكّ أو التقليل حتماً. وذلك ما يتجلّى في استعمال أهل البصرة لبعض الألفاظ الفارسيّة في أشعارهم بحكم الجوار والتعايش والتّبادل التجاريّ وغير ذلك.

ورأيه هذا يشير إلى تلاقح اللغات والتأثير الذي تحدثه إحداهما في صاحبتها لسبب أو لآخر كما هو شائع في علم اللهجات[2].

1) – النقد الأدبي في المغرب العربي ، محمد مرتاض ، 80 .
2) – المصدر نفسه ، 81 .

في الجملة فإن النهشلي بنى اختياره على الجودة في المبنى والسموّ في المعنى —كما يقول مرتاض– لذلك نجده في النص التالي يصل إلى حكمه الصريح من غير تمويه أو مغالطة ضبابيّة؛ فيقول: "والذي أختاره أنا التّجويد والتّحسين الذي يختاره علماء الناس بالشعر، ويبقى غابره على الدّهر، ويبعد عن الوحشي المستكره، ويرتفع عن المولّد المنتحل، ويتضمن المثل السائر، والتشبيه المصيب، والاستعارة الحسنة"[1].

إنّ هذا النّصّ بمنزلة القول الفاصل فيما يروم أن يثبته، فكأنّه استشفّ أنّ ما فصّله من قبل يتداخل في كثير ممّا طرق قبله أو في عهده، ووقع حوله جدال وحوار، فأعلن بصراح أنّه لا يستميله خطاب شعريّ لغرض أو لآخر، بل لجودته وحسن سبكه، وهو ما يتفق عليه علماء الشعر لأنّ هذا المسلك صعب ارتقاؤه، ولا بدّ لمن أراد أن يعدّ من طائفة الشعراء أن يضع في حسبانه القواعد التي لا بدّ منها، والأسس التي يشترطها النقاد غالباً، والتي تتجلّى في بعض ما أسلفناه من قبل، وما نوضّحه الآن من إيقاع، وتدقيق في الاختيار، فيكون بذلك قد ترفّع عن الحوشيّ المهجور، لأنّ توظيفه لا يسمو بفنه —كما قد يعتقد– ظانّاً أنّ توظيف بعض الألفاظ الخشنة الضاربة في البعد الزّمنيّ قد يجعله متميزاً بحفظ الموروث العربيّ؛ فذلك شيء تأباه البلاغة، وتمجّه الفصاحة. كما أنّه كي يخلد شعره يفترض في أن يترفّع عن توظيف المولّد المنتحل، باحثاً عن التّناصّ الذي يثري خطابه الشعريّ بما يحيل عليه من إحالات خارجيّة تتحاور مع نصّه لتكون جزءاً منه، موظّفاً في الآن ذاته ما يقويّ أسلوبه الشعريّ، ويشارك في تعميق رؤاه عن طريق التشبيهات الرقيقة، والاستعارات المثيرة التي تهزّ المتلقيّ وتشدّه إلى النّصّ الشعريّ بصورة جذّابة[2].

العلم الثاني في المرحلة محل الدراسة الذي نلمح في منجزه إشارة إلى قضية الحديث و القديم هو أبو عبد الله بن جعفر القزّاز (412هـ) ، الذي و إن أظهر فيما وصلنا من كتبه مثل ما يجوز للشاعر في الضرورة و كتاب العشرات أو كتاب الحلى و الشيات (كتاب فيه ذكر شيء من الحلى) أنّه مهتم بقضايا النحو و اللغة أكثر من اهتمامه بالأدب و صناعته ، إلا أن انتصاره لفعل المولدين من الشعراء بتطويع اللغة تجاوبا من المتطلبات و الضرورات الشعرية إشارة لاعتباره لشعرهم و انتصارا وانحيازا لهم مع أنه لا يعتبر حكما له في ذلك [3].

---

1) _ عن ابن رشيق:العمدة 1: 93.

2) – النقد الأدبي في المغرب العربي ، محمد مرتاض ، اتحاد الكتاب العرب ، 81 .

3) – الحركة النقديّة على أيام ابن رشيق المسيلي: الدكتور بشير خلدون، ص188.

يقول محمد مرتاض : هكذا يبدو القزّاز متمسّكاً برأيه، صلباً في موقفه، لكنّه ليّن في تعامله مع الطارئ المحدث، وكان من الممكن أن يقف موقفاً آخر هو التّهجّم والإسقاط من قيمة هؤلاء المعاصرين له، والذين كانوا يرتكبون هفوات في مفهوم الآخري. أما هو فعدّها شيئاً عادياً وطبيعياً بل ومستساغاً، لأنّ هؤلاء قد أفادوا من الجوازات التي تسمح لهم بذلك، فليس اللّوم موجّهاً لهم، ولكن لخصومهم الذين لم يكلّفوا أنفسهم عناء البحث في اللغة، والتبحّر في خصائصها؛ لأنّ شانئ هؤلاء الشعراء لو نظر بعين الحق لعلم أنّ ذلك شيء جائز لغويّاً[1].

فالعيب ليس في الشعراء المحدثين إن جانبوا القواعد، وحادوا عن الطريقة المثلى في التأليف، ولكن في من نصبّوا أنفسهم هداة وموجّهين ومبصّرين، منهم لم يستطيعوا أن يهضموا هذا الذي جاءهم مبتكراً محدثاً فأعرضوا عنه متتبّعين عوراته، ومحدّدين غلطاته.

ونستنتج أخيراً أنّ القزّاز ظل بعيداً عن التّعصّب أو الذّوبان في اتّجاه معيّن، ووقف محايداً يبدي الرأي ويوضّح المقصد، ثم يترك للأيّام الحكم الفصل[2].

بالانتقال إلى موقف برية الرياضي من هذه المسألة فإننا لا نجده يختلف كثيرا في طرحه عن موقف النهشلي ، فهو يرى كما النهشلي ، أن العبرة في إجادة القول ، و حسن التصرّف مع الكلام و المتّلقي ، و العبرة ليست في نحو الكلام تجاه مسلك أو نهج معين ، و إنما العبرة في موافقة ومطابقة الكلام لواقع الحال وواقع المخاطب أو المتلقي ، فلا مزية للسابق عنده إلا أن يفيد اللاحق منه جيد الأساليب و رفيع الكلام ، حتى يستطيع فتق لسانه و توسيع منطقه و شحذ طبعه و استثارة كوامنه ، بما يناسب زمانه و مكانه و إنسانه ، يقول في ذلك :

" ... هذا كله إن جريت من البلاغة على عرق ، وظهرت منها على حظ ، فأما إن كانت غير مناسبة لطبعك و لا واقعة شهوتك عليها ، فلا تنض مطيتك مطيتك في التماسها و لا تتعب بدنك في ابتغائها ، واصرف عنانك عنها ، و لا تطمع فيها باستعارتك ألفاظ الناس وكلامهم، فإن ذلك غير مثمر لك ، و لا مجد عليك ، ومن كان مرجعه فيها إلى اغتصاب ألفاظ من تقدمه والاستضاءة بكوكب من سبقه ، و سحب ذيل حلة غيره و لم يكن معه أداة تولد له من بنات قلبه ونتائج ذهنه ، الكلام الحر و المعنى الجزل فلم يكن من الصناعة في عير و لا نفير ، على أنّ كلام

1) – القزاز، "الضرائر الشعريّة" ص 29.

2) - محمد مرتاض، النقد الأدبي في المغرب العربي ، 81 .

الفصحاء المطبوعين و درس رسائل المتقدمين على كل حال مما يفتق اللسان و يوسع المنطق و يشحذ الطبع ، و يستثير كوامنه إن كانت فيه سجية"[1]

ولكن باعتبار أنه رجل دولة إضافة إلى كونه رجل علم ، فإنه أشار إلى أثر و أهمية التأريخ من الناحية الرسمية فيما يتعلق بسياسة الدول و الشعوب ، و بما يتعلق بالناحية العلمية كذلك ، إذ أن الاهتمام بالتاريخ إشارة إلى نقد الأخبار و تنقيحها و تمحيصها ، و مساعد على فهمها و استيعابها وفقا لسياقها إذ يقول: "و لا تدع التاريخ ، فإنه يدل على تحقيق الأخبار و قربها و بعدها ، و أنظر إلى ما مضى من الشهر و ما بقي منه ... [2] .

أما أن يكون التاريخ عاملا في المفاضلة بين الكلام أو مؤشرا على جودته و تقدمه فهذا ما يراه برية الرياضي ، بل إن رؤيته الوظيفية للكتابة و الأدب يجعله أكثر موضوعية في التعامل مع كل نص حسب زمانه و مكانه و سياقه .

1) - برية الرياضي ، الرسالة العذراء ، ص 58-59.

2) - المصدر نفسه ، ص 54 .

المبحث الثاني : الانتخاب الأدبي

في هذا المبحث سنحاول الإشارة إلى أنّ الانتخاب لدى بعض علماء المغرب يوحي برؤية أدبية و نقدية لدى كل عالم ، خاصة أولئك الذين نجد لهم كتبا أدبية في الدرجة الأولى ، تنقل منتخبات و اختيارات شعرية لأنفسهم أو لغيرهم ، و يأتي في مقدمة هؤلاء الرقيق القيرواني صاحب قطب السرور و برية الرياضي صاحب تلقيح العقول ، و عبد الكريم النهشلي صاحب اختيار الممتع.

عند برية الرياضي ومن خلال كتابه تلقيح العقول و بقراءة متفحصة نجد أنّ المؤلف لا يخرج عن فلسفته الوظيفية تجاه الأدب والشعر ، و أنّ الأدب و الشعر يقال ليكون حكمة سائرة أو نسمة عابرة تهذب النفوس و تشرح الخواطر و تعبر عن الخوالج ، لذلك أغلب ما انتقاه و انتخبه مما يهذب النفس و يحث على مكارم الفضائل ، و يحذر عن الوقوع في المهالك و الرذائل ، و هو الذي خبر الرجال و البلدان ، و خالط مختلف الطبائع و الألوان ، لذلك فانتقاؤه مهم ، و انتخابه ملم يقول محقق كتاب برية تلقيح العقول بأن المصنف حصيلة ثقافته العراقية حيث قال عنه :" فلما سافر عبد أمير المؤمنين إلى العراق ، ورأى أدباءه ، و كتابه لا يتكلمون في معنى من المعاني حتى يقدموا قبل كلامهم مثلا مشهورا ، و بيتا مذكورا ينبئ عما يريدون الكلام فيه، و استحسن ذلك منهم جعل كلما سمع مثلا سائرا ، و بيتا نادرا كتبه ووعاه ، ليكون له ذخيرة إلى تأليف كتاب جامع فيه ، وكانت نفسه تنازعه إلى ذلك في الغربة، فحال بينه و بين ذلك تقسم قلبه في البلدان ، و اشتغاله بالتروح إلى الأوطان"[(1)] ، و هو يصرح بأنه أخذ منهج أهل العراق في التفكير ، لذلك كان لكتابه رغم انه كتاب منتخبات واختيارات أهمية كبيرة حيث أخذ عنه هذه الرؤية و هذه المنخبات المؤلفون حيث يقول المحقق "انفرد ابن ظافر الأزدي بنقول عن كتابنا هذا في كتابه بدائع البدائه "[(2)] ، مما يوحي أنّ انتخاباته هذه كانت على قدر من الأهمية و بلاغة الإشارة .

1)- برية الرياضي ، تلقيح العقول 15 .

2)- المصدر نفسه 16 .

من خلال المنتخبات الكثيرة كذلك تظهر أهمية الكتاب بما يثيره من مشكلات اصطلاحية، فمن هذه المشكلات استعمال المؤلف مصطلح التمثّل الذي نعرفه أنه يعني الاستشهاد بقول آخر ، سواء أكان هذا القول مثلا أم بيت شعر أو ما هو بسبيلهما[1]، و لا يعلق على الأبيات أو قائلها أوالمتمثل بها ، مكتفيا بما توحيه من المعاني ، مغلبا نظرته القيمية إلى الشعر و الأدب .

و إلى جانب مصطلح التمثّل يستخدم مصطلح الإنشاد في بعض الأحيان بنفس المعنى ، و ما ينطبق على التمثّل ينطبق على الإنشاد كذلك من حيث الاستخدام و الأحكام[2].

لكن شدة اهتمام برية بالجوانب الأخلاقية جعل الإشارة إلى البعد الجمالي للأدب و الشعر تخف، بل إن هيكل الكتاب يبدو مضطربا في بعض الأحيان بالنظر إلى حجمه و كثرة الأبواب فيه، فالمؤلف لم يهتم بمدى جودة الأبيات و تناسق الأبواب و المباحث ، بقدر اهتمامه بانتقاء المواضيع وتقسيمها على المباحث و الأبواب[3].

بالانتقال إلى علم آخر فيما يخص هذا الموضع و هو الرقيق القيرواني ، تقابلنا رؤية و منهج جديدين ، حيث أنّ الرقيق من خلال كتابيه قطب السرور و تاريخ إفريقية و المغرب يبدو أكثر اهتماما بالجوانب الجمالية و الذوقية ، و يتعامل بموضوعية أكثر مع الشعر من تغليب غيرها من الجوانب الأخرى ، و يبدو عليه شخصية العالم الناقد بالأدب أكثر من برية الرياضي في كتابه تلقيح العقول ، كيف لا و هو الذي مارس التأريخ و نقده إضافة إلى كونه عالما في الأدب و الشعر ، مما يجعل حسه أكثر نقدا إذا قورن بغيره ، حيث تقول عنه محققة الكتاب في المقدمة : " أول ميزة يراها القارئ المتأمل في هذا الكتاب ، أنّ اختيار المؤلف لبعض شعر الشاعر اختيار عالم بالشعر فقيه فيه ، فهو يختار فيحسن الاختيار ، فينقد فيحسن النقد ويجيد ، و هو بحق موسوعة وافرة من بليغ الشعر والنثر تتعلق بالخمر و أصنافه و مجالسه ، شعرا و نثرا كانا منثورين هنا و هناك في كتب الأدب

1)- برية الرياضي ، تلقيح العقول 21 .

2)- المصدر نفسه 23 .

3)- المصدر نفسه 24 .

ودواوين الشعر ، جمعها المؤلف في فصول طويلة ممتعة لا يمل منها قارئها ، و رتبها بترتيب متكامل قلما نجده في كتب أدبية أخرى اعتنت و دونت في هذا المجال"[1].

تظهر فنية الرقيق في كتابه من خلال تحديده لموضوع كتابه في الأنبذة و الخمور ، فجمع أحسن ما قيل و ما يخدم أهدافه العلمية ، و جمع الأقوال و الأحكام للمؤيدين و المخالفين ، ما يشير إلى أنّه ينظر بعين العالم الناقد و ليس بغيرها .

إضافة إلى ذلك الإشارات النقدية التفصيلية التي نجدها في الكتاب من خلال الاختيارات الشعرية كعلاقة السياسة بالأدب إذ ينقل المؤلف في هذا الصدد: "و مما غنت فيه من شعر الأحوص لحن في الثقيل الأول ، كان يزيد كثيرا ما يقترحه" ... يعني أن ولاة الأمور كانوا يطلبون التغني بنوع معين من الشعر [2]، و قال في الوليد بن يزيد بن عبد الملك كذلك أنه كان ينادم ابن ميادة و اسمه الرماح بن أبرد من بني غطفان و يحدثه أحاديث الأعراب و ملحهم ، و يستظرف حديثه و يأخذ ما استحسن من شعره فيأمر المغنين فيصنعون له ألحانا و يغنونه فيه [3].

ونقل نصا أنّ أحد الشعراء أنشد في حضرة الهادي أبي محمد موسى شعرا فقال له : "أحسنت أحسنت و الله "[4] في إشارة إلى أنّ الكثير من الشعر ارتفع شأنه بتأثير سياسي ، و أنّ الكثير من الشعراء كبر نفوذهم و غلبتهم على الشعراء و ذاع صيتهم بسبب مباركة السياسيين لهم و لأقوالهم، وهذا ما حدث على فترات متقطعة من الزمن حتى مع الشعر الجاهلي كالمعلقات .

1)- أبو إسحاق إبراهيم ابن القاسم الرقيق القيرواني، قطب السرور في أوصاف الأنبذة و الخمور ، منشورات الجمل ، ألمانيا ، ط1، 2010م، ص 10 .

2)- المصدر نفسه ص 283 .

3)- المصدر نفسه ص 318 .

4)- المصدر نفسه ص 348 .

في كتاب تاريخ إفريقية و المغرب نجد مصطلح التمثّل كذلك ذكر في مواضع مختلفة و هو بذلك يظهر متابعة لمنهج برية الرياضي في كتابه تلقيح العقول و نذكر في هذا الصدد ثلاثة أمثلة :

الأول : يؤثر من الأخبار أنّ نخاسا عرض على أحمد بن يزيد السلمي ، ابن هذا المهجو ، جاريتين فقال : أيهما أحسن هذه أم هذه ؟ فقال: "بينهما –أعز الله الأمير– ما قال الشاعر: "لشتان ما بين اليزيدين في النوى" فقال أحمد : خذوا بيد ابن الفاعلة فاغتم بما سمع ، و أنّ الشعر قد سار في الناس ، و أن الرجل تمثل به و لم يدر فيمن قيل"[1].

الثاني: وفد عليه رجل من المشرق ، كان أديبا و قد سخط إبراهيم على رجال من الجند خالفوا عليه، فاستشفعوا بهذا الرجل فقال: ""مثلي و مثلهم كما قال الشاعر:

كأني سلبت القوم نور عيونهم فلا العذر مقبول و لا الذنب يغفر
و كان إحساني لهم غير مرة و لكن إحسان البغيض يكفر

فقال: بل مثلك و مثلهم أيها الأمير كما قال مروان بن أبي حفصة :

فما أحجم الأعداء عنك تقية عليك و لكن لم يروا فيك مطمعا

فضحك و سر بقوله و عفا له عن القوم [2].

الثالث: قال أبو محرز متمثلا:

خلت الديار فسدت غير مسود ومن الشقاء تفردي بالسؤدد[3]

1)- الرقيق القيرواني ، تاريخ إفريقية و المغرب، ص 186 .
2)- المصدر نفسه ، ص 265 .
3)- المصدر نفسه ، ص 275 .

ذكر أن بكر بن حماد سمع من محمد بن معاوية الحضرمي الطرابلسي و هو أحد تلامذة مالك[1] .

قال حبيب : كان حبيب يتمثل بهذه الأبيات:

كل شيء قـــد أراه نكــرا غير ركز الرمح في ظل الفــرس
و قيام في حناديس الدجى حارسا للقوم في أقصى الحرس[2]

ما يشير إلى أن الرقيق كذلك يحمل في شخصيته أن الشعر ينبغي أن لا يخلو من الجوانب القيمية والأخلاقية ، و هي الرؤية التي نجدها عند أغلب نقاد المغرب العربي .

1) – القاضي عياض ، ترتيب المدارك ، 323/3 .
2) – المصدر نفسه ، 77/4 .

المبحث الثالث : التأثير النفسي للشعر

يرى الكثير من النقاد إلى اعتبار قيمة الشعر بمقدار ما يحدث في النفس من أثر و بقدر ما يتفاعل معه المتلقون ، و بقدر مايقوم به من آثار مادية في تحريك الجوارح و دفع النفوس ، يرى ابن رشيق في هذا الصدد أنّ: "الشعر ما أطرب و هزّ النفوس ، و حرك الطباع ، فهذا هو باب الشعر الذي وضع له ، و بني عليه لا ما سواه"(1) ، و أشار ابن طباطبا قبل ذلك إلى أنّ الشعر يحدث من الآثار بما يرقى إلى درجة السحر ، في إشارة إلى آثاره الكبيرة ، خاصة إذا صدر هذا الكلام ممن يمتلك عقلية العالم الناقد في النظر إلى اللغة و الأدب إذ يقول: " إذا ورد عليك الشعر اللطيف المعنى ، الحلو اللفظ ، التام البيان ، المعتدل الوزن ، مازج الروح ، و لاءم الفهم ، وكان أنفذ من نفث السحر ، وأخفى دبيبا من الرقى ، و أشد إطرابا من الغناء ، فسلّ السخائم ، و حلّل العقد ، وسخى الشحيح، و شجع الجبان ، وكان كالخمر في لطف دبيبه ، و إلهائه و هزه و إثارته"(2).

و تحدث كذلك الناقد الأندلسي ابن خيرة المواعيني عن التلاؤم بين موضوع الشعر و نفسية السامع وكيف يؤثر على التلقي إذ يقول: " فإذا وقعت هذه المعاني في هذه الحالات تضاعف حسن موقعها عند مستمعها ، و من ثم يكون الشعر سببا في تحريك المشاعر المتشابهة و إثارتها ، فيحترق العاشق ، و يشرف الجواد ، و يمرح المسرور ، و يترح الحزين"(3).

و ينقل عبد الغفور الكلاعي في كتابه إحكام الصنعة عن أبي العلاء المعري قوله : " لا تجهلوا فضيلة الشعر ، فإنه يذكر الناسي ، و يحل عزمة الفاتك ، و يعطف مودة الكاشح و يشجع الجبان"(4).

أما السرقسطي فيقول في معرض مقارنته بين الشعر و النثر يقول في حق الأول: " به تستمال الأهواء العصية ، و تستدنى الآمال القصية ، و تحلل الأحقاد و الإحن ، و تتوقى الحوادث و المحن ،

---

1) - ابن رشيق، العمدة ، 128/1 .

2) - ابن طباطبا، عيار الشعر ، 16 .

3) - الشريف علاونه ، النقد الأدبي في الأندلس 222.

4) - المصدر نفسه 222.

و تسلسل النفوس الجوامد و تبعث الهمم الهوامد ، ينفذ نفوذ السهام ، و يجري مع الخواطر والأوهام"[1] و يرى بأن الشعر : "أبعث للطرب و أذهب للكرب ، باعث الهمم و الأفراح ، و طارد الأحزان و الأتراح"[2] .

و أشار حازم القرطاجني في أغلب أجزاء كتابه منهاج البلغاء ، إلى التأثير النفسي للشعر فقد ألح على ناحية التأثير و قدرة الشعر على إحداث الانفعال النفسي في تعريفه للشعر و في حديثه عن الألفاظ و المعاني و الأساليب[3] .

يقول في أحد المواضع: " و إنه لما كان للنفس في اجتلاء المعاني في العبارات المستحسنة من حسن الموقع الذي يرتاح له مالا يكون لها عند قيام المعنى في عبارة مستقبحة ... و لهذا نجد الانسان قد يلقى إليه المعنى بعبارة مستقبحة فلا يرتاح له في واحد من هذه الأحوال، فإذا تلقاه في عبارة بديعة اهتز له و تحرك لمقتضاه"[4] .

عند الطبقة الأولى من نقاد المغرب العربي كذلك نجد بعض الإشارات فيما يتعلق بالحديث عن الأثر النفسي للأدب خاصة أولئك أشاروا باستمرار إلى أهمية المتلقي في اعتبار جودة الأدب ، باعتبار أن تفاعله الإيجابي مع الأدب مؤشر لفاعليته النفسجة و الوجدانية ، و متى ما كان الأدب محرك و دافعا للفعل أو الترك كان أدبا .

نجد في مقدمة هولاء النهشلي الذي تفيد تعليقاته الكثيرة إلى أن جودة الشعر مرتبطة بمدى تأثيره النفسي ، و لكي يكون مؤثرا ينبغي أن يستكمل شروطه مثل أن يكون نابعا من بيئة و سياق المتلقي و لغته و محيطه و ظروفه ، في النص السابق المتعلق بأثر البيئة في صناعة الشعر ، و القضية أساسا مرتبطة بالمتلقي و مدى الأثر الذي سيتركه فيه ذلك النص .

1) – الشريف علاونه ، النقد الأدبي في الأندلس 222.
2) – المصدر نفسه 222.
3) – المصدر نفسه 224 .
4) – حازم القرطاجني ، منهاج البلغاء ، 118 .

ثم إن النهشلي كما الكثير من النقاد يرى أن للشعر وظائف غير الأغراض الجمالية ، و هي وظيفة أخلاقية تربوية و اجتماعية و نفسية ، فالشعر ما يريح الأفئدة و ينفس عنها ، و ما يسلي النفس و يعللها ، و ما يطرب الأذن و يرقص الروح و يبث الحياة في الأذهان حيث يقول في النص التالي: " خير كلام العرب و أشرفه عندها هذا الشعر الذي ترتاح له القلوب ، وتجذل به النفوس ، و تصغى إليه الأسماع ، و تشحذ به الأذهان و تحفظ به الآثار، و تقيد به الأخبار"(1).

و حسب النهشلي فإن الشعر بقدر ما كان أثره النفسي كان ذلك الشعر أكثر رسوخا في الذهن وثباتا في العقل ، إذ ذلك الأثر هو دافع النفس على حفظ و تقييد تلك الآثار .

عند برية الرياضي تحضر فكرة أهمية المتلقي في اعتبار جودة الأدب بشكل كبير ، و لقد تم التعرض لهذه المسألة في الكثير من المواضع سابقا ، و في هذا الموضع سنشير كذلك إلى بعض ما ذكره الرياضي فيما يتعلق بهذه المسألة من تأثير الأدب و الكتاب في المتلقي و ذلك إذا كان منسجما مع نفسيته و مقامه ، فإذا كان كذلك أخذ موضعه في النفس ، و كان سبب في تحقيق المآرب و قضاء الحوائج ، و إلا انعكس سلبا على صاحبه يقول في ذلك : " وأدر الألفاظ في أماكنها ، واعرضها على معانيها ، وقلبها على جميع وجوهها ، حتى تقع موقعها و لا تجعلها قلقة نافرة ، فمتى صارت كذلك هجنت الموضع الذي أردت تحسينه ، وأفسدت المكان الذي أردت إصلاحه ، و أعلم أنّ الألفاظ في غير أماكنها و القصد بها إلى غير مظانها ، إنما هو كترقيع الثوب الذي لم تتشابه رقاعه و لم تتقارب أجزاؤه ، خرج من حد الجدة و تغير حسنه كما قال الشاعر :

إن الجديد إذا ما زيد في خلق ... تبين الناس أن الثوب مرقوع(2) .

---

1) – النهشلي ، الممتع ، ص 11 .

2) – برية الرياضي ، الرسالة العذراء ، ص 57-58 .

و في هذا السياق كذلك أشار إلى ضرورة مرعاة نفسية و حال المخاطب وفقا لمقامه الاجتماعي والثقافي ، فتحدث بشكل واضح عن طبقات المخاطبين و اللغة المناسبة لكل فئة ، حيث قال: "وخاطب كلا على قدر أبهته و جلالته ، وعلوه وارتفاعه ، و تفطنه و انتباهه ، واجعل طبقات الكلام على ثمانية أقسام ، فأربعة منها للطبقة العلوية ، و أربعة دونها ، و لكل طبقة منها درجة ، ولكل قسمة حظ لا يتسع للكاتب البليغ أن يقصر بأهلها عنها ، و يقلب معناها إلى غيرها"[1].

حيث جعل في الطبقة الأولى الخلفاء و السلاطين ، و ذكر ما يليق في حضرتهم من لين الكلام و تعظيمه و تفخيمه و أسلوبه الذي يليق بقيمتهم و مكانتهم ، و ذكر في الطبقة الثانية الوزراء و الكتاب ، و أشار إلى ما يتناسب مع قدراتهم باعتبارهم أذكياء نبهاء عقلاء أدباء ، لذلك لزم مخاطبتهم بآدابهم و لغتهم ، و الطبقة الثالثة طبقة العسكريين و الأمراء و ما يجب من خطابهم ، والطبقة الرابعة طبقة القضاة و ذكر ما يجب لهم من التفخيم و التكريم باعتبار أنهم بمقام السلاطين والحكام ، و في الأربع الباقية نجد طبقتين للسياسيين و رجال الدول وطبقتين لرجال العلم و الأدب وما يجب في لغتهم من الاجزالة و الظرافة و اللطافة ، و قال أنه لم يدخل في هذه الأصناف الثمانية عموم الناس و التجار و السوقة لأنهم مستغنون بأعمالهم عن الأدب [2].

و أشار الرقيق القيرواني إلى التأثير النفسي للأدب و الأدباء في الكثير من المواضع من خلال النصوص التي ينتقيها و ينتخبها من ذلك ما نقله عن رؤية أبي عبد الله المهدي محمد با أبي جعفر المنصور في الشعر لما قال : "قال المهدي لعمارة بن حمزة : إني أردت أن أتخذ لنفسي نديما فمن أرق أهل العصر شعرا و أحسنهم أدبا ؟ قال والبة بن الحباب الأسدي ..." [3].

و نجد عند القاضي عياض إشارات من هذا النوع لأعلام مغاربة ينتمون إلى المرحلة محل الدراسة، حيث قال في معرض ترجمته لحبيب ابن الربيع :

قال بعض أصحابه: طال بنا المجلس يوما حتى قلق بعض الحاضرين، فلما كمل الجزء أنشد حبيب :

---

1) - برية الرياضي ، الرسالة العذراء ، ص 36-37-38.

2) - المصدر نفسه ، ص 36-37-38.

3)- الرقيق القيرواني، قطب السرور ص 333 .

الصبر جارك فاستعن بجواره عند الحوادث و المهم النازل

فلتحمدن جواره متعجــلا و لتعطين ثابـه في الآجــل

هذه الأبيات تدل على أنّه بالرغم من أنّ بعض الفقهاء كانوا يرون ترك الشعر و ستره إلا أنّ البعض الآخر لم يكن يرى حرجا في ذلك ، إشارة إلى الاختلاف الفكري لدى العلماء في تلك الفترة، و لما للأدب من تأثير في النفوس.

وقال كذلك في ترجمة أبي القاسم خلف بن أبي القاسم الأزدي : ... أن فقهاء القيروان أفتوا برفض كتبه و ترك قراءتها لتهمته لديهم ... و يقال إن الذي مكنّ تغييرهم عليه ، أنّه وجد بخطه في ذكر بعض بني عبيد و أسبابهم ، يتمثل في تقريضهم بهذا البيت المشهور :

أولئك قوم إن بنو أحسن البنا و إن وعدوا أوفوا و إن عقدوا شدوا[1]

هذه القصة تبين كيف تغير موقف الفقهاء بسبب الشعر و ما تركهم فيهم من أثر ، بالرغم من رؤيتهم المتشددة تجاهه ، خاصة في بلدان الغرب الإسلامي ، متأثرين بالفقه المالكي ، و مواقف إمامه المزهدة في الشعر كما سبقت الإشارة إليه .

1)- القاضي عياض ، ترتيب المارك ، 257/258/7 .

المبحث الرابع: أثر البيئة في الأدب

يهتم علماء علماء الأدب و النقد كثيرا بموضوع البيئة و أثرها في الشعر و الأدب ، و ذلك من جوانب كثيرة و متشعبة ، نظرا للعلاقة المعقدة بين الانتاج الأدبي و سياقه ، من ناحية اللغة أو الأساليب أو الموسيقى أو المعاني أو التخييلات و التمثيلات و المتلقي و غير ذلك و على العموم فلقد حاول أحدهم تلخيص مفهوم هذه العلاقة فقال بأنها: "مجموع العوامل المكانية والزمانية الأصيلة أو الطارئة ، التي تتوافر في بقعة ما ، و يتكون منها مزاج هو ما يسمى بالبيئة أوالهيئة الاجتماعية التي تطبع كل ما يتصل بها بطابعها"[1] .

يرى علما الأدب و نقده أن الأدب هو انعكاس للواقع و البيئة التي جاء منها ذلك الشاعر ، و شعره و أدبه ما هو لسان لحال و واقع و شجون ذلك المحيط ، لذلك عكف الكثير من الباحثين خاصة في العصور الأخيرة إلى تقصي آثار عواملها في الأدباء و الأدب ، و اشتهر في العصر الحديث الناقد الفرنسي هيبوليت تين (1827-1893م) بدفاعه الشديد عن هذا التوجه الجديد في دراسة الأدب ، حيث رأى أنّ اختلاف الآداب و الأدباء يرجع إلى عوامل ثلاثة وهي: الجنس أو العرق و الظروف التي أسهمت في تكوينها[2].

هذا التوجه الأدبي الجديد كان له أثر بالغ في توجيه حركة النقد الحديث و تطويره ، وإخضاعه لروح علمية و تلوينه بصبغة واقعية تركت آثارها في الاتجاهات الاجتماعية للنقد ، وبحث أنصارها في مسألة تأثير الوسط الاجتماعي و التاريخي على مضمون الأثر الأدبي أثناء تفسيرهم له[3] .

و الغريب في الأمر أن بالاطلاع على أعمال العلماء العرب الأدبية و النقدية سنجدهم منذ الحركة الأولى للتأليف النقدي تعرضوا لمسائل البيئة و الأدب ، لكن إشاراتهم لم تحض بالاهتمام اللازم، خاصة في معرض حديثهم عن مدى تأثر الشعر بالبيئة ، حيث أنّ ابن سلام الجمحي في كتابه طبقات فحول الشعراء قسم شعراءه أساسا وفق معيار جغرافي ، كشعراء مكة و المدينة

1) – الشريف علاونه، النقد الأدبي في الأندلس ، ص 227 .

2) – محمد غنيمي هلال ، النقد الأدبي الحديث .

3) – محمد مندور ، الأدب و فنونه ، ص 150 .

والطائف والبحرين و غير ذلك[1] ، و ارتبط مصطلح الفحولة عند الأصمعي (216م) بمفهوم بيئي يقوم على أساس تقسيم الشعراء إلى فحول و غير فحول ، و صفة البداوة هي التي تكسب الشاعر الفحل فصاحة اللغة و جزالة الأسلوب[2]، و الجاحظ كذلك اعتبر أن البلد و العريزة و العرق سبب في كثرة الشعر أو قلته ، فهو مرتبط بإرادة الله المتعلقة بكل مخلوق حسب هذه المعطيات الثلاثة[3] ، ونجد كذلك أبا الفرج الأصبهاني في أغانيه ، بالرغم من أنه لم يعتمد التقسيم الجغرافي في كتابه إلى أن تعقب باستمرار الأثار و العوامل البيئية في الشعر و الشعراء ، و تتبع كذلك أثر الزمن فيهم إضافة إلى عوامل أخرى .

و تعرض نقاد الأندلس بشكل مسهب في شرح العوامل البيئية و الإشارة إليها ، حيث نجد ابن دحية في كتابه "المطرب" يشير إلى ذلك عند ترجمته للشاعر ابن خفاجة بقوله : "من فحول شعراء الأندلس ، مالك أزمة القريض ، و ماسك راية التصريح و التعريض ، شعره أرق من النسيم ، و آنق من المحيا الوسيم ، من أعيان مدينة شقر ، و هي جزيرة قد أحدق النهر بها ، كما أحدق بحدقة شفر، و حسبك من ما سائح ، و طائر صادح ، و بطاح عريضة ، و رياض أريضة ، فلا ترى إلا انسجام الغمام ، و لا تسمع إلا ترنم البلبل و الحمام "[4]، و المفهوم من هذا النص أن ابن دحية تعمد الإشارة بهذه الجمالية إلى المكان الذي ينحدر منه الشاعر ليشير إلى أن جمال شعره من جمال بيئته و منبته .

و في كلام ابن سعيد الأندلسي ما يشير إلى العلاقة السلبية بين التمدن و الشعر ، حيث تحدث عن الشعراء في مدينة بلّيش الأندلسية فقال: " مدينة في شرقي مالقة ، عامرة آهلة ، ضخمة الأسواق، الحضارة أغلب عليها من البادية ، و ليس في قواعد أعمال مالقة مثلها في الحضارة ،

1) - محمد بن سلام الجمحي (232هـ) ، طبقات فحول الشعراء ، تح: محمود محمد شاكر، دار المدني - جدة ، 2/ 233 .

2) - الأصمعي أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك (216هـ)، فحولة الشعراء، تح: ش. تورّي، دار الكتاب الجديد، بيروت – لبنان، ط2، 1400 هـ - 1980 م ، ص 9 .

3) - الجاحظ ، الحيوان ، 381/4 .

4) - ابن دحية الكلبي أبو الخطاب عمر بن حسن الأندلسي (633هـ)، المطرب من أشعار أهل المغرب، تح:إبراهيم الأبياري، حامد عبد المجيد، أحمد أحمد بدوي، دار العلم للجميع للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت/ لبنان، : 1374 هـ - 1955 م ، 111.

وحولها ضياع كثيرة ، و قد مررت بها مع والدي و سألت : هل فيها من له نظم ؟ فلم نجد من يؤبه له"[1] .

و حازم القرطاجني كذلك يناقش قضية أثر البيئة في الأدب في مواضع كثيرة من كتابه المنهاج ، حيث يشير إلى أن الأديب لا يمكن أن يخرج من بيئته و مجتمعه في تعابيره ، حيث تجده يتفاعل معهما و فيهما ، ليقدر الإبداهع ، حيث تحدث في مهيئات الشعر أنها تحصل من جهتين الأولى : النشء في بقعة معتدلة الهواء ، طيبة المطاعم ، أنيقة المظاهر ، و الثانية : النشأة بين الفصحاء الذين دربوا على الإحساس بالايقاع ، و حفظ الكلام الفصيح[2] ، و يرى حازم كذلك أن "الشعر يختلف بحسب الأمكنة ، و ما يوجد فيها مما شأنه أن يوصف ... و لذا نجد بعض الشعراء يحسن في وصف الوحش ، و بعضهم يحسن في وصف الروض ... على قدر قوة ارتسام نعوت الشيء في خيالاتهم بكثرة ما ألفوه وما تأملوه "[3].

لما نفتح موضوع أثر البيئة في الحركة الأولى لنقاد المغرب الإسلامي فإنه سيعلوا الصفحة عبد الكريم النهشلي بسبب مناقشته المباشرة لهذه القضية ، في النص الذي نقله عنه تلميذه ابن رشيق القيرواني، و لو وصلتنا مصنفات النهشلي الأخرى لكان من الممكن أن نجد تفصيلا أكثر في ما يتعلق بمناقشته لهذه المسألة ، إذ يرى النهشلي أن من أهم القضايا التي تدخل في صقل و إثارة قريحة المبدع هي البيئة التي ينطلق منها و أن تلك البيئة هي الطابع الذي سيحمله إنتاج ذلك المبدع؛ حيث إنه نبّه على أن ما ينتجه مبدع في الشمال هو غير ما ينتجه نظيره في الجنوب، ولا سيما فيما يتعلق بالجزالة أو الرّقة في بنية الشعر[4] بالضبط كما أشار في قضية القديم والجديد بأن العبرة —في نظره- ليست بتقادم الإنتاج أو حدثانه وإنما بقيمته ودقته، ومراعاته لعصره، وتلبيته لمطامح العصر، واحتياج الأمة التي يعيش في مجتمعها؛ حيث يقول:

"قد تختلف المقامات والأزمنة والبلاد، فيحسن في وقت ما لا يحسن في آخر، ويستحسن عند

1) – ابن سعيد المغربي الأندلسي، أبو الحسن على بن موسى (685هـ)، المغرب في حلى المغرب، تح: شوقي ضيف، دار المعارف/ القاهرة، ط3، 1955 ، 442/1 .

2) – حازم القرطاجني ، منهاج البلغاء ، ص 40- 42 .

3) – المصدر نفسه ، ص 375 .

4) من روّج لهذا الرأي زعماء المنهج الطبيعيّ، وجاراهم في ذلك بعض النقاد من أمثال (سانت بيف SAINTE BEUVE: 1804-1869م) وتلميذه (تين TAINE: 1828-1893م) وبرونتيير BRUNETIERE (1849-1906) وغيرهم.

أهل البلد ما لا يستحسن عند أهل غيره، ونجد الشعراء الحذّاق تقابل كلّ زمان بما استجيد فيه وكثر استعماله عند أهله، بعد ألاّ تخرج من حسن الاستواء، وحدّ الاعتدال، وجودة الصنعة، وربما استعملت في بلد ألفاظ لا تستعمل كثيراً في غيره، كاستعمال أهل البصرة بعض كلام أهل فارس في أشعارهم ونوادر حكاياتهم"[1].

النص يشير إلى حقيقة ذلك الترابط بين الإبداع و زمانه و مكانه، و ما يخلفه المحيط من آثار على الإبداع سواء فيما يتعلق بالألفاظ أم بالمعاني ، بل بما يتعلق بالمتلقي كذلك ، لأن المتلقي يجب أن يسائل نفسه أحيانا هل إعجابه بأدب معين مرتبط بأثر السياق أو بأثر الباث أو بسبب الموسيقى أو غير ذلك ، و يرى محمد مرتاض –كما سبق- أن هذا الانتباه من الناقد النهشلي إلى هذين الأثرين على إنتاج الشاعر يجعله أسبق في التنظير على كلّ من سانت بيف المتوفّ سنة 1869م وتلميذه تين المتوفّ سنة 1893م وكذلك معاصره رينان (RENAN) المتوفّ سنة 1892م ثم برونتيير المتوفّ سنة 1906 حيث أفاد هؤلاء جميعاً من منهج العلوم الطبيعيّة، فزعموا بالقول إنّ الزمان والمكان والجنس قوانين لا ينجو منها أيّ مبدع ونحن نعلم أنّ مشكلة الجنس والأصل إنّما هي حق أريد بها باطل، لأنّ مثل هذا المزعم يجعل الأصل سبباً في العبقريّة أو الجمود، مع أنّ الدّلائل تصرخ بأنّ هذا الحكم ليس مبنيّاً على أسس، وإلاّ لوصفنا أي مبدع تفوّق في فنّ من الفنون بالوريث الشرعيّ لعائلته أو لبيئته، أو لجنسه بصورة عامّة، مع أنّ البراهين الكثيرة تكذّب هذا الادّعاء، وقد استغلّ (رينان) هذه النظريّة ليذهب أبعد مما أشرنا إليه، فزعم أنَّ الجنس الآريّ ذو عقل منتج عبقريّ، والجنس الساميّ متحجّر العقل، محل التفكير، ضحل الحافظة... وهي أحكام –كما نلاحظ- لا تملك المؤهّلات للثبات إزاء أول معول يتصدّى لتهديمها وإفنائها، لأنّها ضعيفة الرأي، عليلة المحتوى[2].

و يشير النص كذلك بأن المبدع يعيش عصره، وينغمس في بيئته بكل مؤثّراتها، ويطلع على رغبات مجتمعه واستعمالاته المختلفة، فيعكف في عمله على ما هو ذائع في زمانه، ولكن من غير أن يحيد عن جادّة الاستواء، واتقان عمله الشعريّ بوساطة الارتقاء إلى الشعريّة الحقّة التي تنبني على عدم الغلوّ في الحكم أو التشبيه، واختيار البنى الملائمة التي تدعم النّصّ الشّعريّ، والاعتماد على تصوير فنيّ يفجّر عاطفة المتلقيّ ويجذبه نحوه.

1) - ابن رشيق ، العمدة 1/ 93.

2) - محمد مرتاض ، النقد الأدبي في المغرب العربي .

ومثل هذا الرأي هو ما يشترطه الحداثيّون في الفنّ، لأنّ أيّ نصّ شعريّ يتوزّع في مستوياته المختلفة على بنى، وعلى تشاكل، وعلى معجم فنيّ، وعلى صور فنية تقرّب البعيد، وتموّه القريب، وتومئ بوساطة الإشاريّة أو العلاميّة غالباً[1].

و برية الرياضي كذلك سبقت الإشارة إلى أنه يرى أن الأديب و الأدب ينبغي أن ابن زمانه ومكانه وسياقه ، فيخاطب الأديب متلقيه ، باللسان الذي يفقه و بالإشارة التي يستوعبها ، والتشبيه الذي يستملحه ، و إلا انقلب فعل الكلام خبالا على قائله إذ يقول في ذلك : "إن إلباسك المعنى و إن شرف و صلح لفظا مختلفا عن قدر المكتوب إليه لم تجر به عاداتهم ، تهجين للمعنى ، وإخلال بقدره و ظلم لحق المكتوب إليه ، و نقصص مما يجب له ، كما أن في اتباع تعارفهم و ما انتشرت به عاداتهم، و جرت به سنتهم ، قطعا لعذرهم ، و خروجا من حقوقهم وبلوغا إلى غاية مرادهم، وإسقاطا لحجة أدبهم"[2].

فالتعرف على مقامات المخاطبين كما يدعو برية الرياضي يكون بالمعرفة التامة بالبيئة ، والإلمام الشامل بزمان و مكان المتلقي ، و تأثرا بالسياق الفكري عموما للمبدع فيقول تأكيدا لذلك: "لا تخاطبن خاصا بكلام عام ، و لا عاما بكلام خاص ، فمتى خاطبت أحدا بغير ما يشاكله، فقد أجريت الكلام على غير مجراه ، و كشفته ، و قصدك بالكلام الشريف للرجل الشريف تنبيه بقدر كلامك و رفع لدرجته ، قال:

فلم أمدحك تفخيما لشعرى   و لكني مدحت بك المديحا

فلا تخرجن كلمة حتى تزنها بميزانها فتعرف تمامها و نظامها ، ومواردها و مصادرها ، و تجنب ما قدرت الألفاظ الوحشية، وارتفع عن الألفاظ السخيفة ، واقتضب كلاما بين الكلامين" [3]، واستيعاب كل هذه الأمور يكون بالنظر إلى بيئة الفعل الثقافي و الأدبي .

1) – محمد مرتاض ، النقد الأدبي في المغربي العربي ، 79-81 .

2) – برية الرياضي ، الرسالة العذراء ، ص 38- 39.

3) – المصدر نفسه ، ص 64.

المبحث الخامس : فلسفة الطبقات

يعتبر علماء الحديث النبوي أول من سنّ فكرة الطبقات في الفكر العربي و الإسلامي و ذلك حين أرادوا تصنيف رواة النصوص و الآثار النبوية في طبقات زمانية أو مكانية أو باعتبارات أخرى فوضعوا كل جيل في طبقة حتى تعرف أزمانهم و أجيالهم مما يساعد فيما بعد على دراسة أسانيدهم والتأكد من صحتها مثل طبقات خليفة بن خياط (240هـ) و طبقات ابن سعد (230هـ) هذا مما وصلنا و ما لم يصلنا أووصل بشكل غير مباشر كثير كذلك مثل طبقات الواقدي(1) و طبقات الفقهاء و المحدثين للهيثم بن عدي (2) كما أن لواصل بن عطاء (131هـ) كتابا في الطبقات (3)، ثم تطور الأمر لتظهر مصنفات طبقات حسب القيمة سواء تعلق الأمر بدرجة العلم مثل كتب طبقات الحفاظ و المحدثين و الضعفاء و المتروكين ، أو تعلّق بمدى صدق الراوي مثل طبقات الثّقات والوضّاعين و الكذّابين أوغير ذلك ككتاب الثقات لابن حبان ، و الثقات للعجلي ، و الضعفاء للبخاري و مثله للدارقطني و العقيلي و غير ذلك من الكتب الكثيرة جدا ، و هذه الأوّلية لمصنفات المحدثين في هذا المجال معقولة بالنظر لاهتمام المسلمين بعلوم الدين في البداية خصوصا علم الحديث التي كانت أكثر إلحاحا منها في غيرها من المعارف ، خاصة مع ظهور الوضع و التدليس ما دعا البحث عن الرواة والتدقيق في أحوالهم عن طريق الإسناد حتى تمكنوا من فرز ثقات الرواة والمحدّثين من غيرهم (4).

غير أن هذه الفكرة لم تقتصر على ميدان الحديث بل امتدت إلى ميادين أخرى ، فوضع العلماء مؤلفات في طبقات الشعراء ثم النحاة و اللغويين و الأطباء و الحكماء مثل كتاب طبقات النحويين البصريين و أخبارهم لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد (286هـ) و أخبار النحويين لابن

---

1)- محمد بن إسحاق أبو الفرج النديم ، الفهرست ، مطبعة دانشكاه ، طهران/إيران ، 111/1 .

2)- ابن النديم ، الفهرست 112/1 .

3)- المصدر نفسه 203/1 .

4)- جهاد المجالي، طبقات الشعراء ، دار الجيل ، بيروت/لبنان، مكتبة الرائد العلمية ، عمان/الأردن ط1، 1992م، ص 27 .

درستويه وكتاب السيرافي طبقات النحاة البصريين وصولا إلى أزمنة متأخرة مثل مؤلف السيوطي بغية الوعاة في طبقات اللغويين و النحاة[(1)] .

بالنسبة للأدب فإن الأمر لا يختلف في التأليف عنه كما في علم الحديث لكن الغالب عند نقاد الأدب هو تقدير منازل الشعراء و مراتبهم ، فأبو زيد القرشي (170هـ) في جمهرتة رغم أنه قسم كتابه موضوعيا كما يبدو إلا أنه اعتمد الطبقات الزمنية ، أما ابن سلام (232هـ) فقد صنف الشعراء بالنظر إلى أزمانهم فوضع قسما للجاهليين و آخر للإسلاميين و وزّع المخضرمين على القسمين ، و اتبع ابن قتيبة (276هـ) الترتيب ذاته، لكنه ترجم أولا للشعراء الجاهليين و المخضرمين ثم لعدد من الشعراء الأمويين ثم العباسيين لكن يبدو أنه لم يراع الترتيب الزمني الفردي دائما و ذلك لما نجده عنده من تراجم لمخضرمين قبل جاهليين و تفسيره هو أنه راعى الترتيب الزمني للمجموع[(2)]، و الشأن نفسه بالنسبة لابن المعتز(296هـ) في طبقات الشعر .

إذن من خلال ما سبق نفهم أن معنى الطبقة عند نقاد الأدب لم يقتصر على المعنى الزمني بل تعداه إلى المعنى القِيمي حسب مكانتهم و درجاتهم كما هي الحال عند ابن سلام ، على الرغم من أن محقق كتاب طبقات فحول الشعراء ينفي المعنى القِيمي للطبقات و يذهب إلى معنى المنهج أوالأسلوب"[(3)] ، لكن يرى الكثير من الباحثين أن ابن سلام قصد المعنى القيمي و الأدلة كثيرة في كتابه و من أقواله نفسه ، ففي حديثه مثلا عن شعراء الطبقة الرابعة الجاهليين ، يقول : "و هم أربعة رهط فحول شعراء موضعهم مع الأوائل و إنما أخل بهم قلة شعرهم بأيدي الرواة "[(4)] ، فهو يقول صراحة أنه أخّر هؤلاء الأربعة لأنهم مقلين ، و لو أن ترتيبه كان فنيا فقط لما نظر إلى هذا الجانب .

و مهما يكن من أمر فإن هذه الكتب الأدبية لم تكن كتب جمع فقط بل كانت تعتمد الانتقاء و الانتخاب وفق قواعد نقدية ثابتة عموما عند كل مؤلف أو ناقد على الأقل .

---

1)- جهاد المجالي، طبقات الشعراء، ص 26 .

2)- المصدر نفسه ، ص 26 .

3)- المصدر نفسه ، ص 68 .

4)- ابن سلام الجمحي ، طبقات فحول الشعراء 137/1 .

وابن رشيق في كتاب العمدة ذكر كذلك في طبقات الشعراء منهجين من التصنيف الأول وفق الترتيب الزمني حيث يقول بأن : "طبقات الشعر أربع: جاهلي قديم ، و مخضرم ، و هو الذي أدرك الجاهلية و الإسلام ، و إسلامي ، و محدث ثم صار المحدثون طبقات : أولى و ثانية على التدريج ، و هكذا في الهبوط إلى وقتنا هذا " (1) ، و التصنيف الثاني فني أدبي حيث أنشد في بيانه لغيره :

الشعراءُ فاعلمــنَّ أربعــةْ فشاعرٌ لا يُرتجَــى لمنفعةْ
وشاعرٌ ينشد وسْط المجْمعةْ و شاعرٌ آخَرُ لا يجري معهْ
و شاعر يُقالُ خمرٌ في دعةْ (2)

و نقل كذلك في هذا الصدد قولهم : "الشعراء أربعة : شاعر خنذيذ و هو الذي يجمع إلى جودة شعره رواية الجيد من شعر غيره ، و سئل رؤبة عن الفحولة ، قال : هم الرواة ، و شاعر مفلق ، وهو الذي لا رواية له إلا أنه مجوّد كالخنذيذ في شعره ، و شاعر فقط و هو فوق الردئ بدرجة ، وشعرور، و هو لا شيء "(3) .

من هذه النقول نستنتج أن ابن رشيق قرّر بها واقع تصنيف الشعراء إما على طبقات الزمن أوتصنيفهم من خلال جوانب فنية متعددة كما في النص الثاني .

كتاب الأنموذج هو الآخر لا يخرج في فلسفته عن هذا السياق لدى ابن رشيق لكن عوامل التطور الفكري ظاهرة على لغته و منهجه على الأقل في حدود ما وصلنا منه في شكله الحالي ، حيث أن ابن رشيق خصص كتابه لترجمة مائة من الشعراء الذين ينتمون واقعيا و حضاريا إلى القيروان، إذ نجد في كتابه أعلاما خارج منطقة القيروان لكنهم ينتمون إليها ثقافيا ، و أعلاما أخر لم يذكر تاريخ وفاتهم ما يبيّن أنه لا يبالي بالتواريخ كثيرا ، و هذا كله في حدود من عاصره و شهده ابن رشيق من الشعراء ، هذا يعني أن شعراءه تجمعهم زمنيا طبقة واحدة ، يبقى ترتيبهم داخل هذه الطبقة محل نظر، لأن الكتاب في شكله الحالي كما أخرجه جامعاه مرتب ألفبائيا ، لكن محتواه ينبئ أن

1)- ابن رشيق ، العمدة ، 113/1 .
2)- المصدر نفسه 114/1 .
3)- ابن رشيق ، العمدة ، 115/1 .

للكتاب تقسيما و ترتيبا آخر ، أو على الأقل يمكن تقسيمه بطريقة أخرى منهجيا أو أدبيا ، بالنظر إلى المصطلحات النقدية و التعليقات الأدبية التي يحكم بها ابن رشيق في كل ترجمة .

من الواضح أن ابن رشيق لم يعتمد في تقسيم كتابه المعطيات الزمانية أو الجغرافية ، لأنه لو سلك هذا المنهج لاتضح ذلك فيما وصل إلينا و لأشار له من نقل عنه ، لكن عموما يمكننا تقسيم شعراء أنموذج ابن رشيق إلى أربع طبقات ، يمكن اعتبارها واقعا من معطيات الكتاب وليست وضعا اعتباطيا أو تعسّفيا ، بل إن ابن رشيق نفسه صرّح أنه قسّم كتابه وفق طبقات في ترجمة ابن غالب ، حيث يقول ابن رشيق في سياق إيراده لنصوص المترجَم له : "و أنا أقتصر من كلامه على ما جانس الوقت و ناسب الطبقة"[1] ، و لا نحسبه يريد إلا طبقة الشاعر .

و على العموم الطبقات التي يمكن تمييزها في الأنموذج هي : طبقة الشعراء النقاد ، طبقة الشعراء الكتاب ، طبقة الشعراء الفحول ، طبقة الشعراء المتوسطين ، و رغم ما في هذا التقسيم مما يظهر من عدم التجانس حيث أن الشعراء الكتاب لا يتجه تصنيفهم مع النقاد و الفحول و المتوسطين ، إلا أنه يمكن اعتبار أنّ ابن رشيق أراد إفرادهم بطبقة لتميّز فئة الشعراء الكتاب في تلك الفترة ، خاصة وأنّه توجد بعض كتب الطبقات التي تقسم حسب المنهج و التميز ، و ليس حسب الإجادة والقدرة و المكانة دائما ، كما يرى محمود شاكر في مقدمة طبقات ابن سلام أن هذا الأخير عنى بطبقاته المناهج فكل طبقة عنده تمثل منهجا مستقلا و متميزا في عالم الشعر[2]، و الشأن نفسه يمكن استنتاجه من جمهرة[3] القرشي الذي قسّم كتابه إلى معلقات ومجمهرات و منتقيات ومذهبات وغير ذلك ، و يمكن اعتبار الأمر كذلك في هذا التقسيم لدى ابن رشيق ، ثم إن التميز المنهجي يتبعه بشكل مباشر تميز أدبي فني ، لذلك فالجمع بين هذه الطبقات ليس أمرا نشازا يرفضه المنطق الأدبي .

لكن يبقى المعيار العام الثابت في تقسيم ابن رشيق للأعلام في الأنموذج هو الجودة و دليل ذلك :

---

1)- ابن رشيق ، الأنموذج ص 289 .

2)- ابن سلام ، طبقات فحول الشعراء ، مقدمة المحقق ، 65،69/1 .

3)- محمد بن أبي الخطاب القرشي (170هـ)، جمهرة أشعار العرب ، تح: علي محمد البجادي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ، ص 111، 379 ، 431، 491 .

ما قاله ابن رشيق : كتب إلي – عبد الرزاق النحوي – لما صنعت هذا الكتاب صحبة نبذ أنفذها إلي لأثبتها :

يـــا مبرزاً إبريـــز خير سبيكــة	و مكللا إكليـــل خيـــــر متوجِ
و مميّــــزا جنسي مقدمة النّهى	إن أشكلا من عاقـــر أو منتـــجِ
و مطرّزا حلل البلاغــــة معجزا	كل الورى ببلاغـــــــة الأنموذجِ
فكأنّه للسمع لفـــظُ أحبـــــةٍ	و كأنّـــه للعين روض بنفســـجِ
و كأنّه للقلبِ سحــــــرُ علاقـةٍ	في مهجة تخشى الصدود و ترتجي
خصصت أهل الغرب منه بمشرق	بأقـر مــــن شمس النهار و أبهجِ
رجّحْت بين ذوي الفصاحةِ منهمُ	**و فصَلْـــت بين مرتّب و مثبِّـــج**
و كشفتُ عن شعـــري لتلحقهُ به	فاستُر على خلٍّ لسترِك محُـــوجِ[1]

فقول عبد الرزاق النحوي "رجّحت بين ذوي الفصاحة منهم" يدل صراحة أن ابن رشيق ميّز بين شعراء أنموذجه بعد انتقاءهم و انتخابهم ، يضاف إليه أن ابن رشيق ترجم في الأنموذج لأهم شعراء عصره و أعلامهم و دليل ذلك أنه أهمل البعض منهم رغم معرفته بهم لأسباب مختلفة ، ما يعني أن التفضيل مستخدم وفق منهج هو الجودة .

و يبدو ابن رشيق كغيره من نقاد الأدب متأثرا بعلماء مصطلح الحديث خاصة فيما يخص ايراد المصطلحات مختصرة و من غير تعليل مطول .

بالعودة إلى المرحلة التي سبقت ابن رشيق ، نجد أن لدى نقاد المغرب الإسلامي في هذه المرحلة ، إشارات إلى فكرة الطبقات ، التي تدل على وجود حراك نقدي واع ، خاصة عند النهشلي و برية الرياضي ، و ربما هي الإرهاصات التي ألهمت ابن رشيق و دفعت به بعد ذلك .

حيث أنه يمكن أن نقسم فلسفة النقاد المغاربة في موضوع الطبقات إلى ثلاثة أقسام ، الأول متعلق بطبقات المخاطِبين أو الأدباء ، الثانية هي طبقات المخاطبين ، الثالثة طبقات الخطاب .

1)- ابن رشيق ، الأنموذج ص 155 .

أولا: طبقات المخاطِبين

لما نتناول موضوع الطبقات في أي مجال فإن أو يتبادر إلى أذهاننا هو طبقات رجال ذلك الفن ، مهما كان ، و لما نتحدث في موضوع الأدب فإن أول ما يخطر لنا هو طبقات الأدباء أوالشعراء ، أو طبقات المخاطبين بصفة عامة ، وفيما يخص هذا الموضوع فإننا نجد اعتبارات متعدد لأولئك النقاد الذين أشاروا إلى هذا الموضوع في آثارهم ، حيث نجد المعيار التاريخي البحث لدى البعض و نجد أحيانا المعيار الأخلاقي لدى البعض الآخر ، في حين تغيب فلسفة طبقات المخاطبين لدى البعض الآخر، كما هو الشأن عند برية الرياضي في كتابه تلقيح العقول حيث أنه قسم كتابه حسب أبواب بطريقة موضوعية ، لأنه أراد أن يعطي لكتابه بعد وظيفيا واضحا و هو توجيه العقول و تهذيب النفوس ، لذلك لا أحسن في خدمة موضوعه من التقسيم الموضوعي.

أما الرقيق القيرواني فقد اتبع في كتابيه الذين بين أيدينا خطا واحدا و هو التقسيم التاريخي ، كمؤشر على عقليته العلمية ، التي يهدف من خلالها الجمع و المفاضلة و التقييم حيث قسم قطب السرور قسمه في البداية حسب الطبقات التاريخية ، و الشأن نفسه في كتاب تاريخ افريقية و المغرب الذي هو أساسا فيى التاريخ ، بل أكثر من ذلك أننا في كتاب قطب السرور نجد بعض الإشارات لفكرة الطبقات عند الرقيق مما يوحي بذهنية الناقد عنده حيث ينقل نصا في حق الرشيد أبو جعفر بن محمد الهادي أنه : "أول من جعل المغنيين طبقات و مراتب على مقدار المحسن منهم أو توسطه أو تخلفه ..." (1).

أما النهشلي فإننا نجد رؤيته الأخلاقية الموضوعية حاضرة في كل أقواله النقدية ، حيث يؤكد رؤيته الأخلاقية تجاه الشعر من خلال ما نقله في هذا الصدد من أن أهمية الشعراء باعتبار القيمة الأخلاقية لأقوالهم ، إيجابا أم سلبا إذ يسوق في ذلك قولا لأبي سفيان بن حرب لابن الزبعري : لو

1)- الرقيق القيرواني ، قطب السرور ص 352 .

أسهبت في شعرك ، قال حسبك من الشعر غرة لائحة، و سبة فاضحة ، وأنشدني في نعت الشعر[1]:

الشعـراء فاعلمـــن أربعـــه فشاعر يجري و لا يجرى معه
و شاعر ينشد وسط المعمعه و شاعر لا يرتجـى لمنفعـــه
وشاعر يقال خمر في دعه

ففي هي الأبيات إشارة إلى صنف الأشعار أو الشعراء الذين لا يعتبر بشعرهم لاعتبارات المنفعة في شعرهم كشعر الخمريات أو الفخر و الحماسة أو غيرها بما لا يفيد حسب النهشلي منفعة .

إضافة إلى ذلك فهو كما برية الرياضي قسم كتابه الممتع حسب المواضيع ، و ليس وفق طبقات التاريخ أو الجودة .

ثانيا: طبقات المخاطبين (المتلقين)

في العادة أننا نجد في كتب الأدب و النقد طبقات للأدباء و الشعراء مصنفة بمعايير تاريخية أوفنية أو جغرافية أو غير ذلك ، أما أن نجد طبقات للمخاطبين فهذا نادر جدا ، حيث أننا لا نجده عند نقاد الأدب إلا لدى برية الرياضي و هو في معرض تفصيله لأسلوب التخاطب مع المتلقي ، وشرحه للطريقة المثلى للإبلاغ ، و إن كان برية يتحدث في الذرجة الأولى عن الرسائل الرسمية ، لكنه يشير دائما إلى أن الرسائل التي يعنيها صادرة من أديب عليم باللغة و آدابها ، و موجهة لمتلق نبيه فهيم بالكلام و أجناسه ، و الرياضي في تقسيمه هذا لم يعتمد على معايير فنية أو جمالية و إنما اعتمد معاييرا اجتماعية سياسية متناسبة مغ أغراضه و أهدافه ، فهو يرى ضرورة مخاطبة المتلقي بلغة مقامه ومنصبه ، من حيث انتقاء الألفاظ و استخدام المعاني ، ليصيب المتكلم حاجته ، وهي المسألة التي أشار إليها بشر بن المعتمر إلى في الصحيفة الهندية التي تركز على مفهوم الابلاغة بأنها مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، إذ غذت قضية التناسب بين الخطاب و المتلقي هي محور البلاغة إذ يقول في هذا الصدد: "لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة و لا الملوك بكلام السوقة ... و مدار الأمر غلى إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم و الحمل عليهم على أقدار منازلهم"[2]

1) - النهشلي ، الممتع ، ص 28 .
2) - الجاحظ ، البيان و التبين ، 1/92-93 .

و هي النظرة الوظيفية للكلام التي يشير إليها الرياضي في كل موضع ، لذلك جعل طبقات المتلقين ثمانية ، أربعة منها علوية ، و أربعة دونها ، و ذكر لكل طبقة ما يناسبها من الكلام و يلائمها من الأساليب، يقول في هذا الصدد : "و خاطب كلا على قدر أبهته و جلالته ، وعلوه وارتفاعه، وتفطنه وانتباهه، واجعل طبقات الكلام على ثمانية أقسام ، فأربعة منها للطبقة العلوية ، و أربعة دونها، و لكل طبقة منها درجة ، و لكل قسمة حظ لا يتسع للكاتب البليغ أن يقصر بأهلها عنها ، و يقلب معناها إلى غيرها ".

و تفصيل الطبقات التي وضعها الرياضي على النحو التالي :

1- **طبقة الخلفاء و السلاطين:** فهو يرى أن مقام الخلافة و السلطنة لأ الله تعالى أعلى من شأنه و أوجب احترامه و توقيره ، فهو جدير بأرفع الأساليب و الألفاظ ، و لا يحسن مخاطبة مقامه كما يخاطب بقية الناس ، بل يجب مرعاة هذا المقام بالتفخيم والتوقير ، ووضوح الكلام ، و سهولة البيان ، لأن المخاطبين في ذلك المقام إضافة إلى أنه يستلزم ذلك فهم طلاب حاجة و أصحاب رسالة ، لذلك لزم الإفصاح والإيضاح[1].
2- **طبقة الوزراء و الكتاب** : يرى الرياضي أن هذه الطبقة أكثر نباهة و عقلا و أدبا من الطبقة الأولى ، لأن الوزراء و الكتاب هم الندماء و رجال الدولة الذين يخاطبون الجميع من فوقهم و من دونهم ، لذلك تجدهم عليمين بأساليب اللغة و أسباب الأدب و الجمال فيها ، لذلك حسن مخاطبتهم بلغة تليق بأدبهم و نباهتهم [2].
3- **طبقة الأمراء و العسكريين** : يقول الرياضي أن هذه الطبقة ينبغي مخاطبتها باستحضار ما قامت عليه من مهام و ووظائف ، و تتلاءم مع جليل هذه الأمور وعظيمها ، التي تجعلهم يدركون مقامهم و مقام ماهم فيه[3].
4- **طبقة القضاة:** يرى الرياضي أن هذه الطبقة ينبغي أو توقر توقر الخلفاء و السلاطين لعظم مع وكلوا به ، و أن تخاطب مخاطبة العلماء النبيهين ، و تلاطف ملاطفة الأدباء العليمين بجميل اللغة و حسن الأساليب لأنهم يجمعون بينهم ، لكن مع مرعاة رسمية

1) - برية الرياضي، الرسالة العذراء ، ص 36-37-38.
2) - المصدر نفسه ، ص 36-37-38.
3) - المصدر نفسه ، ص 36-37-38.

التعامل معهم لأنه قضاة الدولة و حفاظ عدالتها ، فأبهة الدولة و هيبتها ملتصقة بهم، لكن لغة خطابهم أسهل من لغة الخلفاء (1).

يرى الرياضي أن هذه الطبقات الأربع السابقة لايجوز في حقها إلا التقديم و ما غايرها لا يمكن أن يتقدمها لذلك يشير بعدها إلى الطبقات الأربع الباقية حسب ما قسمه .

5- **طبقة الملوك**: و يقصد بهم الملوك الأجانب ، فهم كذلك يستأهلون التفخيم والتوقير في مخاطبتهم ، و إظهار أهمية ما هم فيه(2) .

6- **طبقة وزراء و كتاب** : و المقصود كذلك أمراء و وزراء الملوك الأجانب ، كذلك يجب مخاطبتهم بلسان الفهيم النبيه ، لأنهم واسطة الملوك و عقولهم التي يسوسون بها ويديرون و لسانهم الذي يخاطبون به يحكمون (3).

7- **طبقة العلماء**: و هذه تستوجب من التوقير و تفخيم الكلام ما يستوجبه الوزراء والكتاب ، مع الفرق بينهم حيث يجب توقيرهم بما يليق بشرف العلم و علو مرتبته ، وليس بما يليق بمقام السياسة (4).

8- **طبقة النبلاء و الأدباء** : و هذه الطبقة جعلها برية الرياضي لأهل القدر و الجلالة، و الظرف و الحلاوة ، و العلم و الأدب ، الذين يجب استخدام أظرف الأساليب وأحسن اللغات و البلاغات لأنهم يضطرونك بحدة أذهانهم ، و شدة تميزهم وانتقادهم و أدبهم و تصفحهم إلى الاستقصاء على نفسك في مكاتبتهم كما يقول(5).

و يقول الرياضي أنه لم يرى غير هذه الطبقات الثمانية لأن عموم الناس و السوقة و التجار حسبه، مستغنون بأعمالهم و تجارتهم و شؤنهم، عن الاشتغال بفنون القول و عذب الأساليب، فهم حسبه غير مهتمين بالقراءة و الأدب و فنونه(6) .

---

1) - برية الرياضي ، الرسالة العذراء ، ص 36-37-38.

2) - المصدر نفسه ، ص 36-37-38.

3)- المصدر نفسه ، ص 36-37-38.

4)- المصدر نفسه ، ص 36-37-38.

5)- المصدر نفسه ، ص 36-37-38.

6)- المصدر نفسه ، ص 36-37-38.

ثالثا: طبقات الخطاب

تحدث برية الرياضي عن طبقات في الكلام في معرض حديثه عن طبقات المخاطبين السابقة حيث أشار إلى ضرورة التنبه ، إلى أن لكل طبقة من هذه الطبقات أساليب خاصة و معاني و ألفاظ تناسبهم ، يجب مراعاتها أثناء العملية التواصلية ، فحتى لو كان المخاطب أديبا بليغا كليما ، فإنه متى لم يراع مقام المتلقي و حقه و مسلكه و فكره ، فإن هذا الأديب سينقلب أدبه و بلاغته عليه سلبا ، فالعبرة ليست في اللسان فقط و إنما في اللسان و المقام و حسن الاستخدام يقول في بيان كل هذا:

"لكل طبقة من هذه الطبقات معان و مذاهب يجب عليك أن تراعيها في مراسلتك إليهم في كتبك و تزن كلامك في مخاطباتهم بميزانه ، و تعطيه قسمه ، و توفيه نصيبه ، فإنك متى أضعت ذلك لم آمن بك أن تعدل عن بهم عن طريقهم و تسلك بهم غير مسلكهم و تجري شعاع بلاغتك في غير مجراه ، و تنظم جوهر كلامك في غير سلكه"(1) .

ثم أشار الرياضي في سياق ذلك إلى أنواع الخطاب و أصناف الدلالات التي تخاطب بها طبقات المخاطبين السابقة ، و هي حسبه ليست اللسان و الكتاب فقط ، و إنما نجد فيها الإشارة والنصبة كذلك كما ينقل عن أرسطاليس ، بل هو يرى أن ما يمكن أن يؤديه المخاطب بلسان حاله قد يكون أبلغ مما يؤديه بلسانه أو كتابه ، لذلك يرى أن هذه النصبة أو ما يمكن ان نسميه لسان الحال ، تحضر في كل الحالات الأخرى يقول في هذا الصدد : "و الدال على المعنى أربعة أصناف لفظ و إشارة و عقد و خط ، و ذكر أرسطاليس صنفا خامسا و هو الذي يسمى النِّصبة و النصبة و هي الحال الدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف الأربعة . و هي الناطقة بغير لفظ ، و المشيرة إليه بغير يد ، وذلك ظاهر في خلق السموات و الأرض، و في كل صامت و ناطق ، و هي داخلة في جملة المعاني الأربعة و خارجة منها بالحلية ... و لكل واحدة من هذه الرسائل صورة مخالفة لصور صاحبتها ، و حلية غير مشاكلة لحلية أختها ، غير أنها في الجملة كاشفة عن أعيان المعاني و سافرة عن وجوهها"(2).

لكن ما سماه بالنصبة أو لسان الحال ، رغم أهميتها فإنها لا تستغني بنفسها عن الأخرى ، بل إن اللسان أو الكتاب قد يستغنيان أم هي فلا قوام لها إلا بإحد الطرق الأخرى ، لذلك فإن القلم

---

1) - برية الرياضي ، الرسالة العذراء ، ص 38.

2) - المصدر نفسه ، ص 71-72-73 .

واللسان عنده في أعلى المراتب و أشرفها ، و قد يحقق المخاطب منيته بأحدها فقط ما أحسن استخدام و أجاد استغلالها ، يقول في ذلك : "و أوضح هذه الدلالات و أفصح هذه الأصناف صنفان منها ، وهما اللسان و القلم و كلاهما يترجمان و يدلان على القلب ، ويستمليان منه ، ويؤديان عنه مالا تؤدى هذه الأصناف الباقية [1].

و أما اللسان فهو الآلة التي الانسان بها من حد الاستبهام إلى حد الانسانية بالكلام .

و لذلك قال صاحب المنطق: حد الانسان الحي الناطق .

و قال علي بن عبيدة: إنما يبين عن الانسان : اللسان و عن المودة العينان .

و قال هشام بن عبد الملك : "إن الله سبحانه رفع درجة اللسان فأنطقه من بين الجوارح بتوحيده ، وما جعل الله من عبر عن شيء مثل من لم يعبر عنه "

و قال آخر : الرجل مخبوء تحت لسانه .

و قالوا: المرء بأصغريه قلبه و لسانه [2].

إلى جانب الرياضي في هذا الصدد اشتهر عن النهشلي تقسيم لطبقات الخطاب برؤية فنية مؤكد أن الجوانب الأخلاقية حاضرة فيها باعتبار عقلية النهشلي التي تميل نحو تحصيل المنفعة والفضيلة من الشعر و البعد عن سفاسف الأمور و مبتذلها ، إذ يقول في الممتع نقلا عن أحدهم: الشعر ثلاثة أصناف ، فشعر يكتب و يروى ، و شعر يسمع و لا يروى و شعر ينبذ و يرمى"[3] ، فهذا الكلام يوحي أن رؤيته باعتبار الجودة لكن الجودة ليست باعتبار المقام الاجتماعي أو السياسي أو العلمي بل باعتبار القيمة ، لأن الشعر الذي لا يرقى إلى لغة الشعر و معانيه فإنه لا يستحق صفة الشعر ، وإنما كما قال ينبذ ويرمى، فهو شعر غير معتبر ولا محفوظ و لا مقيد ، بل هو في نظر النهشلي لا يستحق الرواية و الحفظ بل حقه النبذ والإهمال لنزوله في القيمية و الفضيلة ، و الشأن نفسه بالنسبة للشعر الذي ذكره في المرتبة الثانية و هو الذي يستحق السمع، كأن أهميته معرفية أو لغوية أو تاريخية

1) - برية الرياضي ، الرسالة العذراء ، ص 71-72-73 .
2) - المصدر نفسه ، ص 71-72-73 .
3) - النهشلي ، الممتع ، ص 28 .

تستأهل حفظه أما اعتباره من الناحية القيمية فلا ، أما المرتبة الأولى عنده فهو ذلك الشعر الذي استكمل شروط اللغة والفضيلة.

نخلص في ختام هذا الفصل إلى القول بأن الغرب الإسلامي شُغِل منذ بداية مناقشاته النقدية بنفس المسائل التي شغلت الحركة النقدية في المشرق ، و ذلك لاعتبارات كثيرة أهمها أنّ أهم النقاد فيه كانوا يعيشون هذه القضايا بشكل مباشر في مهدها قبل عودتهم إلى الغرب الإسلامي كما نجده عند برية الرياضي ، مع اعتبار الخصوصية العلمية للمنطقة إذا وجدنا بأن تلك النقاشات والملاحظات النقدية لم تتعد كونها توجها مثريا و معيارا مُحَكِّماً ، و ليست تيارا مستحكما كما كان عليه الشأن في المشرق يعني أن هذه الاختيارات النقدية و صلت في صورتها الواضحة ، لذلك نجد ناقدا مثل برية الرياضي يتحدث عن أهمية الأدب باعتبار ما يؤديه من رسائل مقصودة للمتلقي ، و يحدثنا كذلك بشكل ناضج عن الطبقات بمختلف اعتباراتها ، ونجد كذلك النهشلي يحدثنا عن قضايا نادرا ما حللها في فترة متقدمة ناقد بذلك العمق مثل أثر البيئة في الأدب ، ما يعني أن هذه المرحلة التاريخية أسست بشكل مهم للنقاد الذين تلوهم في الغرب الإسلامي .

الفصل الثالث

اتجاهات النقد الأدبي في المغرب العربي ما بين الفتح الإسلامي ونهاية القرن الرابع الهجري

مدخل

المبحث الأول: أهمية النقد و الانتقاد

المبحث الثاني: مقومات النقد الأدبي في الغرب الإسلامي

المبحث الثالث: إتجاهات النقد الأدبي في الغرب الإسلامي

الفصل الثالث : اتجاهات النقد الأدبي في المغرب العربي ما بين الفتح الإسلامي ونهاية القرن الرابع الهجري .

مدخل:

بين يدي الحديث عن النقد في المغرب الإسلامي في بدايته ، يلزم التمهيد لذلك بالإشارة إلى الكثير من القضايا المتفرقة ، التي ساهمت و أثرت بشكل كبير في طبيعة و فلسفة النقد في بلاد المغرب ،بما جعله يختلف جوهريا عن ذلك الذي عرفه المشرق و الذي عرفته الأندلس غير بعيد عن المغرب العربي ، و يظهر ذلك جليا في الآثار التي تبعت تلك الحركة النقدية ، و كيف تطور الأدب والشعر في بلاد المغرب بشكل مختلف عن الذي في المشرق و كيف ظهرت بعض الألوان الأدبية واشتهرت في المغرب الإسلامي و لم تشتهر في المشرق أو العكس، و ذلك راجع من دون شك إلى المقومات و العوامل و الأسباب و الزمان و المكان ، الذي بدأت فيه الحركة الأدبية و النقدية العربية في بلاد المغرب الإسلامي .

أول ما يمكن الإشارة إليه هو أثر التنافس المذهبي و العقدي في بلاد المغرب على النقد الأدبي و كيف كانت تتعامل كل طائفة و فرقة مع اللغة و الأدب و الشعر خاصة ، ابتداء من طبيعة الرجال الفاتحين الذين جاؤا إلى المغرب من صحابة و تابعين ، ثم رجال الحكم و السياسية الذين تلوا تلك المرحلة ، وصولا إلى ظهور الفرق الكلامية و الفقهية مثل الخوارج و الإباضية الذين حكموا المغرب فترة و أثروا في أدبه و نقده و المعتزلة الذين قوي سلطانهم مع الأغالبة و ما كان لهم أثر بالغ في إثارة الكثير من القضايا المتعلقة بالقرآن و بلاغته و إعجازه ، مما يعتبر محركا قويا للنقد و الانتقاد ، إضافة إلى رجال السنّة المعروفون بمواقفهم الصارمة و ثبات رؤيتهم نحو الأشياء ، و في مرحلة أخرى كذلك تأثر فيها الأدب و النقد كثيرا و اتخذ خطا جديدا خاصة على مستوى النخبة السياسية و ما حولها إن صح التعبير ، و هي الفترة التي حكم فيها الإسماعلية الفاطميون منطقة المغرب الإسلامي ، أين اشتد الصراع الأيديولوجي و الأدبي بين مختلف الفرق الإسلامية ، و أثر ذلك في النقد و الانتقاد كما نلمحه في كتاب الأنموذج لابن رشيق ، أما في الفترة التي حكم فيها الصنهاجيون الأشاعرة المالكيون

المغرب فقد اختلف منهج التفكير و الأدب و النقد ، و تميز بالتحرر و الموضوعية ، و هو عائد إلى الاستقرار و خفة حدة الصراع الأيديولوجي ، ليعود الانغلاق بعدهم مع الموحدين والمرابطين و من تلاهم .

فالمناظرات التي كانت تعقد بين هذه التيارات أثرت كثيرا في الخطاب النقدي المغربي خاصة تلك التي كانت بين السنة و الشيعة و السنة و المعتزلة و السنة و الخوارج و المعتزلة و الخوارج وغيرها، كالمناظرة بين ابن ابي الجواد و سحنون (1).

يعني بالمختصر فإن النقد في بلاد المغرب أثرت فيه تيارات فقهية و عقدية و سياسية ، كانت دائما على طرفي نقيض في منهجية التفكير ، بين الرافض و المتفتح ، و الأثري و العقلي ، والمتعصب و الموضوعي .

و في سياق الحديث عن تأثر النقد في بلاد المغرب بالتيارات الفقهية و العقدية و السياسية ، فإنه تجدر الإشارة إلى أن النقد في هذه المنطقة تأثر كثيرا بالمذهب المالكي و فلسفته التي سيطرت على منطقة المغرب بفعل الفكر و العقل و العاطفة فقط في البداية ، فكانت الكثير من القضايا النقدية مرتبطة بعقلية الفقهاء الذين سيروا الفكر في هذه المنطقة مثل سحنون و ابنه و ابن غانم و غيرهم ، وأن الكثير من الروح الأخلاقية القيمة في نقد المغاربة اكتسبوها من تأثرهم بهذا المذهب و عقليته،

و مناظرة ابن ابي الجواد و سحنون شيخ المالكية في تلك الفترة مشهورة معروفة [2].

إذا قلنا فيما سبق إن المرحلة الذهبية للنقد في بلاد المغرب ارتبطت بعصر الصنهاجيين خاصة المعز بن باديس و ابنه تميم ، و هي الفترة التي عاش فيها أهم النقد مثل النهشلي و ابن شرف والقزاز و الحصري و ابن رشيق ، فإن المرحلة التي بدأ النقاد المغربي القديم يشق فيها طريقه بشكل منظم ، هي عصر الأغالبة ، الذين كان يجمع الكثير منهم بين الحنكة السياسية و الثقافة الأدبية و العلمية،

1) – عبد المجيد بن حمده ، المدارس الكلامية بافريقية إلى ظهور الأشعرية ، تونس ، دار العرب ، 1986م، ص 163 .

2) – المصدر نفسه ص 163 .

وهم الذين عرفوا بمحاولة الخدمة المطلقة للفكر و الثقافة ، ثم إن تأثرهم بعقيدة المعتزلة ساهم كذلك في ميلهم إلى هذا النسق المفتوح من التفكير خاصة لدى حاشيتهم و بلاطهم ، حيث يذكر الرقيق القيرواني في "كتاب تاريخ إفريقية و المغرب" أن بعض الأمراء المغاربة خاصة الأغالبة و حاشيتهم كانوا علماء باللغة و الأدب و هو ما ساهم في إقامة مدرسة الغرب الإسلامي النقدية والأدبية(1).

مما تجدر الإشارة إليه في هذا الصدد هو أنه من العوامل المهمة التي ساهمت في قيام الحركة النقدية في بلاد المغرب حركة الرحلات من المشرق إلى المغرب و من الأندلس إلى المغرب ، بدء من الفاتحين الأوائل ثم إلى طلبة العلم و رجال السياسة فيما بعد ، لكن الذي كان له الأثر الكبير في حركة الأدب و النقد هو أن هؤلاء الرحالة لم يكونوا شعراء و أدباء ، و إنما كان أغلبهم رجال علم وفقه و حديث ، و حتى اللغويون لم يكن بينهم متخصصون ، و نعرف مدى إقلال رجال العلم من هذا الصنف من الشعر و الأدب ، لذلك أثروا في الموقف من الشعر و في التعامل مع أغراضه ومواضيعه ، و إذا أردنا أن نأخذ مثالا على ذلك ، لدينا الفقهاء العشرة الذين أرسلهم عمر بن عبد العزيز لبلاد المغرب لتعليمهم أحكام الدين و شريعته .

في السياق نفسه ، فإن المهاجرين من بلاد المغرب تجاه المشرق ، لم يكن هدفهم تعلم الأدب و النقد و الانتقاد ، أو مخالطة العرب الأقحاح و سكان البوادي لأجل اكتساب اللسان الصافي ، و إنما كان لأجل التحصيل العلمي ، و تعلم مختلف الفنون الدينية مثل الحديث و الفقه و غيره ، و لنا في تلاميذ الإمام مالك المغاربة أكبر دليل على ذلك ، حيث أن الكثير فيهم صار أعلم أصحاب مالك و أوثقهم نقلا عنه مثل علي بن زياد الذي قال عنه أسد كان علي بن زياد من نقاد أصحاب مالك و إني لأدعو له مع والدي (2) ، و لنا مثال على ذلك أيضا في الأئمة الأربعة كذلك عند الإباضية .

1) – الرقيق القيرواني ، تاريخ إفريقية و المغرب ،

2)– القاضي عياض ، ترتيب المارك ، 82/3 .

كل المعطيات السابقة أثرت في الأنساق النقدية لنقاد المغرب الإسلامي بين الذوقي و اللغوي و الأخلاقي و غير ذلك حين نجد مثلا أن برية الرياضي أكثر فنية من الرقيق القيرواني حيث أن برية قسم كتابه تلقيح العقول إلى أبواب بطريقة موضوعية بينما الرقيق في قطب السرور قسمه في البداية حسب الطبقات و الشأن نفسه في كتاب تاريخ افريقية و المغرب الذي هو أساسا في التاريخ.

و تتضح هذه الفنية عند برية الرياضي إذا ما فتحنا كتابه الآخر الرسالة العذراء حيث نجده يحتوي على تفكير تحديثي بديع باعتبار المرحلة التي عاش فيها ،لذلك فإنه توجد الكثير من الروابط الفكرية و التطبيقات بين كتابي برية الرسالة العذراء و تلقيح العقول ، مشابهة تماما إلى تلك الروابط التي نجدها عند ابن رشيق في كتابه العمدة و أنموذج الزمان.

المبحث الأول: أهمية النقد و الانتقاد:

تعرض برية الرياضي في رسالته العذراء بشكل مباشر إلى أهمية النقد و الانتقاد، في دعوة صريحة في فترة متقدمة إلى أ ن من أهم أسباب تطوير أساليب الكتابة و جزالة المعاني ، هو الانتقاد ومقارنة الكلام و اعتباره بالنسبة إلى غيره و إلى كلام الفطاحلة و الفحول .

حيث قال في صدر رسالته التى توجه بها إلى ابن المدبر ، إنه ضروري على من احترف الكتابة و النظم أو دعته نفسه إلى احدهما ، أن لا يعميه صنيعه عن اعتبار صنعة الآخرين و إنتاجاتهم الأدبية فلكل فلكه و سبكه و بصمته ، و العبرة لست بالتفرد و إنما بالتعدد و التنوع، لكن التنوع داخل النسق المقبول ، الذي يعتبره جموع المتلقين و سياقهم يقول في ذلك : "فإذا منيت بحب الكتابة وصناعتها و البلاغة و تأليفها و جاش شعرك بشعر معقود ، أو دعتك نفسك إلى تأليف الكلام المنثور ، و تهيأ لك نظم عو عندك معتدل و كلام متسق فلا تدعونك الثقة بنفسك و العجب بتأليفك أن تهجم به على أهل الصناعة، فإنك تنظر إلى تأليفك بعين الوالد لوالده و العاشق إلى عشيقه ،كما قال حبيب[1] :

و يسيء بالاحسان ظنا لا كمن ... هو بابنه و بشعره مفتون

و الرياضي يشرح بعد ذلك سبيل الأعمال الشعرية و النثرية ، بعرضها على المختصين في كل جانب في الوقت نفسه ، يعني على الشعراء و الناثرين في نفس الموقت ، لأنه لكل منهم نظرته تجاه الفن و الأدب ، بل إنه من أكثر من يعطي بعض التفاصيل التقنية التي كان يستخدمها علماء الحديث في امتحان حفظ الرواة ، حيث يقول برية لمن يريد انتقاد شعره ، أن يخلطه بشعر غيره و يعرضه على النقاد من الشعراء و الخطباء و البلغاء ، فمتى ما استملحوا شعره و هم عن صصاحبه غافلون ، كان ذلك مؤشرا على جودة الشاعر أو الأديب ، و حق له حينذاك أن ينسب شعره لنفسه مفتخرا به ، وإذا انصرف المتلقون عنه و عن قبوله كان مؤشرا لضعف قوله ، ودافعا له إلى تطوير أدائه و شحذ قريحته أكثر لينال أدبه رضى جمهور المتلقين .

1) – برية الرياضي ، الرسالة العذراء ، ص 62.

يقول برية الرياضي شارحا المعطيات السابقة مؤكدا رؤيته الثابتة في أن جودة الأدب مرتبطة بإيجابية تلقيه: " و لكن اعرضه على البلغاء و الشعراء و الخطباء ممزوجا بغيره ، فإن أصغوا إليه ، و أذنوا له ، وشخصوا بالأبصار واستعادوه و طلبوه منك و امتزج فاكشف من تلك الرسالة و الخطبة والشعر اسمه، و انسبه إلى نفسك ، و إن رأيت العيون عنه منصرفة و القلوب عنه لاهية ، فاستدل به على تخلفك في الصناعة ، و تقاصرك عنها ، واسترب رأيك عند رأي غيرك من أهل الأدب و البلاغة ، فقد بلغني أن بعض الملوك دعا إنسانا إلى مؤانسته ، حتى ارتفعت الحشمة بينهما ، فاخرج له كتابا قد عشاه بالجلود ، و جمع أطرافه بالابريسم و سوى ورقه وزخرف كتابه و جعل يقرأ له كتابا قد حبره فيه فيه ، و نمقه عن نفسه ، و جعل يستحسن مالا يحسن ، و يقف على ما يستثقل قراءته ، حتى أتى على الكتاب فقال له ، كيف رأيت ما قرأت عليك ؟ فقال: أرى عقل صانع هذا الكلام أكثر من كلامه ، ففطن له و لم يعاوده ، إلى أن وقف به على تنور مسجور ، ثم قذف بالكتاب في النار ، وهذا رجل في عقله فضلة و فيه تميز[1] .

و يشير برية الرياضي إشارة الناقد النبيه العالم الفطن ، إلى أن أحكامه هذه ناتجة عن تجربة و طول مخالطة ، حيث انه يكثر بين محترفي الأدب و الكتابة ، الاعتزاز بالنفس و الاعتداد بالقول في غير محله ، و ذلك ما يكون سببا في الرفض شخصا و رسما حيث يقول في هذا الخصوص: "و إنما البلية فيمن إذا بينت له سوء نظمه و اختياره ووقفته على سخافة لفظه ، هجرك وعاداك [2] .... فاجعل هذا الأصل ميزانا تزن به مذهبك في رسائلك و بلاغتك و لا تخاطبن خاصا بكلام عام ، ولا عاما بكلام خاص ، فمتى خاطبت أحدا بغير ما يشاكله ، فقد أجريت الكلام على غير مجراه ، وكشفته ، و قصدك بالكلام الشريف للرجل الشريف تنبيه بقدر كلامك و رفع لدرجته ، قال:

فلم أمدحك تفخيما لشعرى ... و لكني مدحت بك المديحا

1) - برية الرياضي ، الرسالة العذراء ، ص 62.

2) - المصدر نفسه ، ص 63.

فلا تخرجن كلمة حتى تزنها بميزانها فتعرف تمامها و نظامها ، ومواردها و مصادرها ، و تجنب ما قدرت الألفاظ الوحشية ، وارتفع عن الألفاظ السخيفة ، واقتضب كلاما بين الكلامين [1].

فجودة القول عند الرياضي ليست في القدرة على التحكم في أساليب اللغة و طرق الكلام وأسباب البلاغة ، و إنما في معرفة المقامات و المناسبات ، و الدوافع و العلم بموازين الأمور و مآلاتها وسياقاتها ، و أحوال المتلقين ، فمعرفة ذلك إلى جانب الأخذ بزمام اللغة مؤشر لجودة الكاتب أوالناظم ، أو القائل .

1) – برية الرياضي ، الرسالة العذراء ، ص 64.

المبحث الثاني: مقومات النقد الأدبي في الغرب الإسلامي

إذا أردنا الحديث عن النقد في منطقة الغرب الإسلامي ، فلا بد من التطرق بين يدي ذلك إلى مقوماته و أسبابه التي ساهمت في ظهور و تطوره و توجيهه ، بما يجعل تلك الحركةال نقدية قائمة بذاتها ومتميزة عن غيرها ، متأثرة بمحيطها ، و متجانسة مع بيئتها ، مساهمة في تطوير حركة الأدب والثقافة فيهما ، و التطرق إلى طبيعة الشعراء و الأدباء المتواجدين في المنطقة و الذي يعتبر الحديث في حقهم من تحصيل الحاصل ، إضافة إلى ما قد يميز بعض المناطق من تواجد فئة معينة من علماء الكلام و الفقه، و التميز بكثرة الرحلة و الرحالة ، و اختلاف وجهة ذهابهم و مقدمهم ، مما يجعل المنطقة متميزة وثرية ، و ما يؤثر في حركة النقد كذلك .

المطلب الأول: علم الكلام و المتكلمين و مجالس المناظرة :

من أهم ما نلاحظه و نحن بصدد متابعة النقد في الغرب الإسلامي ، هو تأثره بالحركة الدينة الإسلامية ، خاصة فئة الفقهاء و علماء الكلام ، إذ أن الفئة الثانية تقود العقول و الأولى توجه الجوارح ، و كما مرّ معنا سابقا فإن الكثير من النقاد تأثروا بهذه الحركة فكانت انتقاداتهم دينية بنزعة أخلاقية ، دافعهم إلى ذلك عقيدتهم ، لكنهم مع ذلك لم يغفلوا عن الجانب الفني الجمالي للأدب كبرية الرياضي و النهشلي ، و نجد في مصادر تاريخ المغرب العربي الكثير من القصص التي تروي أحاديث علم الفقه و العقيدة و مناظراتهم و مسامراتهم التي تنطوي في الكثير من الأحيان قضايا نقدية أو علمية تعالج الأدب و الشعر ، إذ نجد عند القاضي عياض الكثير من القضايا من هذا النوع، إذ يروى عن عبد الله ابن أبي حسان قال: استعفى رجال ابن الأغلب من الصلاة عليه –يعني سحنون– و قالوا قد علمت ما بيننا و بينه ، و أنه يكفرنا و نكفره لأن أكثرهم كانوا معتزلة وإنما خرجنا طاعة لك ، فإن صلينا عليه رأى الناس أنا رضينا حاله [1].

و ينقل كذلك قصة أخرى فيما يتعلق بالمعتزلة لما كان بصدد الحديث عن أبي جعفر الصمادحي ، قال: "امتحنه ابن أبي الجواد –أي أبو جعفر الصمادحي– قاضي القيروان و كان

1)- القاضي عياض ، ترتيب المارك ، 85/4 .

معتزليا ، فسأله عن القرآن ، فقال موسى : سمعت فلانا و فلانا و ذكر جماعة من أهل العلم يقولون: من قال (القرآن مخلوق) فهو كافر" [1].

و لا يخفى كيف ساهمت القضايا المتعلقة بالقرآن الكريم مثل مسألة خلق القرآن ، أوالإعجاز، أو النظم ، في توجيه الفكر النقدي في الشرق العربي ، و في الغرب كذلك ، خاصة فكر المعتزلة الذين عرفوا باهتمامهم الشديد بالقضايا البلاغية لأنها أهم الوسائل للإقناع ، و قد كانت غايتهم على الدوام هي الحجاج و الإقناع من خلال الجدل الكلامي ، لذلك كانت فئة كبيرة من علماء البلاغة من المعتزلة خاصة في طور النشأة ، بل إن أهم الخطباء و المفوهين و النظار في تلك الفترة كانوا من علماء الكلام عموما و من المعتزلة خاصة ، و الجاحظ الأديب الناقد المعتزلي نفسه يشهد لنظار معتزلي آخر و هو ثمامة بن الأشرس فيقول في حقه: "ما علمت أنه كان في زمانه قروي و لا بلدي كان بلغ من حسن الإفهام مع قلة عدد الحروف ، ولا من سهولة المخرج مع السلامة من التكلف ما قد بلغه ، و كان لفظه في وزن إشارته ، و معناه في طبقة لفظه ، و لم يكن لفظه إلى سمعك بأسرع من معناه إلى قلبك"[2] ، و بشر بن المعتمر نفسه قرر في صحيفته الكثير من القضايا المتعلقة بالنقد الأدبي متعلقة بالنثر و بالخطابة خصوصا و بالشعر كذلك ، منها أوقات التي تنفتح فيها القريحة لأجل قول الأدب ، و أوقات كسل هذه القريحة ، و قضايا اللفظ و المعنى مثلا إذ يرى على حد قوله أن المعنى الكريم يحتاج لفظا كريما ، و ليس ذلك بأن المعنى من معاني الخاصة و إنما مدار الشرف على الصواب و إحراز المنفعة ، و البليغ التام من استطاع أن يفهم العامة معاني الخاصة، ثم لا بد من الملاءمة بين المعنى و المستمعين ، فلكل طبقة كلام و لكل حالة مقام"[3].

و أشار كذلك بشر بن المعتمر إلى قضايا مثلها في الصحيفة الهندية إذ تركز على مفهوم البلاغة بأنها مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، إذ غذت قضية التناسب بين الخطاب و المتلقي هي محور البلاغة إذ يقول في هذا الصدد: "لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة و لا الملوك بكلام السوقة ...

1)- القاضي عياض، ترتيب المدارك 94/4 .
2) - الجاحظ ، البيان و التبيين ، 111/1 .
3) – المصدر نفسه 135/1-139

ومدار الأمر على إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم و الحمل عليهم على أقدار منازلهم"(1) ، إضافة إلى ذلك فإن الفنون الأدبية كالشعر للمعتزلة كان أهم وعاء يضم فكرهم و أدابهم و منهجهم (2).

لذلك فلقد لعب الفكر الاعتزالي دورا هاما في نشأة التفكير النقدي و تطوره في المشرق والمغرب على حد السواء ، بل إنه ترك فيه بصمة خاصة ، في منهجه و في موضوعاته .

و في السياق نفسه و في مظهر آخر من مظاهر الصراع بين أصحاب التيارات المختلفة التي تجلّت في الأدب و صناعته ما نقله القاضي عياض في حق أبي علي بن خلدون: أنه من فقهاء إفريقية و علمائها و صلحائها من أصحاب أبي الحسن القابسي ،كان رأسا بافريقية ، جليل القدر في فقهائها ، مطاعا ، و كانت العامة تتبعه ، و كان شديدا على أهل البدع و الروافض ، مغريا بهم يستند منه أهل السنة إلى ملجأ ووزر ، حتى نظم ذلك شاعر الرافضة المعروف بالتاخوري في قطعة له، و هو قوله :

عيني من التغميض ممنوعة === و مهجتي بالنار ملذوعة
من حب ظبي حسن وجهه === طرفه بالمسك مصنوعة
لي كبد من فرض إعراضه === إلا تكن ذابت فمصوعة
كأنما ذكرى الهوى عنده === ذكر ابن خلدون لدى الشيعة(3)

و في هذه القصة إشارة إلى الطابع العلمي للشعر إذ كان جزءا من الصراع الثقافي و العقدي.

و المناظرات بين السنة و الشيعة و السنة و المعتزلة و السنة و الخوارج و المعتزلة و الخوارج وغيرها كانت مشهورة ، لعبت السياسة دورا مهما في إذكائها و توجيهها ، لكنها ظلت على الدوام محافظة على نسقها الثقافي في العموم ، بخلاف ما حدث بشكل كبير في المشرق حيث تحولت إلى

---

1) – الجاحظ ، البيان و التبين ، 1/92-93 .
2) – إحسان عباس ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، 68 .
3)– القاضي عياض ، ترتيب المدارك ، 105/7 .

محاكمات و إعدامات و تصفيات فكرية و جسدية ، والمناظرة بين ابن ابي الجواد و سحنون في هذا الصدد مذكورة مشهورة (1).

المطلب الثاني: الرحلة و الرحلات :

من أهم القضايا التي ساهمت في تأسيس الدرس النقدي ببلاد المغرب بشكل مباشر و تطويره الرحلات ، فلقد كانت توجه منهجية النقد في البداية وفق كل ناقد و مشربه ، إن كان من العقلانيين أو الأثريين أو الفلاسفة أو الفقهاء أو غيرهما ، كما أن طبيعة الرحلة كانت مؤثرة في السياق العام للنقد إذ يمكن ان نعتبر أن تأخر الشعر و النقد قليلا في بعض مجالاته في المغرب سببه أن أغلب الذين هاجروا من المشرق كانوا فقهاء و علماء دين رغم أنهم شعراء إلا أننا نعرف إقلال رجال العلم من الشعر و موقفهم منه لذلك تأثر النقد بذلك .

كما أن المغاربة لم يكونوا يرتحلون للمشرق لأجل اللغة و الأدب بالدرجة الأولى و إنما من أجل التفقه في الدين و العكس صحيح فأكثر الوافدين إلى المغرب من الفقهاء و العلماء على شاكلة الفقهاء العشرة الذين أرسلهم عمر بن عبد العزيز للمغرب ، كما مر سابقا .

---

1) عبد المجيد بن حمده، المدارس الكلامية بافريقية ص 163 .

المبحث الثالث: اتجاهات النقد الأدبي في الغرب الإسلامي

اختلفت المناهج النقدية في بلاد الغرب الإسلامي بسبب المعطيات الزمانية و المكانية والاجتماعية التي سبقت الإشارة إليها ، فكان منهج كل ناقد أو كل إقليم أو كل مدرسة تبعا للمؤثرات التي تعرض لها ، فتباين منهج الانتقاد بين من يعتمد الأسس اللغوية في نقده ، و بين من يرى أن الأدب ما أدى وظيفة أخلاقية قيمية ، في حين نجد ناقدا آخر يرى الأدب في قيمته الجمالية من ناحية المعاني و التخييلات أو من ناحية اللغة و الشكل أو فيهما معا ، و قد نجد آخر يحاول التنظير لوضع فلسفة للأدب و النقد ، يعني نجده ينقد النقد و غير ذلك ، و نظرا لبعد المعطيات الثقافية ، فقد نجد الناقد الواحد أكثر من رؤية نقدية مع اختلاف الفنون أو الأدباء أوالأصول ، فلما نتحدث في هذا المقام عن الاتجاهات فإن لا نقصد مناهج كان قائمة في النقد في تلك المنطقة و المرحلة ، وإنما نحن بصدد الحديث عن بعض السمات أو التوجهات التي عرفها ومارسها النقاد المغاربة في انتقاداتهم، و قد يختص أحدهم بمنهج و نسق واحد في تفكيره و نقده .

في المباحث التالية نحاول تلخيص أهم الاتجاهات النقدية في بلاد المغرب ، و أهم الأسباب التي أدت إلى ذلك مع محاولة ذكر بعض نماذج الانتقاد .

المطلب الأول: النقد المنهجي (النظري)

و نقصد في هذا الصدد أولئك النقاد الذين قدموا ملاحظات أو انتقادات نظرية مباشرة في مؤلفاتهم ، و ليس ما قدموا تطبيقات نستنتج منها منهجهم و توجههم ، بل نجد أنها أحكام مباشرة تدل على موقف ثابت عند الناقد ، و ليست أحكاما انطباعية متأثرة بالسياق والتاريخ ، ويظهر هذا النهج بشكل صريح عند أولئك النقاد الذين وضعوا كتبا علمية كبرية الرياضي في الرسالة العذراء أو القزاز في ضرائر الشعر ، شرحوا فيها أسباب تأليفهم و منهجه و أغراضه ، لذلك كانت انتقاداتهم ثابتة و منهجية ، حيث أشار الرياضي بصراحة في الرسالة العذراء إلى أنه أراد أن يشرح لسائله مفهوم البلاغة و حدودها و فلسفتها ، و طرق الموازنة بين الألفاظ و المعاني ، ومفهوم الجمالية الكتابة من حيث المحتوى و من حيث الشكل و مفهوم الأديب و الكاتب و ذلك كله حسب رؤية الرياضي ، إذ يقول في ذلك : "وصل إلي كتابك العجيب الذي استفهمتني فيه بجوامع كلمك جوامع أسباب البلاغة ، و استكشفتني عن غوامض آداب أدوات الكتابة ، سألتني أن أقف بك على وزن عذوبة اللفظ و حلاوته ، و حدود فخامة المعنى و جزالته، و رشاقة نظم الكتاب ومشاكلة سرده، و حسن افتتاحه و ختمه ، و انتهاء فصوله و اعتدال وصوله ، و سلامتهما من الزلل، و بعدهما من الخطل، ومتى يكون الكاتب مستحقا اسم الكتابة ، و البليغ مسلما له معاني البلاغة في إشارته و استعارته، و إلى أي أدواته هو أحوج ، و بأي آلاته هو أعمل ، إذا حصحص الحق و دعي إلى السبق ، و فهمته "[1].

بهذه المعطيات التي تميز الرسالة العذراء لبرية الرياضي نجدها تحتوي على تفكير تحديثي بديع باعتبار المرحلة التي عاش فيها ، حيث أنه يشير في نفس الوقت و المكان برؤية متكاملة ومتناسقة، عن مفهوم اللفظ و المعنى و العلاقة بينهما بما يؤثر على جمال الكلام و بمايؤدي وظيفته الإبلاغية حسبه ، كما نجده يتحدث كذلك عن البعد الجمالي للغة من الناحية الشكلية بل و يذكر أسباب تلك الجمالية و مهيئاتها و غير ذلك ، و هي في نظره مهمة بالقدر الذي يبلغ القيمة المعنوية واللفظية للكلام ، و إيلاء الأهمية له ، يعتبر محافظة على الكلام من حيث معناه و جماليته ، و هو جزء من عملية التواصل ، حيث أن شكل الرسالة ينبغي أن يكون إضافة إلى محافظته على المعني ، لائقا بمقام

1) - برية الرياضي ، الرسالة العذراء 2005 ، ص 32 .

المتلقي ، رغم أنه مولف قديم جدا باعتبار المؤلفات التي وصلت إلينا فقد قال محقق كتابه الآخر تلقيح العقول أنه أقدم كتاب أدبي بلغنا إذ يصرح: "يغلب على الظن ان هذا الكتاب هو أول كتاب مغربي في الأدب يصل إلينا من الحقبة الفاطمية المغربية ، فلم أعثر على من ذكر كتابا في الأدب أسبق منه فقال: إنه وصل إلينا ، من هنا فالكتاب يمكن ان يكون نموذجا مبكرا للتأليف الأدبي في المغرب العربي"[(1)].

كما أن الرياضي بسبب رؤيته المنهجية في تفكيره بصفة عامة و بالنظر إلى كتابيه الذين بين أيدينا ، فإنه تظهر العلاقة بشكل واضح الروابط الفكرية و التطبيقات كذلك بين الرسالة العذراء وتلقيح العقول، حيث نجد تقرير مفهومه للغة الأدب من خلال سهولة و عذوبة الاشعار التي انتخبها في تنقيح العقول ، و من خلال البعد القيمي الذي نجده راسخا فيه كذلك، إذا ما كان مذهب برية في الأدب هو ما أفاد أدبا وعلما و لا عبرة بقوة المعاني أوحسن صناعةالألفاظ ، فإننا نجد ذلك مؤكدا في تصنيف كتابه و ترتيبه على الأخلاق والشمائل المحمودة ، و في ذلك يقول المحقق: "يمكن أن تدلنا هذه الكتب التي ذكرها على ميله إلى الأدب الرطب الذي لا تكلفه قراءته مشقة و لا عنتا ... "[(2)]

و من القضايا التي تشير إلى وضوح الرؤية النقدية و الانضباط المنهجي في تفكيره ، هو ما نجده من شمولية في التفكير ، و رؤية متوازنة تجاه مختلف الاتجاهات و المواقف ، و ليس موقف الشاعر أو العالم الذي له فلسفة واحدة و إنما رؤية العالم الناقد الملم بكل هذه الفلسفات إذ يشير إلى ذلك حين يقول: "فامتثل هذه الرسوم و المذاهب ، واجر على آدابهم ، فلكل رسوم امتثلوها ، وتحفظ في صدور كتبك و فصولها ، و افتتاحها و خاتمتها ، و ضع كل معنى في موضع يليق به"[3].

و ذلك أمر معقول و منطقي إذا علمنا أن برية الرياضي طاف في البلدان طالبا للعلم وصاقلا لمعارفه بمجالسة العلماء و مناظرة النقاد خاصة في بلاد العراق التي كانت بلاد العلم و الأدب و النقد إذ يقول محقق تلقيح العقول إن الكتاب (يقصد كتاب برية تلقيح العقول)حصيلة ثقافته العراقية ، فقد قال عنه :" فلما سافر عبد أمير المؤمنين إلى العراق ، و رأى أدباءه ، و كتابه لا يتكلمون في

1)- برية الرياضي، تلقيح العقول 17 .
2)- المصدر نفسه ص 13 .
3) - المصدر نفسه ، ص 44.

معنى من المعاني حتى يقدموا قبل كلامهم مثلا مشهورا ، و بيتا مذكورا ينبئ عما يريدون الكلام فيه ، واستحسن ذلك منهم جعل كلما سمع مثلا سائرا ، و بيتا نادرا كتبه ووعاه ، ليكون له ذخيرة إلى تأليف كتاب جامع فيه ، و كانت نفسه تنازعه إلى ذلك في الغربة ، فحال بينه وبين ذلك تقسم قلبه في البلدان ، و اشتغاله بالتروح إلى الأوطان"[1] ، هو يصرح بأنه أخذ منهج أهل العراق في التفكير ، لدرجة أن كتابه أخذ أهمية بالغة و نقل عنه المؤلفون إذ يقول المحقق كذلك: "انفرد ابن ظافر الأزدي بنقول عن كتابنا هذا في كتابه بدائع البدائه "[2]، لكن مع قولنا بأن رؤية المؤلف في الرسالة العذراء كانت نظرية منهجية فإننا نجد في تلقيح العقول رؤية أخرى فيه الانطباعية و الذوقية خاصة لما يفاضل المؤلف أحيانا بين الأشعار كقوله مثلا و أحسن من هذا قول بكر بن حماد [3]،لكن و مع ذلك فإننا نلمس رؤيته المنهجية الثابتة لما نجده لا يبالي بالقائلين و أسمائهم و إنما بنصوصهم لذلك فهو لا يورد في الأكثر أسماء الشعر الذي ينشد لهم .

و تتضح رؤية برية المنهجية كذلك إذا قارناه بغيره من المؤلفات القريبة من عصر تأليفه مثل قطب السرور فالرقيق القيرواني في قطب السرور مثلا بدأ مباشرة بإيراد أشعار الجاهلية و ما بعد ذلك بطريقة تاريخية أما برية فقسم قسم بحثه بطريقة موضوعية ثم في النهاية تحول إلى الطريقة التاريخية ذاكرا بعض شعر خلفاء بني العباس ، أكثر من ذلك أنه "احتفل أيضا بإيراد كثير من شعره في كتابه ، و قليل من شعر أبيه ، مما جعله متفردا برواية شعر أبي اليسر ..."[4] متى ناسب المقام و المكان ذلك و روى كذلك لبعض المغاربة الذين لا نعرف عنهم شيئا مثل ابن أخت أبي العتاهية و رحمون الفارسي[5].

ومن منهجه كذلك أنه يبدأ أبوابه بأقوال الفلاسفة و الحكماء و العلماء و النقاد ثم ينتقل إلى الشعر ، لتكون بذلك طريقة علمية يكون الشعر فيها جزءا من العلمية .

1)- برية الرياضي ، تلقيح العقول 15 .

2)- المصدر نفسه 16 .

3)- المصدر نفسه ص 113 .

4)- المصدر نفسه 18 .

5)- المصدر نفسه 18 .

الكتاب الآخر الذي تتضح فيه الرؤية المنهجية هو كتاب ضرائر الشعر للقزاز القيرواني ، فالقزاز يصرح أنه ألف كتابه دفاعا عن الشعراء و على أولئك الذين يتحاملون عليهم ، بأسلوب استخدم فيه اللغة و قوانينها و حدودها ، إذ يقول –كما سبق– : "هذا كتاب أذكر فيه إن شاء الله ما يجوز للشاعر عند الضرورة ، من الزيد و النقصان ، والاتساع في سائر المعاني ، من التقديم والتأخير، و القلب و الإبدال، و ما يتصل بذلك من الحجج عليه، وتبين ما يمر من معانيه فأرده إلى أصوله و أقيسه على نظائره"[1]، فهو صرح أنه سيستخدم في الرد على المعترضين منهجا لا يخرج عن قواعد اللغة و قوانينها برد ما يعتبره المنتقدون خروجا عنها إلى القانون الذي استخدمه ذلك الشاعر في نصه ، فهو يرى أن ما وقع في شعر العرب من مخالفات ، هو من حيث الظاهر فقط ، لأن الحقيقة أن أساليب العربية تحتمل ذلك من حيث النحو و الصرف ، فأن يعود اللغوي لبعض الأساليب المهملة بسبب ما يدفعه إليه الشعر ليس من باب الخروج عن قوانين اللغة ، و يشير القزاز إلى أهمية الإطلاع على ما يعد من ضرائر الشعر ليستوعب الأدب لدى الشاعر و الناقد أو لدى الباث و المتلقي ، إذ يقول في هذا الصدد : "و هو باب لا يسع الشاعر جهله و لا يستغني عن معرفته ليكون له حجة لما يقع في شعره، مما يضطر إليه من استقامة قافية أو زن بيت ، إو إصلاح إعراب ، وذلك أن كثيرا ممن يطلب الأدب و أخذ نفسه بدراسة الكتب ، إذا مرّ به بيت لشاعر من أهل عصره أو لطالب من نظرائه ، فيه تقديم أو تأخير ، أو زيادة أو نقصان ، أو تغيير حركة عما حفظ من الأصول المؤلفة له في الكتب، أخذ في التشنيع عليه و الطعن على علمه و الإجماع على تخطئته و لو نظر بعين الحق لعلم أن ذلك لا يخرج إلا من وجهين ، إما أن يكون ذلك جائزا لعلل تغيبت عنه و لم يبلغ النهاية من علمها ، وهو كذلك ، ووهمه الذي لعله إن نبه عليه أو أعاد نظره فيه رجع إلى الصواب ، و تخطاه إلى ما لا مطعن فيه من الكلام"[2] .

و حافظ القزاز على نسقه الفكري و المنهجي هذا في كتابه ما يجوز للشاعر في الضرورة باستخدام اللغة و قوانينها .

1) – القزاز القيرواني ، ما يجوز للشاعر في الضرورة 29 .

2) – المصدر نفسه ، 30 .

نجد كذلك شيئا من فلسفة المنهج عند الأديب الآخر و هو الرقيق القيرواني في كتابيه تاريخ تونس و المغرب و كتاب قطب السرور في أنواع الأنبذة و الخمور كذلك ، إذ يذكر أحيانا و بشكل نادر مرتبة المترجم له العلمية و الأدبية كقوله في عبد الرحمن بن زياد بن أنعم :"من جلة المحدثين والعلماء المتقدمين منسوبا إلى الزهد و الورع متفننا في علم العربية و الشعر"(1)، و قوله في إبراهيم بن الأغلب: "كان إبراهيم ابن الأغلب فقيها دينا عالما بالشعر خطيبا ، ذا رأي و بأس و حزم و علم بالحروب و مكائدها ، جريء الجنان طويل اللسان"(2).

و في كتاب قطب السرور بشكل خاص تظهر بعض ملامحه المنهجية من خلال أنه أظهر شخصية الأديب العالم الذي لا شأن له إلا الأدب في بعده الجمالي و الذوقي إذ تقول محققة الكتاب في المقدمة : "و أول ميزة يراها القارئ المتأمل في هذا الكتاب ، أن اختيار المؤلف لبعض شعر الشاعر اختيار عالم بالشعر فقيه فيه ، فهو يختار فيحسن الاختيار ، فينقد فيحسن النقد ويجيد ، و هو بحق موسوعة وافرة من بليغ الشعر و النثر تتعلق بالخمر و أصنافه و مجالسه ، شعر و نثر كانا منثورين هنا و هناك في كتب الأدب و دواوين الشعر ، جمعها المؤلف في فصول طويلة ممتعة لا يمل منها قارئها ، و رتبها بترتيب متكامل قلما نجده في كتب أدبية أخرى اعتنت و دونت في هذا المجال"(3).

لكن يبقى السؤال لماذا قسم الرقيق بحثه قطب السرور حسب التاريخ بدءا من العصر الجاهلي ثم عصر النبوءة فالعصر الأموي ثم العباسي ، مع ملاحظة أن مساحة العصر الجاهلي كانت صغيرة جدا في الوقت الذي نجد فيه الكثير من شعر الخمر و الأنبذة ؟ في إشارة إلى أنه حاول التركيز على السياق الذي عاش فيه من حيث الأدب و النقد لذلك نجد انتقاداته على شعر و شخصيات الأزمان القريبة منه كالذي ذكره في حق الوليد بن يزيد بن عبد الملك: "وكان أكمل بني أمية أدبا وفصاحة و ظرفا ، و أجودهم شعرا" (4) ، و نقل حكما في حق حماد الراوية حيث قال: "حكى الهيثم بن علي قال : كان حماد الراوية من أعلم الناس بأيام العرب و أخبارها و أشعارهاو لغاتها ،

---

1)- الرقيق القيرواني ، تاريخ إفريقية و المغرب، ص 197.

2)- المصدر نفسه ص 251 .

3)- المصدر نفسه ص 10 .

4)- المصدر نفسه ص 282 .

وكانت ملوك بني أمية تقدمه و تؤثره و تستزيره فنفر عنهم ، فقال له الوليد بن يزيد : بما استحققت هذا اللقب ، فقيل لك الراوية فقال لأني أروي لكل شاعر يعرفه أمير المؤمنين أو سمع به و أروي لأكثر منهم ممن لا يعرفه و لا سمع به، ثم لا أنشد شعرا لقديم و لا محدث إلا ميزت القديم منه من المحدث ... "، لماذا نقل المؤلف هذه الرواية ألأنه سلك مسلك حماد في رواية الشعر و تصنيف كتابه وفقا لأمراء المسلمين ؟؟[1]، نقل كذلك نقدا لاحدهم في آخر قوله: "أنشدني فإذا هو أروى الناس ثم أنشدني لنفسه فإذا هو شاعر مفلق" [2].

وقوله في يزيد بن الوليد بن عبد الملك: "كان يزيد بن الوليد متألها يذهب في الزهد ورفض الملاهي مذهب عمر بن عبد العزيز ، و كان منشأه بالبادية في كلب ، ففصح لسانه و كان صاحب كلام ، يقول بالاعتزال و كان له بصر بالشعر و حب شديد للنشيد و ما يتغنى به الركبان، و لم يعرض لأحد من الملهين أصحاب الوليد بن يزيد بأذى و لا مضرة"[3].

ونقل نصا في حق الرشيد أبو جعفر بن محمد الهادي أنه : "أول من جعل المغنيين طبقات و مراتب على مقدار المحسن منهم أو توسطه أو تخلفه[4] ..." فهل له علاقة بطبقات الشعراء من حيث الزمان و الفعل و الأولية؟؟

و ما يؤكد هذه الفلسفة أنه يروي صراحة أحيانا أحداثا عاينها كقوله: " و ممن عاشرته عبد الوهاب بن حسين بن جعفر الحاجب"[5] و يفرد بعض الشعراء بمصطلح الكتاب مثل قوله قال بعض الكتاب ، ليبين معرفته المباشرة بهم .

و نجد كذلك روايات لبعض المغاربة ررغم قلتها إذ من الروايات القليلة عن المغاربة التي نجدها في الكتاب (قطب السرور) ، روايته الشعرية عن تميم بن المعز قوله :

اشرب فما لؤم الزمان و إنما === أبناؤها مسخو المكارم لوما

---

1)- الرقيق القيرواني، قطب السرور ص 312 .

2)- المصدر نفسه ص 314 .

3)- المصدر نفسه ص 321 .

4)- المصدر نفسه ص 352 .

5)- المصدر نفسه 554 .

قوم تناهى الجهل فيهم و انتهى === بهم و عوج بهم التقويما [1]

ثم إن دافعه إلى اتباع ذلك المنهج يظهر من خلال تأثره بمنهج المحدثين الذين يؤلفون طبقاتهم حسب التاريخ لذلك نجده يستخدم الكثير من مصطلحاتهم كقوله مثلا: "حكى المدائني يرفعه"[2].

و على العموم فإن كتاب قطب السرور مؤسس بطريقة علمية موضوعية حيث أن المؤلف جمع كل النصوص و الأبواب المتعلقة بالخمر من دون تمييز أو ميل إلى جانب من الجوانب بحيث يكون الأمر خدمة للجانب الأدبي بجمع كل ما يتعلق بهذا الموضوع في إشارة إلى الرؤية الأدبية و النقدية لهؤلاء المؤلفين الذين يعتبرون الأدب للأدب .

كما نجد في تراجع بعض أعلام الغرب الإسلامي أن بعضهم كان يحمل رؤية منهجية عامة تجاه الأدب و الأدباء أو الشعر و الشعراء ، حيث نجد بعض الإشارات النقدية التي تومئ إلى ذلك كما نفهم من هذه القصة إذ نجد من كان مشتهرا بصناعة الأوزان حتى لقب بذلك ، كما في القصة التالية لما هجا أبو المضرجي الشاعر ، بني غانم ، فاتصل ذلك بالقاضي فضجر منه ، و اشتهر الشعر، فقيل لابن غانم : ليس لك إلا أبو الوزن فإنه يلقاه بكل ما يكره ، و كان أبو الوزن مضحكا ضعيف الشعركما قال القاضي عياض[3] .

و نجد كذلك بعض هذه الإشارات كما في القصة التالية أن أبا علي البصري كان يملك معايير للتصنيف كحسن البيان و الرواية إذ يقول في عبد الله ابن أبي حسان :كان عبد الله غاية في الفقه بمذهب مالك ، و حسن البيان ، عالما بأيام العرب و أنسابها راوية للشعر ، قائلا له و عنه أخذ الناس أخبار إفريقية و حروبها ، روى ذلك عن أبيه، و كان جوادا ،و قال المالكي : و كان مفوها ، قويا على المناظرة ، ذابا عن السنة متبعا لمذهب مالك ، شديدا على أهل البدع قليل الهيبة

---

1)- الرقيق القيرواني، قطب السرور 798 .

2)- المصدر نفسه ص 310 .

3)- المصدر نفسه ، 77/3 .

للملوك ، لا يخاف في الله لومة لائم ... دخل مرة على الأغلب ، فإذا الجعفري و العنبري يتناظران في القرآن ، فقال الجعفري ، هذا شيخنا أبو محمد .. [1].

ونقل القاضي عياض عن ابن التبان: حكما نقديا مهما يقول فيه: خذ من النحو و دع وخذ من الشعر و أقل و خذ من العلم و أكثر ، فما أكثر أحد من النحو إلا حمقه ، و لا من الشعر إلا أرذله ، و لا من العلم إلا شرفه ، و يذكر عنه أنه كان كثيرا ما ينشدهم :

قد غاب عنك ثقيل كل قبيلة === ممن يشوب حديثه بمراء

فالآن طاب لك الحديـ=== ـت و إنما طيب الحديث بخفة الجلساء

و كان –رحمه الله– يسمع التعبير و يرق لهذه المعاني ، سأله ابن الخراط يوما و قد وجد عنده معبرا ، فقال له : أليس التعبير بدعة ؟ قال: و الاجتماع على إلقاء المسائل بدعة ، فبلغ كلامه السبائي ، فشق عليه قال اللبيدي : قال ابن التبان يوما : لا شيء أفضل من العلم ، قال الجبنياني ، العمل به أفضل ، فقال : صدق ، العلم إذا لم يعمل به صاحبه فهو وبال عليه ، و إذا عمل به كان حجة له و نورا يوم القيامة [2].

فهذا النص لابن التبان يبين أن الرجل له منهج ثابت في التعامل مع الأدب و الشعر ، يطبقه في كل الأحوال ، و يدعو و يحض إلى منهجه لانبنائه على مقومات قيمية و أخلاقية .

1)- القاضي عياض ، ترتيب المارك ، 312/3 .

2)- المصدر نفسه ، 257/256/6 .

المطلب الثاني: النقد اللغوي

من الأمور التي يمكن ملاحظتها بين يدي الدراسة في هذه المرحلة في بلاد الغرب الإسلامي ، أن النشاط اللغوي فيها لم يكن كمثله في بلاد العراق و المشرق بصفة عامة ، أو حتى أنه لم يكن كشان النشاط الفقهي أو الأدبي سواء الشعر أو النثر ، بل إن الحركة اللغوية تاخرت بقرون بعد هذه المرحلة، لكن مع ذلك نجد بعض النقاد الذين كان من ضمن أساليبهم النقدية أن ينتقد من الناحية اللغوية حيث نجد بعضا من ذلك عند الرقيق القيرواني في قطب السرور لما ذكر أبياتا لأبي نواس يقول فيها:

خلوت بالراح أناجيها ... آخذ منها و أعاطيها

نادمتها إذ لم أجد مسعدا .... أرضاه أن يشركني فيها

قال الرقيق معلقا: فهذا مما يدلك على فضل النبيذ ، و أنه لم ينفرد بالنبيذ مختارا و إنما توجد بشربه ضرورة إذ كانت أدعى إلى السلامة من مخالطة الانسان غير شكله ، و لقوله إذ لم أجد مسعدا، أوليس هو القائل :

و الراح طيبة و ليس تمامها ... إلا بطيب خلائق الجلاس [1]

و غير هذه التعليقات موجودة في قطب السرور على قلتها باعتبار أن الرقيق لم يعلق كثيرا فيه على النصوص التي يسردها ، لكن لما نتحدث عن النقد اللغوي في بلاد المغرب فسيعلوا اسم القزاز القيرواني باعتباره اللغوي النحوي الذي دافع عن الشعراء باستخدام اللغة فكان أسلوبه لرد الانتقاد هو اللغة في كتاب ضرائر الشعر ، إذ ذكر صراحة أنه يريد الدفاع عن الشعراء من خلال اللغة و ذلك لما قال : "هذا كتاب أذكر فيه إن شاء الله ما يجوز للشاعر عند الضرورة ، من الزيد و النقصان ، والاتساع في سائر المعاني ، من التقديم والتأخير، و القلب و الإبدال، و ما يتصل بذلك من الحجج عليه، وتبين ما يمر من معانيه فأرده إلى أصوله و أقيسه على نظائره"[2] ، إذ أظهر القزاز منهجه في دفع الانتقاد باستخدام اللغة ، مشيرا في الوقت ذاته إلى أن القواعد و المؤلفات التي وضعت في اللغة

1)- الرقيق القيرواني، قطب السرور 793 .

2) - القزاز القيرواني ، ضرائر الشعر ،29 .

الهدف منها ليس محاربة الشعر أو تقييده و إنما الشعر ضرب من اللغة يختلف عن لغة العادة ، بل له ظروف و مواضع يجوز فيها للشاعر أن يعود إلى أصل لغوي متروك أو مهمل أو غير ذلك ، و ذكر لذلك أمثلة و نماذج كثيرة ، لكنه لم يجعل لها منهجا أو طريقا واضحة يرتبها بها ، بل يذكرها بحسب ما يرده الشاهد مثال ذلك ما جاء به في حق الفعل السالم و المعتل إذ يقول: "يجوز للشاعر إجراء المعتل من الأفعال مجرى السالم فيجزم ، و لا يحذف حروف الاعتلال ، كما قال الشاعر" :

ألم ياتيك و الأنباء تنمي   بما لاقت لبون بني زياد

حيث احتاج الوزن بقاء الياء فأبقاها و لم يأبه [1].

و ذكر هذا الشاهد سيبويه على أن الشاعر أثبت الياء في حال الجزم ضرورة ، و قد اختلف علماء النحو في هذه المسألة ، حيث يرى بعضهم ان الشاعر اكتفى بحذف الحركة كما يفعل في الفعل الصحيح فيكون الجزم بالسكون ، فعومل المعتل معاملة الصحيح ، و هو رأي مختار عند ابن الشجري في الأمالي[2] ، و موقف آخر يرى أنه جزم بحذف حرف العلة إلا أنه اضطر لإقامة الوزن فأشبع كسرة التاء فتولدت عنها ياء ، و هو رأي ابن الانباري ذكره في كتابه الإنصاف في مسائل الخلاف ، وقال: "إشباع الحركات حتى تنشأ عنها هذه الحروف كثير في كلامهم و كذلك ههنا" ومثل ذلك قول الشاعر:

هجوت زبان ثم جئت معتذرا   من سب زبان لم تهجو و لم تدع

و الشواهد على ذلك كثيرة[3] .

و ذكر كذلك أن الشاعر يمكن ان يبدل الحروف من بعضها لتحقيق الوزن إذا اضطر إلى ذلك، و منه قول الشاعر:

---

1)- القزاز ، ضرائر الشعر ، 84 .

2) – ابن الشجري ، ضياء الدين أبو السعادات هبة الله بن علي بن حمزة، (542هـ)، ما لم ينشر من الأمالي الشجرية مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1405 هـ – 1984 م.

3) – ابن الأنباري، عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الأنصاري، أبو البركات، كمال الدين (577هـ)، الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين: البصريين والكوفيين، المكتبة العصرية، ط1، 1424هـ-2003م،22/1 .

لها أشارير من لحم تتمـره   من الثعالي ووخز من أرانيها

إذ لما احتاج إلى تسكين الباء (الثعالب ، الأرانب) ليعتدل الوزن أبدل منها حرفا لا يكون في وضعهما في الإعراب إلا ساكنا(1) .

و ينقل كذلك في قضية أخرى : "مما يجوز إدخال النون في الواجب ، و حقها ان تدخل في غير الواجب ، من الامر و النهي و الاستفهام و المجازاة ، ... فإن اضطر الشاعر جاز له أن يدخلها في الواجب كما قال"

ربما أوفيت في علم   ترفعن ثوبي شمالات

فقال: ترفعن و ليس هذا موضع النون (2).

عند النهشلي كذلك قد نجد بعض التعليقات أو الشروح اللغوية في كتاب الممتع إذ قال بعد هذه الأبيات لـ عمرو بن معدى كرب:

يدا ما قد بـدت إلى حصيـن   بأمـر غير منبتـر القيـن

رددت له مخاضـا تاليـات   نبيلات المحاجر و العيـون

و قدما كنت جارك نصف يوم   فأبشر إن سهمك في اليمين

بديت عند الرجل يدا صالحة ، و أبديت فأنا مبد ، اتخذت عنده يدا و التاليات : الأواخر ، والمخاض : الإبل (3).

و قال كذلك عقب أبيات لنابغة بني جعدة :

و شاركنا قريشا في نقاها   و في أنسابها شرك العنـان

بما ولدت نساء بني هلال   و ما ولدت نساء بني أبان

قال: شرك العنان: أي يشترك رجلان في شيء خاص كانه عن لهما ، أي عرض ، و أبان هو ابن معيط (1).

---

1) – القزاز ، ضرائر الشعر ، 179 .

2) – المصدر نفسه ، 85 .

3) – النهشلي ، الممتع 13 .

و قد يذكر أحيانا بعض التعليقات اللغوية بما يرفع به اللبس و الإيهام كما في البيت :

فما يستطيع الفاعلون فعالهم و عن أحسنوا في النائبات و أجملوا

قال معلقا: قوله و أجملوا مردود على الفاعلين (2).

و مثل هذه التعليقات كثيرة جدا في الممتع و هي لا ترقى إلى اعتبارها نقدا غدا ما تعلق منها بتوجيه المعنى على خلاف ما قد يتوهمه المتلقي، أو إذا كان فيه تصويب لصنيع الشاعر كما في القصة التالية :

ينقل النهشلي عن اقيس بن عاصم المنقري قوله :

أيا بنت عبد الله و ابنة مالك و يا بنت ذي البردين و الفرس الورد

إذا ما صنعت الزاد فالتمسي له أكيلا فإني لست آكله وحدي

كريما قضيا أو أبيا فإنني أخاف مذمات الحديث من بعدي

و إني لعبد الضيف ما دام ثاويا و ما في إلا تلك من شية العبد

و قد علق على قول أحدهم بعذ ذكر لتفاصيل أخرى في القصة : "و قد من لا يحسن القول على قوله : با ابنة ذي البردين ، و قالوا : ما قدر بردين و فرس و رد حتى يفتخر بها ، و عارض هذا الشعوبي بملوك فارس و أسرتها و تيجانها ، و بأن أبرويز ارتبط تعسمائة و خمسين فيلا ، و بلغت آنيته التي يشرب فيها الداخل عليه ألف إناء من الذهب ، و خدمته ألف جارية و فعله بعد هذا ابنه"

و يضيف : "و قال بعض العلماء: أخطأ في المعارضة لم يكن صاحب البردين ملك العرب فيعارض عنه بملك العجم ، و لم يدع أحد كان للعرب في دولة العجم مثل ملكها و أموالها ، و عددها وحريرها و أنساجها فيحتاج إلى أن يذكر أبرويز و فيلته و جواريه و فرسه "(3)

---

1) – النهشلي ، الممتع 14 .

2) – المصدر نفسه 41.

3) – النهشلي ، الممتع 42-43 .

المطلب الثالث: النقد الأخلاقي (الديني)

نقصد بالنقد الديني ذلك النقد الذي يقوم على مبادئ و خلفيات دينية ، و هذا حتى لا يتداخل مفهومه مع ما يعرف اليوم في الدراسات الحداثية بنقد الفكر الديني أو تجديد الفكر الديني لدى بعض النقاد و المفكرين العرب[1] والغربيين ، مع أنّه قد يتداخل معه في بعض الجزئيات الدقيقة المتعلقة بالخطاب و الإيديولوجيا ، و مهما يكن من أمر فليس هذا مقصودنا .

تعتبر مناقشة هذه المسألة دقيقة جدا باعتبارها غير ثابتة المعالم لدى الكثير من النقاد العرب ، إضافة إلى أنها لا تخضع لمعايير لفظية أو جمالية ثابتة ، بل هي مسألة إيديولوجية ، يتفاوت مستوى حضورها عند النقاد لاعتبارات أخلاقية و شخصية و اجتماعية .

النقد الديني في النقد العربي ظهر مع انتشار الإسلام ، فبدأت منذ الوهلة الأولى تظهر بوادر منهج نقدي قائم على أساس أخلاقي غرضه خدمة الدين و المجتمع أولا ثم الأدب في الدرجة الثانية، إضافة إلى أنّ الجيل الأول من نقاد العصور الإسلامية كانوا في معظمهم علماء بالدين و أصوله وفروعه ، فراعوْا أثناء قراءتهم للتراث العربي القيم الدينية الإسلامية ، مع بعض التساهل مع الشعراء وتجلّى ذلك في شعراء الجاهلية ، لاعتبارات موضوعية و معرفية تتعلق بالتدوين و الاستشهاد في تفسير القرآن الكريم ، إضافة إلى الاعتبارات الذوقية و الجمالية ، لكن الثابت أن نقّاد العصور الإسلامية أكّدوا أنّ الشعر الذي يوحّد و لا يشتّت و يدعوا إلى الخلق الكريم و يشحذ الهمم وينعش الخواطر، و يحوي المعاني الجليلة و الألفاظ المبتكرة هو الشعر القمين بالرواية و الاعتبار [2].

لكن بعد عصر صدر الإسلام تراجع المد الديني في توجيه الأدب و النقد ، بسبب توسع الدولة و اختلاط الأجناس البشرية المكونة لمجتمعها ، يقول عبد العزيز جسوس : "إن الحقبة الإسلامية الفاصلة بين مرحلتين ... قد عرفت تميزا في نقداتها عن العصر الجاهلي و عن الحقبة

---

1)- مثل: محمد أركون و نصر حامد أبو زيد و محمد عابد الجابري .

2)- عبد العزيز قلقيله ، النقد الأدبي القديم في المغرب العربي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط2، 1988م ، ص 377 ، ومحمد مرتاض ، النقد الأدبي القديم في المغرب العربي ، ص 172 .

الأموية من القرن الأول ، بظهور نواة لتصور إسلامي جديد عن الشعر و نقده ينهض على المزاوجة بين معايير العقيدة و المجتمع و الفنّ لتوجيه الشعر و نقده ، بحكم المنعطف الذي عرفه المجتمع العربي في هذه الحقبة ، و لكن هذه النواة قد انطفأت شعلتها بالانتقال إلى الحقبة الأموية حيث اختفى معيار العقيدة بأخلاقها و قيمها من تقويم الشعر و تحديد الموقف من الشعراء و أصبحت المناداة صريحة بفصل الدين عن الشعر"[1].

و على العموم فإنّ الإسلام أولى للأدب و الشعر قيمة مهمة تليق بمكانته لدى العرب وتعكس تسامح الإسلام و تفتّحه و دعوته إلى الجمال و العلم الذي يدعوا إلى غرس المبادئ السامية كما قال عبد الكريم النهشلي ، و نقل في ذلك قول عمر رضي الله عنه : "الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أعلم منه" ، و قال علي رضي الله عنه : "الشعر ميزان القوم ..." [2] و قال النبي ﷺ للعلاء بن الحضرمي : "هل تروي من الشعر شيئا "؟ فأنشده :

حي ذوي الأضغان تسْبِ قلوبَهم تحيّتَك الحُسنى و قد يُرقعُ النّعَـــــلْ
فإنْ دحسوا بالكرْه فاعفُ تكرُّمًـا و إن خنسوا عنك الحديث فلا تسلْ
فإنّ الذي يؤذيكَ منهُ سماعُـــــه و إنّ الذي قالـــوا وراءك لم يقـــلْ

فقال النبي ﷺ: "إن من الشعر لحكما "[3] ، من هذه النصوص ينطلق ابن رشيق في بناء تصوره شأنه في ذلك ، شأن الكثير من النقاد العرب ، و إن لم يعقد مبحثا خاصا في عمدته لمناقشة هذا المسألة فإنه من خلال صفحات كثيرة و في مواضع متفرقة أكّد أن الشعر الذي يحمل قيمة فهو شعر لا تستنكف منه الأسماع ، و من دون شك أنّ أسمى القيم هي القيم الدينية الإسلامية لذلك يورد شعرا لحسان بن ثابت في الاعتذار للرسول ﷺ إذ أنه كان من الذين مالوا في حادثة الإفك الذي دار حول السيدة عائشة (رضي الله عنها) في أبيات مدحها بها منها :

---

1)- عبد العزيز جسوس ، نقد الشعر في الطور الشفوي ، ص 10،11 .

2)- النهشلي، الممتع ، ، ص 32 .

3)- أخرجه محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري ، المستدرك على الصحيحين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1411هـ – 1990م ، تح: مصطفى عبد القادر عطا، 710/3 .

حصـــــانُ رزانٍ مـــــا تزنُّ بريبــــةٍ و تُصبِحُ غرْثَى من لحــــومِ الغوافلِ
فإن كنتُ قد قلتُ الذي قد زعمتُم فلا رفعَتْ صــــــــوْتِي إلي أنامِلِي
فإن الـــــــذي قد قيلَ ليسَ بلائطٍ و لكنّــــــــــه قــولُ امرئ بيَ ماحِلِ

و بعد ذلك يشير إلى حديث آخر يبرز وعي الإسلام بمكانة الشعر من خلال تسخيره لمهام دعوية ، لما قال النبي ﷺ لحسان : "اهجهم –يعني قريشا– فوالله لهجاؤك عليهم أشدّ من وقع السهام في غبش الظلام، اهجهم و معك جبريل روح القدس"(1)، فحضور هذا الفكر الديني كان قائما في نقد ابن رشيق لكن بالقدر الذي يوحي بأنه لا يتعارض مع الشعر وليس هو الدافع والباعث الأساسي له.

لكن مع ذلك وبالرغم من أن ابن رشيق أورد في العمدة كل الأغراض الشعرية تقريبا شارحا و معلقا ، إلا أنه لم يبدُ محتفلا بالمفاهيم الأخلاقية التي قرّرها الكثير من النقاد الإسلاميين ، بل كان أغلب اهتمامه بالقضايا الفنية و الجمالية و الذوقية ، أما من ناحية المضامين فلا يبدو مكترثا كذلك بالجانب الأخلاقي بالرغم من السفور الكبير الذي نجده في بعض النصوص الكثيرة التي أوردها لأغراض متعددة ، لكن يستوقفنا مذهبه في الهجاء الذي عدّه من مكائد الشيطان ، و من باب التعدّي على الآخر فأورد في هذا الباب حديثا للرسول ﷺ يكرّه فيه الهجاء ، نصه : "من قال في الإسلام هجاء مقذعا فلسانه هدر"(2) ، و الحق أن موقف ابن رشيق من الهجاء هو الموقف الواضح و الثابث و الصريح له و يؤكده بقوله :"و جميع الشعراء يرون قصر الهجاء أجود ، و ترك الفحش فيه أصوب إلا جريرا فإنه قال لبينه إذا مدحتم فلا تطيلوا الممادحة و إذا هجوتم فخالفوا" ، و قال أيضا إذا هجوت فأضحك " ثم يقول ابن رشيق : "وأنا أرى أن التعريض أهجى من التصريح لاتساع الظنّ في التعريض و شدّة تعلق النفس به فإذا كان الهجاء تصريحا أحاطت به النفس علما" (3) ، هذا هو

1)- ابن رشيق ، العمدة 25/1 ، و النهشلي ، الممتع ص 43 ، نجوى صابر، النقد الأخلاقي ، أصوله و تطبيقاته ، دار العلوم العربية ، بيروت ، لبنان ، ط1، 1990م ، ص 21

2)- ابن رشيق ، العمدة 2 /170 ، وعبد العزيز قلقيله ، النقد الأدبي في المغرب العربي ص 110 .

3)- ابن رشيق، العمدة 170/2 ، 173 .

الغرض الوحيد الذي رسم له منهجا أخلاقيا والتزمه تقريبا أما غيره من الأغراض فاكتفى بالاعتناء بالملامح الفنية و الجمالية .

و بالانتقال إلى كتابه الآخر الأنموذج نقف على حقيقة هذا المذهب من ابن رشيق تجاه النقد الديني، حيث يظهر جليا أنه لا يعتبره عاملا في نقد الشعر ، فتهتّك الشاعر و شربه للخمر أو إتيانه للمحظور أو اعتناقه لمذهب فاسد ليس مؤثّرا في الحكم عليه إن كان الشاعر مُجيدا ، دليل ذلك أنّه ترجم للكثير من الروافض الشيعة الذين يخالفونه المنهج العقدي و التوجّه السياسي مثل إسحاق بن إبراهيم الرافضي الذي قال عنه : "كان رافضيا سبابا عليه لعنة الله" (1) ، أضف إلى ذلك بعض عبارات النقد التي توحي باستثقاله لبعض المضامين الدينية ، مثل قوله في أبي إسماعيل الكاتب :"وكان كلفا بالمواعظ"(2) وهو حكم من ابن رشيق يوحي بكراهته لكثرتها في الشعر ، كما أنّه ساق نصوصا كثيرة فيها من التهتك والتغزل بالغلمان أو المجاهرة بمعاقرة الشرب و لا يبدي تعليقا ، إلا ما تعلّق بالفن و الجمال و الأمثلة على ذلك كثيرة في كتاب الأنموذج ، مثل قوله في الجراوي : "و كان حسن الخلق ، جميل العشرة ، مدمنا على الشراب "(3) ، و في محمد الناجحون الضرير: " يقرأ القرآن بروايات ، و له شعر مليح و نوادر مضحكات ، و كانت فيه سماحة و مروءة و لم يكن له صبر على النبيذ" (4) ، و في محمد بن مغيث : "كان شاعرا مطبوعا ، مرسل الكلام ، .... وكان مفتونا بالخمر، متبذّلا فيها مدمنا عليها لا يفيق منها مولعا ببيت الخمّار" (5) ، و هي نصوص بحكم عدم ثباتها في الترجمات تبدو تعليقات استئناسية يوردها ابن رشيق كتمهيد لنصوص لاحقة في سياق الترجمة في الخمريات ، و هو منهجه في الربط بين الأحكام و الأمثلة و الشأن نفسه بالنسبة للغزل وشعر الغلمان (6).

1)- ابن رشيق ، الأنموذج ص 78 .

2)- المصدر نفسه ص 50 .

3)- المصدر نفسه ص 216 .

4)- المصدر نفسه ص 387 .

5)- المصدر نفسه ص 404 ، 405 .

6)- المصدر نفسه ص 177 .

و الشأن نفسه فيما يتعلّق بالروافض الشيعة ، حيث أنّ ابن رشيق لم ينتقد شعرهم بل انتقد شخصيتهم ، و باعثه في ذلك ليس اختلاف المنهج العقدي بالأساس، بل إنّ الاختلاف السياسي كان هو المحرك الأساسي للعداء الذي كان يكنّه ابن رشيق لهم ، لأن ولاءهم كان للدولة الفاطمية في مصر ، و لا يخفى تاريخيا ما كان يضمره الفاطميون للصنهاجيين من كره و عداء بعد أن محوا ذكرهم من القيروان، و ابن رشيق كان من رجال البلاط الصنهاجي ، فطبيعي أن يرفضهم أيديولوجيا خصوصا أولئك الذين يجاهرون بذلك على الملأ و المنتديات ، يضاف إلى ذلك أن ابن رشيق أكدّ رفضه كذلك لأولئك الذين لم يتورعوا في النيل من بعض آل بيت النبي ﷺ و صحابته الكرام ، أما غير ذلك فهو لم يمارس عليهم الإقصاء و لا على نصوصهم ، بل يبدو كذلك من خلال الأنموذج أن الروافض الذين بقوا في القيروان في كنف الدولة الصنهاجية لم يمارس عليهم التضييق الفكري و لا الإقصاء الجسدي إلا من أعلن ولاءه للفاطميين أو لمن جاهر بالنيل من آل بيت النبوة أو الصحابة الكرام ، لأنه سيصير حينئذ تهديدا لأمن الدولة و استقرارها .

و من هؤلاء الروافض ، المصاحفي الذي يقول فيه : "كان رجلا مستهزئا مشهورا بالتنقير والمقالعة ، فيه تلاعب واستخفاف كان قد دخل الدعوة (الشيعية) تسترا بها و احتمى بسببها" (1) ، و قال في الهواري: كان متشيّعا ، شديد الصلف ، مباينا للخاصة و العامة في ذلك معجبا ... وكان سلطا (2)، و ما نقلته سابقا كذلك من قوله في إسحاق بن إبراهيم الرافضي : "كان رافضيا سبابا عليه لعنة الله" ثم يقول عنه : "جمعني و إياه مجلس طيّب و كان ممقوتا " (3) يقصد مجلس شعر وأدب رغم توجُّهه العقدي .

لكن الأمر الثابت في منهج ابن رشيق هو ميله نحو رفض الهجاء كما قرّره في كتاب العمدة فكثيرا ما يشيد بأولئك الذين رفضوا الهجاء لورعهم ، و يقرّع أولئك الذين أفرطوا فيه ، و هذا النهج كما سبق بيانه دافعه أخلاقي ديني ، و هو يبدو متوافقا مع شخصية ابن رشيق المائلة نحو الدعة

---

1)- ابن رشيق، الأنموذج ص 134 .

2)- المصدر نفسه ص 419 ، 420 .

3)- المصدر نفسه ص 78 .

والهدوء و الاعتدال ، قال في الفراسي : "كان شاعرا خليعا ماجنا شريرا كثير المهاجاة ، قليل المداراة، خبيث اللسان" (1) ، و في عبد الله بن رشيق: "كان له في الشعر حظ كبير إلا أنه لم يمدح لمثوبة ، ولا أعلمه هجا أحدا قط " (2) ، و قال في القفصي البزاز: شاعر قوي الطبع مهول ... وليس له مدح و لا هجاء لكفايته و ديانته و ما عليه من طلاوة العلم الشرعي"(3) ، و غير هذه النصوص كثير ، و هي كلها تؤكّد على موقفه الثابت في رفض الهجاء و النفور منه و احتفاله بأولئك الشعراء الذين التزموا هذا المسلك ديانة و مروءة .

و خلاصة هذه المسألة عند ابن رشيق أنه في ترجماته حاول أن يكون متزّنا مع نفسه بحيث لا تؤثر خلفياته الفكرية و العقائدية و السياسية على حكمه على الشعراء فقد يكون الشاعر مخالفا لآراءه لكن ذلك لا يسقطه من كونه شاعرا ، كما أنّ عدم استخدامه لمبدأ النقد الديني أوالأخلاقي بشكل واسع و مفرط يوحي بأنه لم يرد أن يجعله مطية للمتعصبين و السياسيين ليستغلوه كورقة للعبة السياسية و الإقصاء الفكري و الجسدي ، و هذا يعكس النضج الكبير الذي بلغه ابن رشيق وإدراكه لوظيفة و أهداف الأدب و الشعر القِيَمِيَة و الفنية و الجمالية ، بخلاف الكثير من النقاد الذين انساقوا وراء المذاهب و المواقف و التعصب للأشخاص .

نلاحظ كذلك أنّ استخدام ابن رشيق للنقد الديني أو الأخلاقي ليس معيارا ثابتا و إنما هو متغيّر حسب المقامات و الأعلام ، و كثيرا ما كان لمجرّد الاستئناس و التمهيد ، كما أنه ارتبط في مواضع كثيرة بملابسات أغلبها سياسي كما سبق فيما يتعلق بالشيعة الروافض أو بعض النواصب(4) وهذا هو الخط الذي قرّره في العمدة و اتبعه في الأنموذج .

1)- ابن رشيق ، الأنموذج ص 146 .

2)- المصدر نفسه ص 191 ، 192 .

3)- المصدر نفسه ص 320 .

4)- المصدر نفسه ص 286 ، 287 .

بالانتقال إلى الأجيال الأولى لنقاد الغرب الإسلامي سنجد لدى الأغلب منهم التأثر بهذه النزعة الدينية ، و ما ابن رشيق إلا انعكاس للفلسفة التي كانت غالبة في المنطقة ، إذ مرّ معنا في مواضع كثيرة أن بريةالرياضي يرى أن الأدب ما أدى وظيفة إبلاغية تحمل قيمة و منفعة للمتلقي ، وهي الفلسفة التي نجدها عند الفقهاء الشعراء و رجال العلم مع عدم إهمال الجوانب الجمالية للأدب و الشعر خاصة، و إلا لما اهتم بالشعر من البداية خاصة في كتاب تلقيح العقول ، الذي انتقى أشعار كثيرة مما يراه لاقحا للعقل و مهذبا للطبع ، و هو الذي كان قد أشر إلى ذلك في الرسالة العذراء لما قال: "فلا تخرجن كلمة حتى تزنها بميزانها فتعرف تمامها و نظامها ، ومواردها و مصادرها ، و تجنب ما قدرت الألفاظ الوحشية ، وارتفع عن الألفاظ السخيفة ، واقتضب كلاما بين الكلامين" (1).

و إن كان في الرسالة العذراء لما يتعرض كثيرا لهذا الموضوع ، و لم تحصل الإشارة له بشكل كبير فيها ، باعتبار أنها رسالة في فن الكتابة ، و أغلب ما نجده فيها مما يتعلق بانتقاء الكلام و الألفاظ ، أما في تلقيح العقول فإن النزعة الدينية و الأخلاقية تحضر بقوة من خلال الأبيات و الموضوعات و التعليقات المباشرة التي يؤكد فيها يالرياضي فلسفته تجاه الأدب و الشعر في كل مرة ، حيث أن مذهب برية في الأدب هو ما أفاد أدبا وعلما و لا عبرة بقوة المعاني أو حسن صناعةالألفاظ ، و ذلك بسبب تأكيده في تصنيف كتابه و ترتيبه على الأخلاق و الشمائل المحمودة ، و في ذلك يقول المحقق: "يمكن أن تدلنا هذه الكتب التي ذكرها على ميله إلى الأدب الرطب الذي لا تكلفه قراءته مشقة و لا عنتا ... "(2).

حيث يبدوا جليا من خلال الكتاب أن برية يرى أن مفهوم الشعر لا ينبغي أن يخرج عن الوظيفة الأخلاقية ، و يشير إلى ذلك أحيانا من خلال إبدائه عدم موافقته على اتجاه معين مثل قوله في الباب الثامن و الثلاثين 38 "فيما يتمثل به في خطأ من زعم أن الصداقة تزيل الشكر" (3)، باعتبار أن مفهوم الصداقة في الثقافة الشرقية أخذ بعدا قدسيا ، إذ أن صفة أهم الصحابة أبو بكر الصديق رضي الله عنه أن الصديق لقوة صداقته بالنبي صلى الله عليه و سلم ، و لشدة تصديقه له كذلك .

1) - برية الرياضي ، الرسالة العذراء ، ص 64.
2)- برية الرياضي ، تلقيح العقول ص 13 .
3)- المصدر نفسه 100 .

و حتى فيما يتعلق ببعض القضايا الأدبية الفنية فإننا نجد أن برية يشير إليها من خلال الموقف الأخلاقي الديني ، و ليس من الناحية الأدبية الإبداعية مثل مسألة السرقة ، حيث أنه في تلقيح العقول لم يتعرض إلى الموقف منها أدبا و إنما أشأر إلى قبحها خلقا من خلال نقله لبعض أقوال العلماء فيها مثل ما رواه عن ابن المبارك في النهي عن السرقة :

و لا تنطق الدهر في مجلي ...حديثا إذا أنت لم تحصه

و نص الحديث إلى أهله ...فإن الوثيقة في نصه [1].

فالسرقة عند برية قبيحة خلقا و منهي عنه دينا قبل ان تكون مؤشر على ضعف قريحة الشاعر وتخلف لغته ، و قصور مخيلته الإبداعية .

قريبا من موقف برية الرياضي نجد موقف النهشلي كذلك الذي يرى هو الآخر ان الشعر والأدب ما أدى وظيفة أخلاقية و قيمية عند المتلقي لكنه أكثر أدبية من الرياضي من خلال تبيان حسه الأدبي المرهف بالإشارة باسهاب إلى الأبعاد الشعورية للأدب ، حيث نجد عنده أن الفن هو الصناعة اللغوية الراقية المليئة بالشجون و الأحاسيس والعواطف ، بما يكون له ردة فعل لدى المتلقي ، إضافة إلى العلم بهذا الفن ، بل و يعتبره في مقابل العلم لاحتكامه إلى القلب و احتكام العلم للعقل، ينقل بعض العلماء بالعربية: " اجمعوا على استحسان الكلام مع الصواب ، كما أجمعوا على كراهة الكلام مع الاسهاب ، و كرهوا زيادة المنطق على الأدب ، و زيادة الأدب على المنطق، حتى قالوا: زيادة أدب على منطق خدعة ، و زيادة أدب على منطق هجنة ... و قيل لرجل من ملوك العرب : متى يكون العلم شرا من عدمه ؟ قال إذا كثر الأدب ونقصت القريحة "[2] و قوله كذلك : " الشعر أبلغ البيانين ، و أطول اللسانين ، و أدب العرب المأثور ، و ديوان علمها المشهور"[3]، فمقصوده هنا هو ذلك الكلام الشاعري الذي يخاطب العواطف و لا يخاطب العقول ، و هو هنا يشير إلى ضرورة الاعتدال في خطاب العقل و خطاب الشجون ، ليستقيم الأدب ، بل يشير إلى أن الأمر ليس تنازعا

1)- برية الرياضي ، تلقيح العقول 64 .

2) - النهشلي ، الممتع ص 11.

3) - المصدر نفسه ص 19.

أو تناقضا بقدر ماهو ملكة تمكن صاحبها من أن يكون مقسطا و متزنا بين عقله و قلبه ينقل في هذ المعنى قول علي بن الحسين:" العقل أمير و الأدب وزيره ، فإذا لم يكن وزير ضعف الأمير فإن لم يكن أمير بطل الوزير"[1].

ففي كلامه نجد إشارة واضحة في أن ميزان الكلام هو الاتزان بين اللفظ و المعنى بين العقل والوجدان بين الأخلاق و العاطفة ، و أن معيار الكلام السليم ما لم يخرج عن أدب القوم و لغتهم إلى الغلو في اللفظ و المعنى، لذلك لا نجد في شعره و لا فيما ينقله شعر الهجاء مثلا إلا ما نقله في معرض نقده ، و هي إشارة إلى موقفه منه ، كما هو الشأن عند تلميذه ابن رشيق الذي نقل عنه هذا التوجه و الفلسفة .

و هذا المعيار الخلقي و الديني كذلك ينطبق على الأدباء و الشعراء كما ينطبق على الأدب والشعر إذ يقول في الممتع نقلا عن أحدهم: الشعر ثلاثة أصناف ، فشعر يكتب و بروى ، و شعر يسمع و لا يروى و شعر ينبذ و يرمى" ، و هو الكلام الذي يوحي أن رؤيته قائمة على اعتبار الجودة لكن الجودة ليست الطبع أو الصناعة بل القيمة المعنوية ، لأن الشعر الذي لا يرقى إلى لغة الشعر ومعانيه فإنه لا يستحق صفة الشعر ، وليس كما قال ينبذ و يرمى ، فهو شعر معتبر محفوظ و مقيد ، لكنه في نظر النهشلي لا يستحق الرواية و الحفظ بل حقه النبذ والإهمال لنزوله في القيمية و الفضيلة، و الشأن نفسه بالنسبة للشعر الذي ذكره في المرتبة الثانية و هو الذي يستحق السمع، كأن أهميته معرفية أو لغوية أو تاريخية تستأهل حفظه أما اعتباره من الناحية القيمية فلا ، أما المرتبة الأولى عنده فهو ذلك الشعر الذي استكمل شروط اللغة والفضيلة ، و الشأن نفسه ينطبق على الشعراء إذ يؤكد رؤيته الأخلاقية تجاه الشعر من خلال ما نقله من أن أهمية الشعراء باعتبار القيمة الأخلاقية لأقوالهم، إيجابا أم سلبا إذ يسوق في ذلك قولا لأبي سفيان بن حرب لابن الزبعري: لو أسهبت في شعرك، قال حسبك من الشعر غرة لائحة، و سبة فاضحة ، وأنشدني في نعت الشعر[2] :

1) – النهشلي ، الممتع ص 26،

2) – المصدر نفسه ، ص 28 .

الشعـــراء فاعلمــن أربعــه فشاعر يجري و لا يجرى معه
و شاعر ينشد وسط المعمعه و شاعر لا يرتجـــى لمنفعــه
وشاعر يقال خمر في دعه

فالقيمة الأخلاقية عنده أهم من إجادة اللفظ و قوة المعنى ، لأنه تؤثر في القول و القائل ، لأنها تمثل فلسفة القول في حد ذاته عند النهشلي و فئة كبيرة من نقاد الغرب الإسلامي في الأزمنة المتقدمة ، و هي تؤثر في طبقة العلماء و الفقهاء و القضاة الكبيرة التي كانت تحكم فكرة منطقة الغرب الإسلامي سواء بصفة رسمية أو غير رسمية ، إذ الأمر ارتبط بأنظمة الحكم المتعاقبة على المنطقة، لكن سلطة رجال العلم و الفقه كانت حاضرة على مر الدول و العصور ، إذ نجد إشارات إلى ذلك كذلك عند الرقيق القيرواني في قطب السرور ، رغم أنه من فئة المؤلفين و النقاد الذين أبدوا موقف الناقد العالم المتخصص الذي ينظر إلى الأدب من جهته الفنية بالدرجة الأولى ، لكنه يظهر كما أغلب نقاد الغرب النزعة الدينية و الأخلاقية إذ ذكر في حق سليمان بن عبد الملك نقدا دينيا حيث أن الأمير لم يكن يسمع مع الندماء بسبب غيرته و ليس بسبب تدينه إذ يقول: "أما السماع فلا سبيل إليه مع غيرة أمير المؤمنين و نهيه إياي عن الغناء ، إلا ما كان في مجلسه ، قالوا له : فلا حاجة لنا إلى الطعام و الشراب عندك ما لم تسمعنا ، فلما رآهم غير موقلين عنه رفع عقيرته و غنى ..."[1].

و ينقل في بعض الأحيان بعض الانتقادات التي أساسها خلقي و ديني كما الذي يرويه عن الأصمعي : و بلغت هذه الحكاية الوليد بن يزيد فقال: ما ظننت أني أسمع بمثل هذا خبثا [2]، يعني أنه أشار إلى مواقف بعض النقاد ليس على أساس اللغة و إنما على أساس المعنى و القيمة .

و قريبا منه كذلك ما ذكره في حق عمر بن عبد العزيز أنه كان يسمع الغناء مع جواريه وغيرهن..."[1] و هو بذلك يريد الإشارة إلى موقف ديني أدبي له أو لعمر بن عبد العزيز أو للسياق الذي كان في عمر ابن عبد العزيز أو للسياق الذي انتمى إليه الرقيق القيرواني .

1) – الرقيق القيرواني ، قطب السرور ص 252 .
2)– المصدر نفسه 255 .

وبمثل ما إشار به إلى عمر ابن عبد العزيز يشير إليه في قول الوليد بن يزيد عبد الملك : "يا ابن الزبرقان مثل هذا عندك و أنت منذ اليوم تعذبني بأشعار البغضاء" في إشارة إلى أن النقد ارتبط بأذواق الأمراء و أن بعض المتلقين كانوا يقيمون الشعر بمعانيه و فضيلته (2).

لكن الرقيق القيرواني نفسه يفقد ميزانه فيطلق أحكاما تبين عن أيديولوجية دينية لا فنية إذ قال في الوليد بن يزيد بن عبد الملك في ثلاث مواضع من نفس الصفحة "قاتله الله"(3) ، هذا الانتقاد ذو نزعة تظهر عليها الآثار السياسية و المواقف العقدية .

و الرقيق القيرواني نفسه تظهر عليه شخصية الناقد العالم كما سبق ذكره و كما نقلته محققة كتاب قطب السرور ، إذ يتناول أحيانا الرجال و الأدباء بانتقادات من الجوانب العلمية و الأخلاقية مثل قوله في يزيد بن الوليد بن عبد الملك: "كان يزيد بن الوليد متألها يذهب في الزهد ورفض الملاهي مذهب عمر بن عبد العزيز ، و كان منشأه بالبادية في كلب ، ففصح لسانه و كان صاحب كلام ، يقول بالاعتزال و كان له بصر بالشعر و حب شديد للنشيد و ما يتغنى به الركبان، و لم يعرض لأحد من الملهين أصحاب الوليد بن يزيد بأذى و لا مضرة "(4).

و هي أحكام على النظرة العامة تجاه الرجل خاصة و أنه جمع إلى جانب كونه رجل أدب وشعر أنه سياسي وحاكم ، فالإشارة إلى هذه الجوانب إشارة إلى سياسيته الفكرية و الأدبية التي ينبغي ان تكون حكمت الأدب و الشعر في فترته .

و القصص التي تشير إلى العقلية الدينية التي حكمت الغرب الإسلامي كثيرة مشتهرة في كتب الطبقات و التاريخ ، إذ نجد في ترتيب المدارك للقاضي عياض الكثير منها ، إذ يذكر أن أبا المضرجي الشاعر هجا بني غانم ، فاتصل ذلك بالقاضي فضجر منه ، و اشتهر الشعر ، فقيل لابن غانم : ليس لك إلا أبو الوزن فإنه يلقاه بكل ما يكره .

---

1)- المصدر نفسه ص 258 .

2) - الرقيق القيرواني، قطب السرور ص 254 .

3)- المصدر نفسه ص 291 .

4)- المصدر نفسه ص 321 .

و كان أبو الوزن مضحكا ضعيف الشعر ،

فأتى به إلى ابن غانم ، بلغني أنك بعيد الصوت و نحن نحب من يؤذن في الجامع ، و قال لبعض خدمه : ادفع لأبي الوزن خمسة أقفزة قمحا ، و خمسين قفيزا زيتا ، و مائة درهم حتى ننظر في أمره فلما قبض ذلك أبو الوزن ، قال للذي به للقاضي ، و الله قصة ، فإني لا أصلح أن أكون مؤذنا .

فأخبر بالأمر ، فقال : قد كفى ،

فدخل يوما على إبراهيم بن الأغلب في جملة الشعراء فنظر إلى الأمير ثم أنشده :

إني و إني و إنني و أنا ... و أهل بيتي معظمو الأمرا

ثم أشار إلى أبي المضرجي و قال :

إن أبي المضرجي شاعركم === يضرط كلما شعرا

و قال القاضي : و بعد هذا بيت قبيح تركناه لفحشه و رفثه و إن كان بيت الأبيات الثلاثة في بابه.

فضحك الأمير ومن حضر ، و انكسر الآخر ، و علم من حيث أتى ، فجاء إلى ابن غانم معتذرا ، مقسما أنه ما هجا أحدا من أهل بيته ، فأظهر ابن غانم ألا علم عنده بشيء من القضية ، فسأله كف أبي الوزن عنه ، فأمره بذلك ، فقال : لا و الله حتى أعطى مثل ما أعطيت حين هجوته ، فأمر له بمثل ذلك [1].

فالقصة تشير إلى موقف الشعراء و القضاة و المجتمع من الهجاء ، و هي إشارة إلى الموقفين الرسمي و الشعبي ، أو موقف رجال السياسة و رجال العلم و الأدب .

1) - القاضي عياض ، ترتيب المارك ، 77/3 .

المطلب الرابع: النقد الذوقي

حكم الذوق النقد الأدبي في فترات طويلة و لم يكتسب نزعته العلمية إلا في فترة متأخرة أما في بدايته فقد كان محكوما جدا بذوق الناقد ، أكان محافظا أو حداثيا ، متمدنا أم بدويا ، لغويا أوبلاغيا و غير ذلك ، فالنقاد كانوا شديدي التشبث بما ألفوا و نشأوا في كنفه ، ففي العصور الأولى مثلا نجد أولئك المحافظين الذين لا يرون أمامهم إلا ما كان على شاكلة السابقين ، حيث نجد ابن الأعرابي مثلا فيما يذكر عنه أنه كان شديد التعصب ، حيث يروى أن أحد تلامذته قرأ عليه أرجوزة أبي تمام :

و عاذل عذلته في عذله   فظن أني جاهل من جهله

و هو لا يعرف لمن الأبيات ، و أمر تلميذه بأن يكتبها له ، قال التلميذ : أحسنة هي ؟ قال: ما سمعت بأحسن منها ، قلت : إنها لأبي تمام ، فقال خرق خرق[1] .

فالابن الأعرابي انتقل النزوع الذوقي عنده من الناحية الفنية إلى النفسية فرغم إعجابه بالقطعة إلا أنه رفضه لرؤيته السلبية تجاه النزوع الحداثي لدى الشعراء المولدين ، و كثير هم النقاد في تلك الفترة المتقدمة الذين فاضلوا بين الأدب و الأدباء لمعايير تخص ذوقهم و حسهم .

و مثال ذلك كذلك عند فئة أخرى من النقاد الذين تأخروا عن الفترة الأولى الآمدي الذي اشتغل طويلا بعلم الكلام و مسائله و نجد في مناقشته القدرة الكبيرة على النظر و التخريج و المناقشة و الجدل و رغم ذلك فإن في دراسته الأدبية و النقديةنزوعا دائما إلى المباشرة و الوضوح في المعنى والسهولة في اللفظ ، لدرجة أنه قد يطلق على شعر أبي تمام "فلسفة" بدلا من أن يطلق عليه شعرا، وهو أمر راجع إلى ذوقه –كما يقول إحسان عباس- يكاد لا يتركه فهو لا يستطيع أن يتقبل ذوقيا إلا المعنى القريب الذي يسلم للقارئ نفسه في صياغة جميلة إسلاما مباشرا ، دون إعمال خيال أوإجهاد فكر ، و لا يجد لذة في التعمية و الانبهام و ما يمكن أن يجيء في شكل أحجية ، الشعر

1) – الصولي ، أخبار أبي تمام 175 .

لديه عالم مستقل من النغمة العذبة و اللفظة المألوفة و المعنى المألوف ، لا دخل له بالأفكار المتفردة والصياغة المتعملة و الإشارات البعيدة (1).

لذلك نجد في تعليقات الآمدي الكثير الكثير من العبارات التي تدل على أن القائل بالغ أوأسرف في القول ، أو تعليقات تدل على أن القائل سهل و بيّن فأحسن كقوله: "هذا ما لا غاية وراءه في الحسن و الصحة و البراعة" أو قوله "حسبك بهذا حسنا و حلاوة" و غير هذه العبارات كثير في انتقادات الآمدي التي تدل على نزعة ذوقية خالصة تتعلق به و بفلسفته ، التي لا نجد لها تعليلا في مكانها إلا كونها نابعة من شخصته و طبعه و ذوقه و نجد هذا عنده كذلك بشكل كبير عقب ذكره لأبيات للبحتري إذ يقول: "هذا و الله هو الشعر لا تعليلات أبي تمام بطباقه و تجنيسه وفرط تقعره و كثرة إحالاته "(2) أو كأن يقول: "و هذا و الله الكلام العربي و المذهب الذي يبعد على غيره أن يأتي بمثله"(3) أو يقول "و هذا إحسان البحتري الذي لا يفي ببراعة معناه شيء"(4) أويقول : "و هذا هو الذي يأخذ بمجامع القلب و يستولي على النفس "(5) و قد نجده بالرغم من ذلك يثني على أبي تمام ما صادف قوله ذوق الآمدي فيقول فيه : "و هذا ما لا مدفع لجودته وحسنه، و كأنه صفو خاطر أبي تمام"(6) أو يقول : "و قال أبو تمام في النائل النزر القليل ما هو فوق كل حسن و حلاوة"(7) ، و هذه التعليلقات و الانتقادات ليست انتقادات المتكلم العالم بالجدل وفنونه و الفلسفة و مذاهبها ، و إنما هو ذوق و حس الرجل و ميوله الأدبية .

و هذه الأذواق الأدبية التي نحن بصدد الحديث عنها أشار إليها ابن شهيد الأندلسي و إلى تنوعها حسب الأزمان و الأشخاص إذ يقول: "ألا ترى أن الزمان لما دار كيف أحال بعض الرسم

---

1) – إحسان عباس ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، ص 172-173 .
2) – المصدر نفسه ، 118/2
3) – المصدر نفسه ، 177/2
4) – المصدر نفسه ، 232/2
5) – المصدر نفسه ، 199/2
6) – المصدر نفسه ، 118/2
7) – المصدر نفسه ، 132/2

الأول في هذا الفن إلى طريقة عبد الحميد و ابن المقفع و سهل بن هارون و غيرهم من أهل البيان ؟ فالصنعة معهم أفسح باعا و أشد ذراعا و أنور شعاعا ، لرجحان تلك العقول و اتساع تلك القرائح في العلوم ، ثم دار الزمان دورانا ، فكانت إحالة أخرى إلى طريقة إبراهيم بن العباس و محمد بن الزيات و ابني وهب و نظرائهم ، فرقت الطباع و خف ثقل النفوس ، ثم دار الزمان فاعترى أهله باللطائف صلف ، و برقه الكلام كلف ، فكانت إحالة أخرى إلى طرقة البديع و شمس المعالي وأصحابهما ، و كذلك الشعراء انتقلوا عن العادة في الصنعة بانتقال الزمان و طلب كل ذي عصر ما يجوز فيه و تهش له قلوب أهله فكان من صريع الغواني و بشار و أبي نواس و أصحابهم في البديع ما كان ، من استعمال أفانينه و الزيادة في تفريع فنونه ، ثم جاء أبو تمام فأسرف في التجنيس و خرج عن العادة و طاب ذلك منه و امتثله الناس ، فكل شعر اليوم لا يكون تجنيسا أو ما يشبهه تمجه الآذان ، و التوسط في الأمر أعدل ، و لذلك فضل أهل البصرة صريع الغواني على أبي تمام لأنه لبس ديباجة المحدثين على لأمة العرب فتركب له من الحسن بينهما ما تركب"[1] .

ابن شهيد في هذا النص يشير إلى علمية النقد نظرته تجاه اختلاف الأذواق و الطبائع عبر الأزمنة و الأمكنة ، قد يكون هذا الذوق معبرا عن سياق ثقافي عام و قد يكون معبرا عن شخصية للأديب و فلسفة له ، الجامع في الأمر أن الأذواق تختلف مع الأزمان ، و كنا رأينا إشارة إلى مثل هذا عند النهشلي لما تحدث عن أثر البيئة في الأدب و إن كان قد أشار بشكل كبير إلى أثرها في اللغة إلا اننا نجد كذلك أثرها في المفاضلة و الانتقاد عند المتلقي إذ يقول في النص الذي نقله عنه ابن رشيق: "قد تختلف المقامات والأزمنة والبلاد، فيحسن في وقت ما لا يحسن في آخر، ويستحسن عند أهل البلد ما لا يستحسن عند أهل غيره، ونجد الشعراء الحذّاق تقابل كلّ زمان بما استجيد فيه وكثر استعماله عند أهله، بعد ألاّ تخرج من حسن الاستواء، وحدّ الاعتدال، وجودة الصنعة، وربما استعملت في بلد ألفاظ لا تستعمل كثيراً في غيره، كاستعمال أهل البصرة بعض كلام أهل فارس في أشعارهم ونوادر حكاياتهم"[2].

1) - ابن شهيد ، الذخيرة ، 203/1 .

2) عن العمدة لابن رشيق1: 93.

فالنهشلي هنا يصرح بشكل مباشر أن النقاد ينتقدون حسب ما ألفوا و عهدوا من بيئاتهم ومواطنهم، و أن استحسانهم و استقباحهم مرتبط أساسا بهذا الاعتبار الزماني و المكاني ، يعني أن انتقاداتهم منبعها أذواقهم المرتبطة ببيئاتهم ، و يضع النهشلي بناء على ذلك أساسا نقديا مفاده أن الناقد البصير هوذلك الذي يقابل الأدب ببيئته و يصنفه على حسب سياقه .

و هذا المعطى االذوقي المرتبط بالبيئة نجده واضحا عند النهشلي في كتاب الممتع ، فإذا أقررنا أن بيئة الغرب الإسلامي بصفة عامة بسبب المعطيات الثقافية و السياسية ، كانت تميل في العصور الأولى إلى السهولة و الجزالة في اللفظ و الوضوح و البساطة في المعنى ، و البعد عن التصنع والتكلف و هذا نلمسه عند برية الرياضي و النهشلي و الرقيق القيرواني ، و ابن شرف و الحصري و ابن رشيق كذلك .

رغم أن النهشلي في الممتع حاول إبداء شخصية العالم فابتعد عن الانتقادات الذوقية ، و إنما أغلب انتقاداته كانت علمية معللة ، بل قد ينقل انتقادات آخرين و يشرحها أو يوفق بينها و بين النص أو بين موقفه ، إلا أننا نجد عنده بعض النقد الذوقي الذي يعبر عن عقلية الأدب في الغرب الإسلامي كما أسلفنا إذ يقول في معرض الحديث عن العرب:

"و من ذكر مقامات العرب و تنويهم بأفعالهم فيها قول زهير بن أبي سلمى ، و كان يجيد المديح ، و هو أعذب لفظ ، و أحسن معنى" ثم ينقل مطوعة نذكر منها الأبيات الثلاثة التالية :

و فيهم مقامات حسان وجوهها   و أندية ينتابها القـــول و الفعـــل
فـــإن جيئـــتهم ألفيـــت حـــول بيوتهـــم   مجالس قد يشفى بأحلامها الجهل
على مكثريهم حق من يعتريهـــم   و عند المقلين السماحة و البـــذل

النهشلي في هذا الموضع أبان صراحة عن موقفه و ذوقه و الواقع أن السياق العام لبيئة المغرب في تلك الفترة ، كان من مذهبه عذوبة الألفاظ و وضوح المعاني و حسنها ، و خص زهير ن أبي سلمى فقط بهذا الوصف من شعراء الجاهلية ، بل إنه تمثل بإبياته هنا ليشير إلى مذهبه و موقفه .

و نجد إشارات من هذا النوع كذلك عند ناقد مغربي آخر و هو الرقيق القيرواني ، الذي اشتهر عنه أنه كان كاتبا ، و الكتاب هم بالأساس -كما برية الرياضي – معروفون بميلهم الشديد لسهولة الألفاظ ووضوح المعاني ، و ليست في بيئة المغرب فقط ، فكيف الحال إذا كان كاتبا و من بيئة الغرب الإسلامي ، إذ تذكر محققة كتاب قطب السرور:أن كل من كتب عن أخبار و حوادث إفريقية في القرون الإسلامية الأولى معتمدين على مادونه الرقيق أجمع بأن الصفة البارزة عنده هي صفة الكتابة و التأريخ حتى ذهب ابن خلدون إلى القول بأنه مؤرخ إفريقية و الدول التي كانت بالقيروان و لم يأت من بعده إلا مقلد[1] .

و كما ذكرنا فإن الإشارات إلى اهتمامه بالسهولة و الوضوح بادية من خلال الأشعار التي ساقها ، و من خلال بعض القصص التي يذكرها كذلك ، إذ يذكر مثلا قول الوليد بن يزيد بن عبد الملك : "يا ابن الزبرقان مثل هذا عندك و أنت منذ اليوم تعذبني بأشعار البغضاء" و هي إشارة إضافة إلى ما سبق إلى أن النقد ارتبط بأذواق الأمراء [2].

و نقل كذلك رؤية أبي عبد الله المهدي محمد بن أبي جعفر المنصور في الشعر لما قال : "قال المهدي لعمارة بن حمزة : إني أردت أن أتخذ لنفسي نديما فمن أرق أهل العصر شعرا و أحسنهم أدبا ؟ قال والبة بن الحباب الأسدي ..." [3].

1) – الرقيق القيرواني ، قطب السرور ص 13 .

2)- المصدر نفسه ص 254 .

3)- المصدر نفسه ص 333 .

المطلب الخامس: النقد الشكلي

إذا طرح موضوع الشكل في النقد العربي القديم فإن أول ما يتبادر إلى الذهن هو مسألة عمود الشعر في الفكر العربي ، إذ نجد الكثير من النقاد يعبرون بأن هذا التباين كان حاصلا بين من يرى الأدب من الناحية الشكلية للغة الأدب و بين من يرى الأدب هو ما يتعلق بالمضامين ، يعنى أن الأدب شكل و مضمون ، حيث إن من يطلق عليهم أنصار الشكل يرون أن تحسين نظم الألفاظ وجعلها سليمة من اللحن و الخطأ و ما قد يعتري التأليف من الجنف و إيرادها صافية التراكيب هو المطلوب ، و يرى آخرون أن الشكل هو تتميم المقاطع و تلطيف المطالع و عطف الأول على الآخر و تناسب الوصل و الفصل و تعادل الأقسام و الأوزان إضافة إلى الجانب الأول ، و فريق آخر يرى أنه كل ما سبق إضافة إلى أنواع البديع من ترصيع و تجنيس و استعارة و تطبيق وغير ذلك من الصور البديعية [1].

و قد نفهم من الشكلانية كذلك المذهب الحديث الذي يجعل الشكل على رأس أهداف واهتمامات العمل الأدبي، و ذلك حسب رأيهم لأن الشكل لم يعد مجرد وعاء أو تمظهرا للعمل الأدبي ، بل جزءا أساسيا من العمل الأدبي يمثل الجانب المحسوس من الشاعرية ، يعني أنه كمال دينامي محسوس له محتوى في ذاته ، و لا يقابل الشكل مضمونا خارجا عنه ، إذ يصعب أن يتحقق التمازج بينهما ، و إنما يتعامل مع الشكل باعتباره مضمونا حقيقيا للخطاب الشعري ، بالطريقة التي تومئ إلى رفض هذه الفئة المقاربة التاريخية أو النفسية أو الفلسفية عموما ، و على هذه الرؤية درس الشكلانيون المحدثون التركيب الصوتي للشعر و النبر و الوزن ، و قاعدة الوزن و الإيقاع في الشعر والنثر ، يعني أن هؤلاء الشكلانيين يحاولون دائما التركيز على الخصائص الأدبية الجوهرية للعمل الأدبي ، و قد عبر جاكبسون (Yakobson) عن هذه الفكرة بقوله: [2] "إن موضوع العلم الأدبي

---

1) – احسان عباس ، تاريخ النقد عند العرب ، 403 .

2)- Roman Jakobson. Essais de linguistique générale:les fondations du langage .

ليس هو الأدب ، و إنما الأدبية (La Litterarite) بمعنى ما يجعل من عمل معطى عملا أدبيا"، و هي إشارة إلى التحول الأيديولوجي العميق الذي تعرض له الأدب من كونه عاما إلى الخصوصية و الاحترافية ، فهذه الرؤية تدعم مجابهة اللغة الشعرية باللغة اليومية[1] .

و ما نقصده هنا ليس الذي سبق ، و إنما الجوانب الجمالية لشكل الكتابة و الكتاب ، وهي من ظريف ما تفرد به برية الرياضي في رسالته العذراء ، حيث أبدى بشكل واضح اهتماما بشكل الكتاب و الكتابة لأنها في تقديره جزء من عملية الإبلاغ التي يرى أن الكلام مبني على أساسها وما الجوانب الجمالية و الفنية إلا جزء من هذه الوظيفة ، و جزء آخر كذلك للجوانب الجمالية للمكتوب لأن شكله يؤثر في استقبال المتلقي لتلك الرسالة ، من النواحي النفسية و المعنوية، إضافة إلى أننا نفهم من صنيع برية الرياضي أن البعد الشكلي في الكتابة من صميم الذوق و النقد.

فنجد برية الرياضي يتحدث عن كل ما من شأنه أن يسهم في جمالية الكتاب ووضوح الكتابة من الناحية الشكلية ، كالقلم و أنواعه و تفاصيله و طريقة بريه و السكين التي يبرى به ، و الورق وصولا إلى عملية الكتابة و بعض تقنياتها منتهيا بالمكتوب نفسه و طريقة العناية بها من ناحية النقط والشكل و غير ذلك .

برية الرياضي يتحدث في تفاصيل الأقلام و الأوراق حديث الخطاط المتمرس و الكاتب المجرب ، فيبتدئ حديثه في هذا الصدد بالقلم و الورق لأن بهما جمال المكتوب ، فيرى أحسن الأقلام ما كان قصبه صافيا من التعرجات و ما كان سميكا بالقدر الذي يمنحه صلابة و ثباتا أثناء الكتابة ، و أن يكون نقيا من الشوائب و العوالق حتى لا يفسد و يعرقل الكاتب ، يقول في هذا الصدد : "ثم اختر بعد ذلك من أنابيب القلم الذي يصلح لكتابة القراطيس ، أقله عقدا، و أكثفه لحما ، و أصلبه قشرا، و أعدله استواء ، و تجنب الأقلام الفارسية ما استطعت فإنها لا تصلح إلا للكواغد والرقوق"

1)- محمد سويرتي، المنهج النقدي ، مفهومه و أبعاده و قضاياه ، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2015م، 31.

[1]، و في حديثه عن الأقلام الفارسية إشارة إلى أن أهمية العناية بالمكتوب من النواحي الشكلية كانت مشتهرة ، إلى درجة ان المجتمع كان يفرق بين وسائلها و معداتها .

و في سياق حديثه عن القلم و انتقائه يتحدث عن طرق بريه كذلك ، بل نه يربط بين حسن القلم و طريقة بريه بأدب و ذوق الكتاب ، و أن ذلك مؤشر لرؤيته تجاه الكتابة ن كان مكرما لها أم لا ، بما يعني أن مروءته و كرامته مرتبطان بالقلم يعني بالمكتوب ، يقول في بيان هذا: "و اجعل لقلمك براية حادة ، فإن تعثر يد الكتاب وقت قطع القرطاس ناقص من مروءته ، و مخل بظرفه ، وإن قدرت ألا تقطع القرطاس إذا فرغت من كتابك إلا بخرطوم قلمك فافعل ، فإن ذلك أكمل لمروءتك ، وأبدع لظرفك و قطعك"[2] .

فالكاتب إن لم يكن محسنا للخط أو الكتابة ، أو أنه وقع في ذلك بسبب عدم حسن قلمه فهذا ما سيكون سببا في القدح فيه و الحط من كرامته و مروءته .

لذلك يعطف هذه المسألة بنوع السكين الذي يحسن للكاتب أن يبري قلمه به ، حتى لا يعرض مروءته للقدح و الانتقاص ، إذ يقول في ذلك: "واستعمل لبري القلم سكينا طواويسيا ، مذلق الحد ، و ميض الطرف ، فيكون لك ذلك عونا على بري أقلامك ، فإن محل القلم من الكاتب محل الرمح من الفارس ، و لئن قيل كأنه الرمح الرديني ، فقد قال الكاتب : كأنه القلم البحري ، و تفقد الأنبوبة قبل بريكها لئلا تجعلها منكوسة ، وابرها من ناحية نبات القصبة ، و أرهف ما قدرت جانبي قلمك ، ليرد ما انتشر من المداد ، و لا تطل شقه ، فإن القلم لا يمج المداد من شقه إلا مقدار ما احتملت شعبتاه ، فارفع شعبتيه ليجمعا لك حواشي تحضيره" [3].

إشارات الرياضي و إيماءته غاية في الأهمية ، فهو يريد أن حسن الأقلام و الأوراق من مهيئات الكتابة إضافة إلى الظروف الأخرى التي تحدثنا عنها فيما سبق الأسباب النفسية و السياقية ،

1) - برية الرياضي ، الرسالة العذراء ، ص 50 .
2) - المصدر نفسه ، ص 50 .
3) - المصدر نفسه ، ص 50 ، 51 .

فكل الأمور لتي ذكرها في بري الأقلام كعدم بريها منكوسة ، و عدم شق القلم بالقدر الذي يجعل الحبر يسيل بقدر كبير و غير ذلك ، من الأمور التي تساعد و تحفز الكاتب كالفارس الذي يمتطي فرسا كريما و يمسك برمح قوية حادة تساعده على القتال و الإقدام .

و يتحدث كذلك على قدر تحديد رأس القلم ، و آدابه ، فتحديد رأس القلم مرتبط بالأسلوب الذي عهده الكاتب ، إضافة إلى طبيعة المكتوب الذي يريده ، فإن كان يريد مراسلة أمراء و ملوك مثلا فإن لهم خطا و قلما خاصا به يستقبلون و يفهمون ، فكتاب الملوك مثلا لا يكون غليظا شديد التعرج و التقعر و التنميم بما يعد فنا في كتابات أخرى ، بل إن ذلك كله مرتبط بطبيعة الكتاب و طبيعة المتلقي ، كم هي عادة الرياضي في كل إشاراته في الرسالة العذراء إذ يقول في هذا الصدد: "و أما قط القلم فعلى قدر الذي يتعاطاه الكاتب من الخط غير أن المسلسل لا يكاد يتسلسل إلا بالقلم المربع القط ، كما أن كتب الملوك و السجلات لا تحسن إلا بالقلم المحرف الكوفي، و أما قلم اللازورد فهو المعتمد عليه و المقصود إليه في النوائب و المهمات ... و رأيت كثيرا من الكتاب يختارون قلم النرجس لتجعده و تجانسه ، ومن اللازورد أبسط منه و أقوم حروفا ، و أما الموشع و المولع و المدبج و المنمنم و المسهم فعلى قدر رشاقة خط الكاتب و حلاوة قلمه[1] .

و هو مع ذلك يشير إلى أن آداب و أسباب جمال الكاتب كثيرة و أن ما ذكره بعضا من تلك الأساسيات فقط، و أن كل تلك الأمور التقنية تبقى متعلقة بمهارة الكتاب و تمرسه إذ يقول: "أما حسن الخط فلا حد له ، قال علي النصراباذي الكاتب: أعلمك الخط في كلمة واحدة ، لا تكتبن حرفا حتى تستفرغ مجهودك في كتابة الحرف المبدوء به ، و تجعل في نفسك أنك لا تكتب غيره، حتى لا تعجل عنه إلى غيره .

و يشير مع ذلك إلى قضية مهمة و هي أثر الشكل و النقط في تشويه المكتوب ، إذ أن النقط و الشكل طارئ بالأساس على لغة العرب ، و لم يزل العرب يكتبون بشكل واضح و ظاهر ، ثم نقطوا الكلام و أشكلوه بسبب اللحن و الخطأ حفاظا على معاني القرآن و ألفاظه ، فظل الشكل

1) – برية الرياضي ، الرسالة العذراء ، ص 51 .

النقط مرتبطا بهما و ما شابه تلك المواقف ، فمتى ما خشي اللبس و الخطأ تعين النقط و الشكل ، أما النقط فمع الوقت صار لازما و ثابتا لكن الشكل ظل مرتبطا بالكلام وضوحا و غموضا، يقول الرياضي: "إياك و النقط و الشكل في كتابك[1] ، إلا أن تمر بالحرف المعضل الذي تعلم أن المكتوب إليه يعجز عن استخراجه ، فـإني سمعت سعيد بن حميد بن عبد الحميد الكاتب يقول : لأن يشكل علي الحرف ، أحب إلي من أن يعاب بالنقط و الإعجام ، وقال المأمون لكتابه: إياكم و الشونيز في كتبكم ، يعني : النقط ، و لذلك قال ابن هانئ:

لم ترض بالاعجام حين كتبته   حتى كتبت السب بالاعراب[2] .

إن الاهتمام بمثل هذه القضايا الشكلية في الكتابة لأحد أعلام الغرب الإسلامي ، يدل على النضج الفكري و الذوقي الذي بلغته هذه المنطقة ، فأن يهتم النقاد و الكتاب بهذه القضايا التفصيلية و يكتبوا فيها و يناقشوها ، يدل على التطور الفكري و العقلي الذي وصلوا إليه .

1) – لماذا ينهى عن الشكل و النقط هل لأسباب جمالية فقط كما نفهم من تعليله اللاحق أم بسبب التأثير على المعنى و الفهم كذلك ، يضاف إليه من خلال هذه التوصية نفهم و نعرف السياق الثقافي المتقدم الذي كتبت فيه هذه الرسالة .

2) – برية الرياضي ، الرسالة العذراء ، ص 51 ، 52 .

كخاتمة لهذا الفصل يمكننا القول أن بوادر الاتجاهات النقدية لدى نقاد المغرب ظهرت في فترة زمنية متقدمة تجسدها الفترة التي نخصها بالدراسة في هذا البحث، بل إن بعض النقاد المغاربة أبدى تميزا في انتقاداته و توجهاته كبرية بن أبي اليسر الرياضي ، الذي يؤكد دائما اهتمامه بالمتلقي من ناحية المعنى و اللفظ و شكل الكتاب و الكتابة ، في اهتمام بالغ ، و إن كانت قضايا يهتم بها العرب عامة إلا أنّ الرياضي من القلائل الذي كتبوا في تفاصيل العناية بشكل الكتاب والمكتوب ، إضافة إلى ذلك فإن تعدد الاتجاهات النقدية في الغرب الإسلامي يدل على الاستيعاب السريع للمنطقة للأدب و فلسفته و نقده و قضاياه ، و للتفاعل الإيجابي كذلك معه.

خاتمة

في ختام هذا البحث نصل إلى تقرير مجموعة من النتائج التي توصلت إليه بعد المناقشة والتحليل لمختلف النصوص و القضايا النقدية المتعلقة ببلاد الغرب ، تشير هذه النتائج في مجملها إلى الارهاصات التي بشرت بالازدهار الكبير الذي عرفه النقد في بلاد الغرب الإسلامي بعد ذلك خاصة في القرون الخامس و السادس و السابع الهجرية ، أهم هذه النتائج تتمثل في التالي:

01- أن النقد الأدبي العلمي المنظم في بلاد المغرب لم يتأخر في نشأته عن نظيره في بلاد المشرق، إذا أردنا أن نبحث القضية من الناحية الجغرافية، حيث إنه لم يوجد هناك فرق كبير بينهما ، مع اعتبار خصائص كل واحد منهما باعتبار الزمان و المكان ومعطيات السياق الثقافي والاجتماعي و غير ذلك، مما يوحي أن أحدهما متقدم عن الآخر أومتأخر عنه ، بل إن الأمر مرتبط بخصوصيات كل بيئة، مع ضرورة الإقرار أن كل قضية نقدية لها سياق واحد وبيئة واحدة تظهر فيها ثم تنتقل إلى غيرها من البيئات، هذا الانتقال في الثقافة العربية كان شديدا و سريعا بالشكل الذي يوحي أن هذه العلوم و المسائل ظهرت في كل هذه البيئات في نفس الزمن بالرغم من وجود الفروق الزمنية البسيطة، إضافة إلى ذلك فإن درجة النضج تختلف في هذه البيئات بين بلاد المنشأ و بلاد التلقي ، و هذا ما يظهر بشكل جلي في النقد الأدبي العربي بين مشارقه و مغاربه .

02- النقد في بلاد المغرب من بداياته أخذ طابعا علميا ولم يرتبط بالذوقية كما ارتبط أصله المشرقي، إذ أن القضايا و المسائل و المناقشات كانت تصل ناضجة إلى بلاد الغرب الإسلامي ، فكانت مواقف النقاد ثابتة و متزنة تجاه أغلب القضايا النقدية كالطبع والصنعة أو القديم و الجديد أو غيرها ، لكن الأحكام الانطباعية كانت موجودة على الدوام ، أما العملية النقدية فإنها اتسمت بالعلمية و التنظيم و نلمس هذا عند شخصيات كبرية الرياضي و النهشلي و القزاز و ابن رشيق كمرحلة أخيرة.

03- تأثر النقد العربي في بلاد الغرب الإسلامي منذ نشأته بالفتوحات و الدعوة الإسلامية كنظيره في بلاد المشرق ، مع الإقرار أن تأثره في الغرب الإسلامي كان أكبر ، بسبب

حداثة عهد هذه الشعوب بالثقافتين العربية و الإسلامية ، فمعرفة الأول كانت بواسطة الثاني والعكس ، فارتبط كل واحد منها بالآخر في مخيلة الانسان في الغرب الإسلامي ارتباطا وثيقا ، في عقله ووجدانه ، و استمر الأمر حتى عصور تطوره و ازدهاره وانحداره، والشأن نفسه ينطبق على الأدب و بقية الفنون ، فكانت العقلية الفقهية حاكمة في فترات معينة على الأدب و تجلى ذلك حتى في مصطلحات الأدب و النقد تأثّرا و تأثيرا .

04- عرف النقد في بلاد الغرب الإسلامي صبغة وظيفية معتدلة بسبب أن أغلب القضايا كانت تتدرج في وصولها إلى بلاد المغرب ، و بسبب النزعة الدينية الطاغية في بلاد الغرب الإسلامي كذلك فإن الأدب فيها كان ما يؤدي وظيفة اجتماعية سامية و هي التواصل في الدرجة الأولى، و الوظائف الجمالية الأخرى في الدرجة الثانية كما نلمسه عند الكثيرين .

05- عرف النقد الأدبي في بلاد الغرب الإسلامي تيارات و توجهات متعددة، لعب فيها اختصاص و توجه كل ناقد دورا مهما :

فنجد من غلب عليه البحث اللغوي كالقزاز القيرواني، فكانت انتقاداتهو منهجه متعلقا بالجوانب اللغوية و النحوية ، فسطر بذلك المنهج النقدي اللغوي في بلاد الغرب ، واعتمد من جاء بعده من النقاد على تراثه في هذا الجانب .

ونجد من غلب عليه التوجه الديني القيمي كبرية الرياضي، حيث إن النقد عنده ما يؤدي وظيفة و قيمة إنسانية بالغة، و ما الجوانب الفنية و الجمالية إلا وسائل و مكملات ، و هذا النهج عموما نجده عند علماء الدين و الفقهاء خصوصا ، و لا يخفى أن برية تأثر في توجهه هذا بهم .

و نجد كذلك من كان نقده نظريا علميا كالرقيق القيرواني، أي الناقد الذي يحمل صفة العلمية الصارمة، لذلك فانتقاداته على قلتها تحمل صفة التأسيس و التقعيد ، و هو من

دون شك متأثر بانشغاله بعلوم لا تقبل التخييل و الوجدان كالتاريخ الذي اشتغل و تخصص فيه .

كما نجد من كان جامعا لمصطلح النقد فتوسط بين أولئك جميعا كعبد الكريم النهشلي، الذي يجمع في نقده بين القيم واللغة و الذوق و الفن، و هي المعطيات التي تمنح صاحبها لقب الناقد المحترف، و هو ما يجعلنا نفهم تلك الأهمية الكبيرة التي منحها له ابن رشيق في مدوناته رغم أن الرجح تاريخيا أنه ليس تلميذا مباشرا له.

لكن الجامع بين هذه الاتجاهات كلها في بلاد الغرب الإسلامي من حيث الجملة هو أن النقد في هذه المنطقة تميز بالاعتدال في المنهج والنضج في الرؤية والانفتاح على مختلف التوجهات العلمية التي تشكل العمل الأدبي وهذا للاعتبارات السالف ذكرها، لذلك نجد الكثير من النقاد في هذا العصر وفي العصور التالية يركّبون بين المناهج مراعين كامل الميول والأساليب و المعطيات .

و كخلاصة يمكننا القول إن البحث في تاريخ الغرب الإسلامي و أدابه و نقده موضوع كبير والبحث فيه بالرغم من الدراسات الكثيرة إلا أنه ما يزال في حاجة إلى دراسة أكثر ، حيث أن ما قمت به في هذا البحث لا يمكن أن يعد سوى مقدمة لبحوث متخصصة في هذا المجال ، إذ أن كل مسألة نقدية، أو كل ناقد فيه بحاجة إلى دراسة منفردة، يضاف إلى ذلك ، أن المدونات المغاربية الكثيرة في مختلف فنون المعرفة الإنسانية خاصة علوم الدين، بحاجة إلى دراسة متفحصة بغرض استخراج الفكر النقدي المتعلق بمنطقة الغرب الإسلامي، و عدم الاكتفاء بالمدونات الأدبية أوالتاريخية فقط، يضاف إليه أن الكثير من المدونات لا يزال في خانة المخطوط خاصة في مكتبات جنوب أوروبا، فهي كذلك بحاجة إلى دراسة و ذلك بعد تحقيقها و إخراجها ، و كل هذا ينبغي أن يكون على يد متخصصين في الأدب ونقده و مصطلحاته ، مع الاستعانة بالباحثين من مختلف السياقات الثقافية الأخرى كالفلسفة والتاريخ و الانثروبولوجيا و علم و الاجتماع و السياسية و غيرها .

من القضايا التي تجدر الإشارة إليها كذلك هي أن هذا البحث لا يمكن اعتباره صورة حقيقية لواقع النقد في الغرب الإسلامي، بل هو إشارة إلى بعض قضايا وعوامل وأعلام النقد في الغرب الإسلامي في زمن النشأة، وهو في حاجة إلى تحديث مستمر ونحن في حاجة كذلك إلى دراسات كثيرة مماثلة تصل في مجملها إلى واقع الفكر النقدي في منطقة الغرب الإسلامي.

من القضايا التي تجدر الإشارة إليها كذلك أن البحث اعتمد عددا محدودا من المدونات، أدبية في معظمها بالدرجة الأولى مثل كتب برية الرياضي وعبد الكريم النهشلي ، إضافة إلى عدد محدود كذلك من المصنفات خارج الحقل الأدبي مثل تاريخ افريقية و المغرب للرقيق القيرواني وترتيب المدارك للقاضي عياض ، و الحق أن هذا النوع الثاني من المدونات يلزم الاهتمام به أكثر لاستخراج الفكر النقدي و الأدبي ، خاصة كتب التاريخ و الفقه و النوازل ، و هو عمل يستلزم جهدا ووقتا ، إضافة إلى الرؤية ، و عليه فإن المجال يبقى مفتوحا أمام الباحثين و الدارسين الراغبين في الكشف عن هذه الحلقات المفقودة و الجواهر المخبوءة ، من تراثنا الأدبي و النقدي .

و الله من وراء القصد و له الحمد أولا و آخرا

فهارس

فهرس الآيات القرآنية

طرف الآية	رقمها	السورة	الصفحة
و أسأل القرية التي كنا فيها	82	يوسف	64
بل مكر الليل و النهار	33	سبأ	64

فهرس الأحاديث والآثار

الأحاديث و الآثار	الصفحة
أدبني ربي فأحسن تأديبي	50
الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أعلم منه	84-210
لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا خير	91
الغناء رقية الزنا	92
إن من الشعر لحكما	210
اهجهم –يعني قريشا– فوالله لهجاؤك عليهم أشدّ	211
من قال في الإسلام هجاء مقذعا فلسانه هدر	211

فهرس الأشعار

القافية	الصفحة
–أ–	
قد غاب عنك ثقيل كل قبيلـة ... ممن يشوب حديثـه بمـراء	88
	203
فالليلُ ألبسنا الحدادَ و سرّنا ... و الصبحُ ألبسنا البياضَ و ساءَ	135
–ب–	
أنا الملك الذي أسمو بنفسي ... فأبلغ بالسمو به السحابا	32
ألا إن حدّ السيف أشفى لدى الوصب وأحرى بنيل الحق يوما إذا طلب	36
أعجب لاسطول الإمام محمـد ... و لحسنـه و زمانــه المستغرب	36
يا دهـــر مالك لا ترثـــي لمكتئب ... ما بات منك خليـا قط من كرب	41
رغبت بنفسي عـن دنى المكاسب ... و ما أعجزتني حيلـــة عـــن مطالبـــي	85
عــد يا عــادلي عـــن التثريب ... كـــم كربـــة أدت إلى محبـوب	85
فذوقوا كما ذقنا غداة محجر ... من الغيظ في أكبادنا و التحوب	134
إياةُ الشّمسِ حواهُ جسمُ لؤلؤةٍ ... تغيبُ من لطفٍ فيهـا و لم تغِبِ	140
و كأنهُ سيف الزّمان مجردًا ... للنائبات فلا يزالُ خضيبًا	148
–ت–	
أبدت لنا الدنيا زخارف حسنها ... مكرا بنا و خديعة ما فترت	44
ربما أوفيت في علم ... ترفعن ثوبي شمالات	206
–ج–	
من كان مغتبطا بلين حشيـة ... حشيتي و أريكتي سرجـي	35
يـــا مبرزاً إبريــز خير سبيكـة ... و مكللا إكليــل خيـــر متوجِ	175
–ح–	
ألا يا حمام الأيك إلفك حاضر ... و عصنك مياد ففيما تنوح	55
تغيرت البلاد ومن عليها ... فوجه الارض مغبر قبيح	76
فلم أمدحك تفخيما لشعرى ... و لكني مدحت بك المديحا	171

		190
-د-		
ألا أيها القاضي الذي عـم عدلـه	فأضحـى به في العالمين فريـــدا	81
أولئك قوم إن بنو أحسنوا البنا	و إن وعدوا أوفوا و إن عقدوا شدوا	83
مالي تلاد و لا استظرفت من نشب	و ما أؤمـل غير الله من أحـد	88
خطّتْ يدُ الحســنِ على خدّهِ	لامًا من المسكِ شديدُ السوادِ	134
خلت الديار فسدت غير مسود	ومن الشقاء تفردي بالسؤدد	160
ألم ياتيك و الأنباء تنمي	بما لاقت لبون بني زياد	206
أيا بنت عبـــد الله و ابنـة مالك	ويا بنت ذي البردين و الفرس الورد	208
-ر-		
نأى النوم عني واضمحلت عـــرى الصبر	وأصبحت عن دار الأحبـة في أسر	34
هذا الإمام الفاطمي و من به	أمنت مغاربها من المحـــذور	35
يقول بنو العباس هل فتحت مصر	فقل لبني العباس قد قضي الأمر	37
أبني مناد سلكتم سنن الهدى	و العقد منكم بالوفاء معـــار	39
على العدوة القصوى و إن عفت الدار	ســلام غريب لا يئوب فيـــزدار	42
يا قصر طارق الـــذي طرقت	أحشايا فيه بلابل الصـــدر	42
نحن في المشتاة ندعو الجفلى	لاترى الآدب فينا ينتقر	49
حشــو قلبي أدب وافــر	و بيــن قلبي فتـــى شاعــر	59
إني و إني و إنني و أنـــا	و أهل بيتي معظمو الأمـرا	71
إن أبي المضرجي شاعركم	يضرط كلمـــا شعـــرا	71
أتتني عنك أخبار	لها في القلب آثار	81
تعـودت مس الضر حتى ألفتــه	و أسلمني مس الليالي إلى الصبر	86
لا يغرنك يـــا محمد ليل	بت فيه علـــى فراش وثير	88
ألفتني الهموم مذ كنت طفلا	لم ترعني و قد علاني القتير	88
و لما التقينا بعد أن ظنّ حاسدٌ	على الحبّ ألا نلتقي آخـــرَ الدهرِ	134
رأيتُ بهرامَ و الثريّـــا	و المشتري في القران كرّةْ	136

قلتُ لمَّاً أنْ رمى كبِدِي بِسهامِ الغُنْجِ و الحَـوَرِ	137
ملكٌ بل بالدماءِ تَرَى الأر ضَ فَمَا للجيوشِ فِيها غُبَارُ	141
كأني سلبت القوم نور عيونهم فلا العذر مقبول و لا الذنب يغفر	160
إني و إني و إنني و أنا و أهل بيتي معظمو الأمرا	71 221
إن أبي المضرجي شاعركم يضرط كلما شعرا	71
-س -	
يا غصنا غضـــا مـــن الآس و درة وهيـــا من النـــاس	41
يا غصنا غضـــا مـــن الآس و درة وهيا مـــن النـــاس يا ساقيَ الكاسِ اسق صحْبِي وواسِيني إنّنـــــــــي أُواسي كل شيء قد أراه نكرا غير ركز الرمح في ظل الفرس و الراح طيبة و ليس تمامها إلا بطيب خلائق الجلاس	125 136 161 205
-ص-	
يا عتب يا درة الغواص	113
-ض-	
خير أعمالك الرضـــا بالمقادير و القضـــا	44
- ع-	
و ما مثل باديس ظهير خلافـة إذا اختير يومـــا للظهيرة موضع	39
عيني من التغميض ممنوعــة و مهجتـي بالنـــار ملذوعــة	82
الشعـراء فاعلمـــن أربعـــه فشاعر يجري و لا يجرى معه	100
إن الجديد إذا ما زيد في خلق تبين الناس أن الثوب مرقوع	111 164
فما أحجم الأعداء عنك تقية عليك و لكن لم يروا فيك مطمعا	160
هجوت زبان ثم جئت معتذرا من سب زبان لم تهجو و لم تدع	206
- غ-	
سُرِرتَ بليلٍ كالحدادِ لبستَـــــه و ساءكَ صُبْحٌ كالرداءِ المصْبَغِ	136

-ف-		
أغــر قضاعــي يكــاد نوالــه	لكثرة ما يدعو إلى الشكر يجحف	40
و كم ليلةٍ قد جاذبتْ راحــتِي بها	نُهُود العذارى في قميص الدجى الوحْفِ	133
وَ عاذِلةٍ في بذْل ما مكلتْ يدِي	لراجٍ رجـــائي دون صَحْب تعنّفُ	149
-ق-		
بنى قبـة للملك في وسط جنـة	لها منظر يزهى به الطـرف مونق	37
انظر إلى البحر و أمواجه	فقد علاها زبـــد متسـق	43
أستغفر الله في قولي و ما كتبت	كفي و أملاه قلب هائم قلق	87
يا موضعي أملي على التحقيق	و سميي الصديق و الفاروق	89
قَلَقْتُ فيكَ هذه	هذه كيف تَقلــقُ	121
يا رُبَّ مُثقلةٍ تنوءُ بِثِقلِهَا	تَسقِي البِلادَ بوابلٍ غيْدَاقِ	139
و أيَّامُنَا فِي مُنَى الصالحَاتِ	مَضَيْنَ و نحنُ لها عشّقُ	140
-ل-		
لكأني لما تضمنـك اللحـ	ـد يمين قد فارقتها الشمال	33
إلى كم أقر النفس في المرتع المحـل	وأقنع مـن جــد المكاسب بالهـزل	34
أيهجو أمير المؤمنين ورهطـه	و يمشي على الأرض العريضة دعبل	85
و عاتبني فيــه حبيب و قــال لي	لسانك محذور و سمك يقتــل	85
يا بن الإمام المرتضى و ابن الوصي	المصطفى وابن النبي المرســل	36
النيل بين الجانبيـن كأنـما	صبت بصفحته صفيحة صيقل	43
الصبر جارك فاستعن بجواره	عند الحوادث و المهم النازل	166
إني و إن كنت القريض أقوله	يوما فليس على القريض معولي	88
كأنّما عارِضهُ عندمــا	مثَّل فيه الشعرُ ما مثـــلا	135
رُبَّ أختيْن أمستا طوعَ ملكي	نجل أم تصبو إليها الرجــــالُ	142
أناخوا فجروا شاصيات كأنها	رجال من السودان لم يتسربلوا	142
الصبر جارك فاستعن بجواره	عند الحوادث و المهم النازل	166

فما يستطيع الفاعلون فعالهم	و عن أحسنوا في النائبات و أجملوا	208
حي ذوي الأضغان تسْبِ قلوبَهم	تحيّتك الحُسنى و قد يرُقعُ النّعَلْ	211
حصانٌ رزانٍ ما تزنٌّ بريبـــةٍ	و تُصبحُ غرْثَى من لحـــومِ الغوافلِ	212
و فيهم مقامات حسان وجوهها	و أندية ينتابها القـول و الفعل	225
-م-		
هو البحر إن كلفت نفسك خوضه	تهالكت في آذيــه المتلاطــم	31
أنا من قد جــال ذكري	وجــرى بين الأنـــام	32
كريم المساعي والأيـادي سمت به	أبوة صدق من ذؤابة هاشـــــم	36
و معترك ضاق القضا في مقامــه	من الطعن و الارض العريضة خاتم	38
حظ الأديب من الدنيا هو العــدم	و للرقيع الوضيع المـــال و الخدم	58
و لو قرنت بدرفاخرا خرزا	من الزجاج لقلنا بئسما نظما	111
أنت عندي عربي	ليس في ذاك كلام	122
أضلّهُ البيْنُ حتّى أنّه رَجُل	لو مات مِن شغلِهِ بالبيْن ما علِمَا	133
شفى الغيظُ في طيِّ الضميرِ المكْتَمِ	دماءَ كلابٍ حُلّلتْ في المحرّمِ	134
و جُرْدٌ غَرابيبُ و مُردٌ غَطَارِفُ	و سُمْرٌ سَلَاهِيبُ و شِيبٌ أكَارِمُ	137
أرى طيبَ الحلالِ علي خُبْثاً	و طيبُ النفْسِ في خُبْثِ الحرامِ	141
أجدُ الملامةَ في هواكَ لذيذةً	حُباً لذِكرِكَ فليَلُمني اللُّوَّمُ	141
اشرب فما لؤم الزمان و إنما	أبناؤها مسخو المكارم لوما	201
-ن-		
ليت شعري ما الذي عاينته	بعد طول الصوم مع نفي الوسن	32
أما و محل حبك من فـؤادي	و قدر مكانه فيـــه المكيـن	41
ما ذا تريك حـــوادث الأزمـــان	و صروفها و طوارق الحدثان	44
هُدِّدتُ بالسلطانِ فيكَ و إنّمـا	أخشى صدودَكَ لا منَ السلطانِ	141
خليلي ماذا أرتجي من عدى امرئ	طوى الكشح عني اليوم وهو مكين	58
و أنستُ بالعلياء ناراً لها سنى	لليلَى بليلٍ قد دجا و تغضَّنَـــا	149
و يسيء بالاحسان ظنا لا كمن	هو بابنه و بشعره مفتون	188

يدا ما قد بـدت إلى حصيـن بأمـــر غير منبتـــر القيـــن	206
-هـ-	
و مجلس موقـــور الجلالـــة تنثني عيون الورى عنه و ينبو خطابها	40
أقول و النفس حرى منك والهة مما تحاذره من فقـــد مـــحياها	82
حياك ربك من خل أخي ثقة و صان نفسك بالتكريم مولاها	82
أنت في حلّ و في سعَةٍ من دمي يامن تَقَلَّدَهُ	136
و لا تنطق الدهر في مجلي حديثا إذا أنت لم تحصه	215
خلوت بالراح أناجيها آخذ منها و أعاطيها	204
لها أشارير من لحم تتمره من الثعالي ووخز من أرانيها	206
و لا تنطق الدهر في مجلي ...حديثا إذا أنت لم تحصه	215
و عاذل عذلته في عذله فظن أني جاهل من جهله	220
-ي-	
و إذا تباع كريمة أو تشترى فسواك بائعها وأنت المشتري	31
ألا أيها الناعي الذي جلب الأسى وأورثنـــا الأحــــزان لا كنت ناعيـا	33
بكت و شكت و استرجعت و توجعت فظلت لـها مسترجعا متباكيا	41
أني يكون بليغا من اسمه كان عيا	122

فهرس المصادر و المراجع

- القرآن الكريم : برواية ورش عن نافع

01- الآبي ، منصور بن الحسين الرازي، أبو سعد (421هـ)، تح: خالد عبد الغني محفوط، نثر الدر في المحاضرات، دار الكتب العلمية - بيروت /لبنان، ط1، 1424هـ - 2004م .

02- ابن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجي موفق الدين، أبو العباس (668هـ)عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تح: الدكتور نزار رضا، دار مكتبة الحياة ،بيروت.

03- ابن الأثير ، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين (630هـ)، الكامل في التاريخ ، تح: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت/لبنان، ط1، 1417هـ / 1997م.

04- ابن الأثير ، ضياء الدين ، المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر ، دار الرفاعي ، الرياض، ط2، 1983م .

05- الأصمعي أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك (216هـ)، فحولة الشعراء، تح: ش. تورّي، دار الكتاب الجديد، بيروت – لبنان، ط2، 1400 هـ - 1980م.

06- أحمد الهاشمي ، جواهر البلاغة ، دار الآفاق العربية ، القاهرة ، ط 1 ، 2002 م .

07- أرسطو ، فن الشعر ، تر: عبد الرحمن بدوي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، 1953م .

08- إحسان عباس ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، (1424هـ)، ط4، 1983 ، دار الثقافة، بيروت – لبنان.

09- الآمدي، أبو القاسم الحسن بن بشر (370 هـ)، الموازنة بين أبي تمام والبحتري، تح: السيد أحمد صقر، نشر/ دار المعارف ط1 .

10- ابن الأنباري عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الأنصاري، أبو البركات، كمال الدين (577هـ)، الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين: البصريين والكوفيين، المكتبة العصرية، ط1، 1424هـ- 2003م .

11- الباقلاني ، أبو بكر ، إعجاز القرآن ، دار المعارف ، القاهرة/مصر .

12- البخاري ، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله الجعفي، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه " صحيح البخاري" ، تح: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط1، 1422هـ .

13- البلنسي ، ابن الأبار، محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي (658هـ)التكملة لكتاب الصلة ، تح: عبد السلام الهراس، دار الفكر للطباعة – لبنان ، 1415هـ- 1995م.

14- ابن بسام الشنتريني أبو الحسن علي (542هـ)الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تح: إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، ليبيا – تونس ، ط1، 1981.

15- بوخريسة بوبكر ، علوم الإنسان بين الهوية و السؤال ، تحليل ابستمولوجي في المفاهيم ، البراديجمات و النظريات ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 2013 .

16- بشير خلدون ، الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي ، المكتبة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، 1981م .

17- بدوي طبانه ، السرقات الأدبية ، دراسة في ابتكار الأعمال الأدبية وتقليدها، دار الثقافة ، بيروت . 1986م .

18- التبريزي، يحي بن علي بن محمد الشيبانيّ ، أبو زكريا (502هـ)، دار القلم – بيروت.

19- ابن تغري بردي يوسف بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين (874هـ)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر.

20- الثعالبي ، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور (429هـ):

= ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ، دار المعارف القاهرة .

= يتمة الدهر في محاسن أهل العصر، تح: مفيد محمد قمحية، دار الكتب العلمية، بيروت/لبنان، ط1، 1403هـ1983م.

21- الجاحظ، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، (255هـ):

= البيان والتبيين ، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1423 هـ.

= الحيوان، دار الكتب العلمية/ بيروت، ط2، 1424 هـ .

22- الجرجاني ، أبو بكر عبد القاهر ، دلائل الإعجاز ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط1 ، 1995م ، تح: د.محمد التنجي .

23- الجرجاني، أبو الحسن (392هـ) ، الوساطة بين المتنبي وخصومه ، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه .

24- ابن الجزار :

= كتاب في طب المشايخ و حفظ صحتهم ، تح: الراضي الحجازي/فاروق العسلي، المجمع التونسي للعلوم والأداب و الفنون (بيت الحكمة) ، تونس، 2009م.

= كتاب في فنون الطيب و العطر ، تح: الراضي الحجازي/فاروق العسلي ، المجمع التونسي للعلوم و الأداب و الفنون (بيت الحكمة) ، تونس، 2007 .

25- جهاد المجالي، طبقات الشعراء ، دار الجيل ، بيروت/لبنان، مكتبة الرائد العلمية ، عمان/الأردن ط1، 1992م .

_ محمد بن سلام الجمحي (232هـ) ، طبقات فحول الشعراء ، تح: محمود محمد شاكر، دار المدني – جدة .

26- ابن جني ، أبو الفتح عثمان (392هـ)، الخصائص ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط4 .

27- الحاتمي ، حلية المحاضرة ، تح: هلال ناجي ، بغداد 1978م .

28- محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري ، المستدرك على الصحيحين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1411هـ – 1990م ، تح: مصطفى عبد القادر عطا .

29- ابن حزم الأندلسي أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد القرطبي الظاهري (456هـ)، رسائل ابن حزم الأندلسي ، تح: إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت/لبنان، ط1، 1980م.

30- الحُصري ، إبراهيم بن علي بن تميم الأنصاري، أبو إسحاق القيرواني (453هـ)، زهر الآداب وثمر الألباب، دار الجيل، بيروت.

31- حسين بكار، بناء القصيدة في النقد العربي القديم ، دار الأندلس، بيروت/لبنان ، ط2، 1983م .

32- الخطيب البغدادي، التطفيل و حكايات الطفيليين و أخبارهم و نوادر كلامهم وأشعارهم ، دار ابن حزم ، بيروت ، لبنان.

33- ابن خلكان البرمكي، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر الإربلي (681هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان،تح: إحسان عباس، دار صادر/بيروت، 323/6 .

34- ابن دحية الكلبي أبو الخطاب عمر بن حسن الأندلسي (633هـ)، المطرب من أشعار أهل المغرب، تح:إبراهيم الأبياري، حامد عبد المجيد، أحمد أحمد بدوي، دار العلم للجميع للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت/ لبنان، : 1374 هـ - 1955 م .

35- أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (275هـ)، سنن أبي داود ، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا/بيروت.

36- الدواداري، أبو بكر بن عبد الله بن أيبك ، كنز الدرر وجامع الغرر ، مطبعة ،عيسى البابي الحلبي.

37- الدينوري ، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (276هـ)،الشعر والشعراء، دار الحديث، القاهرة، 1423 هـ .

38- الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز (748هـ):

=تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تح: عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط02، 1413 هـ - 1993 ، و طبعة دار الغرب الإسلامي، تح بشار عوّاد معروف ، ط1، 2003 م .

= سير أعلام النبلاء ، تح: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط3 ، 1405 هـ / 1985م.

39- ابن رشيق القيرواني، أبو على الحسن الأزدي (463 هـ):

= العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط5، 1401 هـ - 1981 م .

= قراضة الذهب في نقد أشعار العرب ، تح : منيف موسى ، دار الفكر اللبناني ، بيروت .

40- الرقيق القيرواني أبو إسحاق إبراهيم ابن القاسم:

=تاريخ إفريقية و المغرب ، تح: المنجي الكعبي ، الدار العربية للكتاب ، ط2 ، تونس ، 2005.

= قطب السرور في أوصاف الأنبذة و الخمور ، منشورات الجمل ، ألمانيا ، ط 1، 2010م.

41- الزمخشري ، محمود جار الله (583هـ)، ربيع الأبرار ونصوص الأخيار، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط1، 1412 هـ .

42- الزركلي خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الدمشقي، الأعلام، دار العلم للملايين، ط15، 2002 م.

43- القاضي عياض ، ترتيب المارك و تقريب المسالك ، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية ، المملكة المغربية ، 1983م.

44- ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد بن محمد، أبو زيد، ولي الدين (808هـ)، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تح: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط2، 1408 هـ - 1988 .

45- الرياضي، برية ابن أبي اليسر :

= تلقيح العقول، منشورات الجمل ، ألمانيا ، 2003 .

= الرسالة العذراء

46- رزق الله بن يوسف بن عبد المسيح بن يعقوب شيخو، مجاني الأدب في حدائق العرب ، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت.

47- زفيتان تودوروف ، مفهوم الأدب و دراسات أخرى ، تر:عبود كاسوحة ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ، 2002م .

48- محمد بن يوسف السرقسطي، المقامات اللزومية ، عالم الكتب الحديث ، الأردن ، 2006م .

49- ابن السراج ، الأصول في النحو ، تح: عبد الحسين الفتلي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت، ط1، 1985 .

50- سعيد سليم، التناص التراثي، الرواية الجزائرية نموذجا، عالم الكتاب الحديث، اربد/الأردن، ط1، 2010م.

51- ابن سعيد المغربي الأندلسي، أبو الحسن على بن موسى (685هـ):

= نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، تح: الدكتور نصرت عبد الرحمن، مكتبة الأقصى، عمان/ الأردن .

= المرقصات و المطربات ، دار حمد و محيو ، 1973م .

= المغرب في حلى المغرب، تح: شوقي ضيف، دار المعارف/ القاهرة، ط3، 1955 .

52- السلاوي، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن خالد بن محمد الناصري الدرعي الجعفري (1315هـ)، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تح: جعفر الناصري/ محمد الناصري، دار الكتاب / الدار البيضاء.

53- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين (911هـ):

= بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، لبنان/صيدا .

= حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، مصر، ط1، 1387 هـ - 1967 م.

54- سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر (180هـ) ، الكتاب ، تح: عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1408 هـ - 1988 م .

55- السيرافي ، أبو سعيد الحسن بن عبد الله ، ضرورة الشعر ، تح: رمضان عبد التواب ، دار النهضة العربية للطباعة و النشر ، بيروت ، ط1، 1985 .

56- شوقي ضيف :

= أدب الإمارات ليبيا تونس صقلية ،دار المعارف ، القاهرة.

= تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، دار المعارف .

= النقد ، دار المعارف ،القاهرة ، ط5 .

57- الشاذلي بو يحي ، الحياة الأدبية بإفريقية في عهد بني زيري .

58- الشريف علاونه ، النقد الأدبي في الأندلس –عصر المرابطين و الموحدين-، وزارة الثقافة ، الأردن ، 2005م.

59- الصفدي صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله (764هـ):

=الوافي بالوفيات ،تح: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث – بيروت ، 1420هـ- 2000م

=نكث الهميان في نكت العميان، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط1، 1428 هـ - 2007 م.

60- الصولي أبو بكر محمد بن يحى (335هـ) :

= أدب الكتّاب، : المطبعة السلفية - مصر، 1431هـ.

= أخبار أبي تمام ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت/لبنان ، ط3، 1980م .

61- ابن طباطبا محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم ، الحسني العلوي، أبو الحسن (322هـ)، عيار الشعر، تح: عبد العزيز بن ناصر المانع ، مكتبة الخانجي – القاهرة.

62- أبو العرب ، محمد بن أحمد بن تميم التميمي المغربي الإفريقي، (333هـ)طبقات علماء إفريقية، وكتاب طبقات علماء تونس، دار الكتاب اللبناني، بيروت – لبنان .

63- أبو العرب، محمد بن أحمد بن تميم التميمي المغربي الإفريقي، (333هـ)، المحن ، تح: عمر سليمان العقيلي، دار العلوم، الرياض/السعودية، ط1، 1404هـ - 1984م.

64- العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر (852هـ)، الإمتاع بالأربعين المتباينة السماع / ويليه أسئلة من خط الشيخ العسقلاني ، تح: أبو عبد الله محمد حسن محمد حسن إسماعيل الشافعي ، دار الكتب العلمية - بيروت – لبنان .

65- ابن فرحون إبراهيم بن علي بن محمد ، برهان الدين اليعمري (799هـ)، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تح: الدكتور محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث للطبع والنشر، القاهرة .

66- الفيروزآبادى، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب (817هـ)، البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1421هـ- 2000م

67- القاضي عياض ، ترتيب المارك و تقريب المسالك ، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية ، المملكة المغربية ، 1983م .

68- قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي، أبو الفرج (337هـ)، نقد الشعر، مطبعة الجوائب ، ط1، 1302 .

69- محمد بن أبي الخطاب القرشي (170هـ)، جمهرة أشعار العرب ، تح: علي محمد البجادي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع .

70- القرطاجني حازم ، منهاج البلغاء و سراج الأدباء ، تح: محمد الحبيب ابن الخوجة ، دار الغرب الإسلامي ، الدار العربية للكتاب ، تونس 2008م .

71- القزاز، محمد أبو جعفر :

= الحلى و الشيات ، مكتبة عنوان النجاح ، تونس ، 1922 .

= ما يجوز للشاعر في الضرورة ، دار العروبة ، الكويت .

= العشرات ......

72- القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف (646هـ):

= إنباه الرواة على أنباه النحاة ، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ومؤسسة الكتب الثقافية – بيروت ط1، 1406 هـ - 1982م.

= المحمدون من الشعراء وأشعارهم، تح: حسن معمري ، دار اليمامة ، 1390 هـ - 1970م .

73- القيسي ،الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان ابن عبد الله ، أبو نصر (528هـ)، مطمع الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، تح: محمد علي شوابكة، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط1، 1983م .

74- عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامي المكي، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي ، تح: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض ، دار الكتب العلمية/بيروت ، ط1، 1419 هـ - 1998 م.

75- ابن عبد ربه الأندلسي ، أبو عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه ابن حبيب ابن حدير بن سالم (328هـ)، العقد الفريد، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1، 1404 هـ .

76- عبد الله العروي / تاسيس الغرب الإسلامي، دار الطليعة ، بيروت ، ط1، 2004م .

77- القالي أبو علي ، إسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون بن عيسى بن محمد بن سلمان (356هـ)، الأمالي، دار الكتب المصرية، ط2، 1344 هـ - 1926م .

78- الطبري ، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر (310هـ)، تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري) ، دار التراث، بيروت، ط2 - 1387هـ.

79- عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن درهم ، نزهة الأبصار بطرائف الأخبار والأشعار ، دار العباد – بيروت .

80- عبد الله خضر حمد، المذاهب الأدبية ، دراسة و تحليل ، دار القلم ، بيروت .

81- عبد العزيز قلقيله ، النقد الأدبي القديم في المغرب العربي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط2، 1988م .

82- عبد العزيز جسوس ، نقد الشعر في الطور الشفوي ، مطبعة تينمل ، مراكش ، المغرب ، 1995م .

83- عبد العزيز قلقيله ، النقد الأدبي القديم في المغرب العربي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط2، 1988م .

84- عبد الواحد ذنون طه ، الفتح و الاستقرار العربي الإسلامي في شمال إفريقيا والأندلس، دار المدار الإسلامي ، ط1، 2004م .

85- عبد الفتاح كيليطو ، الكتابة و التناسخ ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء – المغرب- ط1، 1985م ، تر: عبد السلام بنعبد العالي .

86- عبد المجيد بن حمده ، المدارس الكلامية بافريقية إلى ظهور الأشعرية ، تونس ، دار العرب ، 1986م .

87- العسكري، أبو هلال (395هـ)، الصناعتين ، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية – بيروت، 1419 هـ .

88- مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني (179هـ)، المدونة ، دار الكتب العلمية، ط1، 1994م .

89- المبرد ، محمد بن يزيد ، أبو العباس (285هـ):

= الكامل في اللغة والأدب، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي – القاهرة، ط3، 1417 هـ - 1997 م .

= المقتضب ، تح: محمد عبد الخالق عظيمة ، عالم الكتب ، بيروت .

90- مجدي وهبة ، كامل المهندس ، معجم المصطلحات العربية في اللغة و الأدب ، ط2 مكتبة لبنان ، بيروت 1984م .

91- الكلاعي، محمد بن عبد الغفور (ذو الوزارتين)، إحكام صنعة الكلام ، دار الثقافة ، بيروت لبنان ، 1966م .

92- محمد الطالبي ، الصراع اللاهوتي فيي القيروان أيام الأغالبة ، منشورات سوتيميديا، ط1، تونس 2017. .

93- محمد مرتاض ، النقد الأدبي القديم في المغرب العربي ، إتحاد كنات العرب ، دمشق .

94- محمد غنيني هلال ، النقد الأدبي الحديث نهضة مصر للطباعة ، القاهرة ، 2001م .

95- محمد مندور :

= النقد المنهجي عند العرب ، نهضة مصر للطباعة .

96- محمد سويرتي، المنهج النقدي ، مفهومه و أبعاده و قضاياه ، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2015م.

97- محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين ، دار الغرب الإسلامي، بيروت/لبنان، ط1، 1994م.

98- المصري ، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم (257هـ)، فتوح مصر والمغرب، مكتبة الثقافة الدينية،1415 هـ .

99- المراكشي ، ابن عذارى أبو عبد الله محمد بن محمد (695هـ)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح: ج. س. كولان، إ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت – لبنان، ط3، 1983م .

100- المرزوقي الأصفهاني، أبو على أحمد بن محمد بن الحسن (421 هـ)، شرح ديوان الحماسة، تح: غريد الشيخ ، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط1، 1424 هـ - 2003 م، ص 783 ، شرح ديوان الحماسة .

101- أبو عبيد الله المرزباني ، الموشح (مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر) تح: محمد علي البجاوي ، دار نهضة مصر ، القاهرة،1965م .

- المقريزي، أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين (845هـ)، اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ، تح:جمال الدين الشيال، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية / لجنة إحياء التراث الإسلامي ، ط،1.

- المقري التلمساني، شهاب الدين أحمد بن محمد (1041هـ)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تح: إحسان عباس، دار صادر- بيروت – لبنان

102- الميلي، مبارك بن محمد الجزائري، تاريخ الجزائر في القديم والحديث (1364هـ)، المؤسسة الوطنيّة للكتاب بالجزائر، 1406هـ - 1986م.

103- مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري ، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (261هـ) ، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي/ بيروت، .

104- ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجة اسم أبيه يزيد (273هـ)، سنن ابن ماجه، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية .

105- ابن النديم محمد بن إسحاق أبو الفرج ، الفهرست ، مطبعة دانشكاه ، طهران/إيران .

106- نجوى صابر، النقد الأخلاقي ، أصوله و تطبيقاته ، دار العلوم العربية ، بيروت ، لبنان ، ط1، 1990م .

107- النهشلي عبد الكريم: الممتع في صنعة الشعر ، منشأة المعارف ، الإسكندرية / اختيار الممتع، الدار العربية للكتاب ، ليبيا ، تونس 1978م .

108- ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله (626هـ)، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب (معجم الأدباء)، تح: إحسان عباس ، دار الغرب الإسلامي، بيروت ، ط1، 1414 هـ - 1993 م .

109- الموجز في تاريخ الجزائر ، ديوان المطبوعات الجامعية ، ط2، 1995 .

110- هوراس ، فن الشعر ، تر: لويس عوض ، مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر القاهرة ، 1947م .

_ المجلات و الدوريات :

111- مجلة جامعة تشرين للبحوث و الدراسات ، العدد:06 ، 2014 .

112- مجلة مقاليد ، مخبر النقد و مصطلحاته ، جامعة ورقلة ، العدد 03، ديسمبر 2012م.

113- مجلة الفضاء المغاربي ، مخبر الدرسات الأدبية و النقدية و أعلامها في المغرب العربي ، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان ، العدد02، أفريل 2004م/ صفر 1425هـ .

المذكرات و الرسائل الجامعية :

114- الحسين الأقرع ، مفهوم الشعر عند القزاز ، رسالة ماجستير ، جامعة ورقلة الجزائر .

115- رشيدة كلاع، النقد المغربي القديم في ضوء نظرية النص ، من خلال كتابي العمدة و منهاج البلغاء، رسالة دكتوراه ، جامعة قسنطينة 1 ، 2014 .

116- مغراوي فطمة، ألسنة النص الشعري في النقد المغاربي القديم، جامعة وهران ،2012 .

117- عبد المالك مغشيش ، النثر المغربي في القرنين الرابع و الخامس ، رسالة دكتوراه ، جامعة باتنة 2015 .

118- سعاد ترشاق، النقد المغربي القديم بين التنظير و التطبيق، رسالة دكتوراه ، جامعة الإخوة منتوري قسنطينة ، 2015 .

119- الشيخ بوقربة ، المنهج النقدي عند ابن رشيق القيرواني ، رسالة ماجستير، جامعة دمشق ، 1988 .

120- **المصادر و المراجع الأجنبية :**

121- Cowell, Dustin.Onbirinci yüzyıl Kuzey Afrika şiir eleştirmeni İbn Reşîk el-Kayravânî’nin Perspektifinden Arap Edebiyat Teorisinde Belâğat kavramı, trans: Abdurrahman Özdemir, Gazi Üniversitesi Çorum İlahiyat Fakültesi Dergisi, 2004/2 .

122- Roman Jakobson. Essais de linguistique générale:les fondations du langage. Edition de Minuit. Paris. 1963.

فهرس الموضوعات

إهداء	**03**
شكر و تقدير	04
شكر خاص	05
مقدمة	06
تمهيد: الحياة السياسية و الثقافية و الفكرية بالمغرب العربي من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الرابع الهجري	13
المبحث الأول: الحياة السياسية	15
المبحث الثاني: الحياة الثقافية و الفكرية	21
أولا: علوم الدين النقلية	22
ثانيا: علوم الدين العقلية	22
ثالثا: المكتبات و دور العلم	23
رابعا: الطب و الفلسفة	25
خامسا: علوم اللغة	26
سادسا : النثر	28
سابعا: الشعر	30
الفصل الأول: مفهوم الأدب في المغرب العربي ما بين الفتح ونهاية القرن الرابع الهجري	46
المبحث الأول: مفهوم الأدب	48
المبحث الثاني: مفهوم النثر	61
أسلوب القرآن و أسلوب الكتابة	63
الاتصال و الإضمار	64
مخاطبة الخاص بالعام	65
معايير الكتابة	65
محاكاة أساليب القرآن	65

التحكم في الأساليب	65
ترك الإعجام والشكل	68
أسباب الكتابة و دوافع الإبداع الأدبي	68
الأول: الزّمن المناسب	70
الثاني: الحالة النفسية المناسبة	71
المبحث الثالث : مفهوم الشعر	73
وظيفة الشعر	84
الموقف من الشعر	84
المبحث الرابع : بين الشعر و النثر	91
الاتجاه الأول: الرؤية اللغوية الأسلوبية	93
الإتجاه الثاني : الرؤية الجمالية	95
أقسام الشعر و أقسام النثر	96
الفصل الثاني: قضايا النقد في المغرب ما بين الفتح ونهاية القرن الرابع الهجري	102
المبحث الأول : لغة الأدب	104
المطلب الأول :اللفظ و المعنى	104
المطلب الثاني: الطبع و الصنعة	116
التكلّف و التعقيد	120
عدم الانسجام	121
المطلب الثالث : الضرورة الشعرية	126
المطلب الرابع :السرقات الأدبية	130
المطلب الخامس: القديم و الحديث	146
المبحث الثاني : الانتخاب الأدبي	157
المبحث الثالث : التأثير النفسي للشعر	163
المبحث الرابع: أثر البيئة في الأدب	167
المبحث الخامس : فلسفة الطبقات	172

أولا: طبقات المخاطِبين	177
ثانيا: طبقات المخاطبين (المتلقين)	178
طبقة الخلفاء و السلاطين	179
طبقة الوزراء و الكتاب	179
طبقة الأمراء و العسكريين	179
طبقة القضاة	179
طبقة الملوك	180
طبقة العلماء	180
طبقة النبلاء و الأدباء	180
ثالثا: طبقات الخطاب	181
الفصل الثالث : اتجاهات النقد الأدبي في المغرب العربي ما بين الفتح الإسلامي ونهاية القرن الرابع الهجري .	184
مدخل	185
المبحث الأول : أهمية النقد و الانتقاد	189
المبحث الثاني: مقومات النقد الأدبي في الغرب الإسلامي	192
المطلب الأول : علم الكلام و المتكلمين و مجالس المناظرة	192
المطلب الثاني: الرحلة و الرحلات	195
المبحث الثالث: اتجاهات النقد الأدبي في الغرب الإسلامي	196
المطلب الأول: النقد المنهجي (النظري)	197
المطلب الثاني: النقد اللغوي	205
المطلب الثالث: النقد الأخلاقي (الديني)	209
المطلب الرابع: النقد الذوقي	221
المطلب الخامس: النقد الشكلي	226
خاتمة	232
الفهارس	237

فهرس الآيات القرآنية	238
فهرس الأحاديث و الآثار	238
فهرس الأشعار	239
المصادر و المراجع	245
فهرس الموضوعات	258
ملاحق	262

ملاحق

الملحق رقم:01

تراجم أهم أعلام البحث :

01:أبو العرب التميمي (ما بين 250 – 260 – 333 هـ) : محمد بن أحمد بن تميم بن تمام التميمي القيرواني أبو العرب، المحدث الفقيه المؤرخ الأديب، كان جده تمام بن تميم أمير مدينة تونس، وهو الذي ثار على محمد بن مقاتل العكي بالقيروان سنة 183هـ وكان أبوه أحمد ممن سمع من شجرة بن عيسى، وسليمان بن عمران، وغيرهما، وأسرته عريقة في تقاليد الامارة حديث العهد بتقاليد العلم، وهي لا تريد أن تضحي بهذه في سبيل تلك، وقد صور لنا أبو العرب بدايته في طلب العلم، وما لاقاه من عنت في سبيل المحافظة على التقليدين تصويرا طريفا فيه بيان لزي طلبة العلم وزي أبناء الأمراء قال «أتيت يوما وأنا حدث دار محمد بن يحي بن سلاّم فرأيت عنده الطلبة، ورأيت أمرا أعجبني وركنت إليه نفسي فعاودت الموضع، وكنت آتي إليه والطرطور على رأسي، ونعلي أحمر في رجلي في زي أبناء السلاطين، وكان الطلبة ينقبضون مني من أجل ذلك الزي، فقال لي رجل يوما بجواري: لا تتزيّ بهذا الزي فليس هو زي طلبة العلم وأهله فرجعت إلى أمي فقلت: نلبس الرداء وثيابا تشاكل أهل العلم والتجار فأبت علي وقالت: إنما تكون مثل آبائك وأعمامك، فاحتلت حتى اشتريت ثيابا وجعلتها عند صباغ في باب أبي الربيع فكنت إذا أتيت من القصر القديم أتيت بذلك الزي الذي تحبه أمي ووالدي، فإذا وصلت إلى باب أبي الربيع ودخلت حانوت الصباغ خلعتها ولبست الثياب الأخرى، فكنت كلما ترددت فعلت ذلك، ثم قال لي رجل من أصحابي: أراك تأتي في هذا المجلس فتسمع فيه العلم ولا تكتب شيئا مما تسمع يكون عندك ما هذا حقيقة طلب العلم، فقلت له، والدي راغب عن هذا وعن المعونة عليه وما مكنني من شيء اشتري به الرق، فقال لي: أنا أعطيك جلدا تكتب لنفسك وتكتب لي جلدا

عوضا عنه، فرضيت له بذلك فكنت أكتب لنفسي ما شئت، واكتب له في جلوده ما يحب حتى يسرّ الله عزّ وجل ما اشتريت به الرق وما قويت به على طلب العلم»، سمع أبو العرب من جماعة من أصحاب سحنون واكثر علماء القيروان كأبي داود العطار، وعيسى ومحمد ابني مسكين، وابن طالب، وعبد الجبار بن خالد، وغيرهم، قال أبو عبد الله الخراط: كان صالحا ثقة عالما بالسنن والرجال من أبصر أهل وقته بها، كثير الكتب، حسن التقييد، كريم النفس والخلق، كتب بخطه كثيرا في الحديث والفقه، ويقال إنه كتب بخطه ثلاثة آلاف كتاب وخمسمائة وشيوخه تنيف على العشرين ومائة شيخ، وقال ابن أبي دليم: كان حافظا للمذهب معتنيا به وغلب عليه الحديث والرجال وتصنيف الكتب والرواية والأسماع، وقال تلميذه محمد بن حارث الخشني: يغلب عليه الرواية والجمع، ولم أحس عنده علما ولا فقها. أما غلبة الرواية والجمع فقد مر ما يؤيده، أما تجريده من العلم والفقه فقد مر ما يناقضه، ولا ندري ما هو الباعث للخشني على التحامل على شيخه، ومن ترك مؤلفات متعددة لا يوصف بأنه غير عالم ولا فقيه. سمع عليه خلق كثير منهم ابناه أبو العباس تمام، وأبو جعفر تميم، والحسن بن سعيد، وابن أبي يزيد، والشذوني، وغيرهم، وهو من الذين آذتهم الدولة العبيدية كدأبها مع علماء المالكية فحبس وقيد مع ابنه مرة بسبب بني الأغلب، وهو أحد العلماء الذين خرجوا لقتال بني عبيد مع أبي يزيد الخارجي، وعند حصارهم للمهدية سمع عليه كتابي الإمامة لمحمد بن سحنون، وكان يقول: «سماع هذين الكتابين عليّ أفضل من كل ما كتبت».توفي في السجن، من مؤلفاته: كتاب التاريخ 17 جزءا، كتاب الجنائز وذكر الموت وعذاب القبر، 3) كتاب الصلاة، كتاب ثقات المحدثين، كتاب ضعاف المحدثين، كتاب طبقات أهل البصرة، كتاب طبقات علماء أفريقية، وتونس حققه محمد بن أبي الشنب طبع بالجزائر سنة 1914، وأعيد نشره بتحقيق علي الشابي ونعيم اليافي وطبع بتونس سنة 1968 وقد وصل إلينا الكتاب مختصرا عن طريق الطلمنكي، كتاب عباد أفريقية، كتاب عوالي حديثة، كتاب فضائل مالك، كتاب في موت العلماء جزءان، كتاب المحن حققه يحيى وهيب الجبوري، كتاب مناقب بني تميم، كتاب مناقب سحنون بن سعيد وسيرته وأدبه، كتاب سند حديث مالك، كتاب

الوضوء والطهارة، لم يذكر المترجمون له كامل اسماء مؤلفاته فالقاضي عياض في «ترتيب المدارك» قال بعد سرد أسماء كتبه «وغير ذلك» وأغلب هذه الكتب أبواب . انظر ترجمته عند: محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، 359/3 .

02 الخشني (371 هـ): محمد بن حارث بن أسعد الخشني القيرواني، أبو عبد الله، المحدّث، الفقيه الأديب المؤرخ، الكيمياوي، نزيل الأندلس، تفقه بالقيروان على أحمد بن نصر، وأحمد بن زياد الهواري، وأبي بكر بن اللبّاد، والممّسي، وغيرهم، قدم الأندلس حدثا سنة 311، وسنه 12 سنة على ما قيل، وهذا محل نظر بل الغالب على الظن أنه عند ما انتقل إلى الأندلس لا تقل سنه عن العشرين لأن تراجمه للعلماء الافارقة تدل على معرفة ونقد، ويستبعد من صبي عمره اثنتا عشرة سنة أن يكون عارفا بأحوال المترجمين، وله ملكة نقدية، سمع بالأندلس من أحمد بن زياد، وأحمد بن عبادة، والحسن بن سعد، وقاسم بن أصبغ، ومحمد بن عبد الملك بن أيمن، ومحمد بن يحيى بن لبابة، وغيرهم من القرطبيين، من تآليفه: كتاب الاتفاق والاختلاف في مذهب مالك، توجد منه قطعة صغيرة الحجم ذات 16 ست عشرة ورقة، مكتوبة على الرق بالمكتبة الوطنية بتونس ، كتاب أصول الفتيا، كتاب الاقتباس، تاريخ الافريقيين، تاريخ علماء الأندلس. انظر ترجمته عند: محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، 205/2 .

03: ابن الجزار (369) : أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد الجزار القيرواني، الطبيب ابن الطبيب، الواسع الثقافة، المشارك في الأدب والتاريخ والجغرافيا والفلسفة، وكان عمه أبو بكر طبيبا ممن لقي إسحاق بن سليمان الإسرائيلي، وصحبه وأخذ عنه، وكان لابن الجزار يد في سائر العلوم، مستقيم السلوك لم تحفظ عليه زلة قط، ولا أخلد إلى لذة، يشهد الجنائز والأعراس، ولا يأكل فيها، ولم يركب إلى أحد من رجال القيروان ولا إلى سلطانها إلا لأبي طالب بن عبيد الله المهدي، وكان له صديقا قديما يركب إليه كل جمعة لا غير، ويرحل كل عام إلى المنستير لقضاء الصائفة بها وقد جعل غلامه رشيقا في سقيفة داره، وأعد بين يديه جميع المعاجين والأشربة والأدوية، فإذا رأى القوارير (أي قوارير بول المرضى) بالغداة أمر المرضى بالجواز إلى الغلام، وأخذ الأدوية منه نزاهة لنفسه أن يأخذ من أحد شيئا. قال ياقوت الحموي: «وكان له معروف كثير، وأدوية يفرقها على الفقراء»، وكان يملك مكتبة

نفيسة مشتملة على كتب الطب وغيرها، قال ابن جلجل: «ولما مات وجد له أربعة وعشرون ألف دينار وخمسة وعشرون قنطارا من كتب طبية وغيرها» قال كشاجم يمدحه ويصف كتابه «زاد المسافر» (البحر الطويل):

أبا جعفر أبقيت حيا وميتا ...مفاخر في ظهر الزمان عظاما

رأيت على «زاد المسافر» عندنا ...من الناظرين العارفين زحاما

فأيقنت أنه لو كان حيا لوقته ...يحنّا لما سمى التمام تماما

سأحمد افعالا لأحمد لم تزل ...مواقعها عند الكرام كراما

مؤلفاته: أخبار الدولة، وهو في ظهور دولة العبيديين بالقيروان، وابتداء حكم عبيد الله المهدي، نقل منه ابن أبي أصيبعة فقرة في ترجمة إسحاق بن سليمان الإسرائيلي، ونقل منه المقريزي في «اتعاظ الحنفاء» وهو من مؤلفاته المفقودة، أبدال الأدوية، رسالة، اسباب الوفاة، مفقود، الاعتماد في الأدوية المفردة، ألفه للقائم بأمر الله ثاني الملوك العبيديين وهو يشتمل على أربع مقالات، توجد منه نسخة في آيا صوفيا باستانبول ، ونسخة وبالاسكوريال ، التعريف بصحيح التاريخ، وهو يشتمل على وفيات علماء زمانه وقطعة جميلة من أخبارهم، رتبه على نظام الحوليات، قال ياقوت الحموي: «رأيته في مجلدات تزيد على العشر» وفي «عيون الأنباء» وغيره أنه تاريخ مختصر وقد نقل عنه كثير من المؤلفين كالدباغ في «معالم الإيمان»، والقاضي عياض في «ترتيب المدارك»، وابن فرحون في «الديباج» وغيرهم، وهو من كتبه المفقودة ، و أغلب كتبه في الطب . انظر ترجمته عند: محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، 18/2 .

04 الرقيق (حوالي 425 هـ): إبراهيم بن القاسم المعروف بالرقيق القيرواني، أبو إسحاق، الكاتب الأديب الشاعر المؤرخ، ولد بالقيروان ومات بها وتاريخ ميلاده ووفاته غير معروفين، كما أن تفاصيل حياته غير معروفة بدقة، تولى الكتابة الخاصة لثلاثة أمراء صنهاجيين زيريين: المنصور (374-386) وباديس (386 - 406)، والمعز (بداية من 406)، ذكر ابن رشيق في «أنموذج الزمان» وهو مصدر أولي لتعيين وتحديد زمن وظائفه وكذلك اشارة نفس المؤلف إلى مهمة الرقيق في القاهرة في 388/ 998، وعبارة ابن خلدون في رفوف سنة 417هـ عن خبر الرقيق عن تاريخ بني خزرون بطرابلس، استخدمتها الدراسات الحديثة في محاولات غير منزهة من الضعف لتعيين بعض نقط الاستدلال في حياة الرقيق التي بقيت مع ذلك غير تامة المعرفة وقليلة الوضوح،

قال ابن رشيق من جملة كلام له عن الرقيق: «وكاتب الحضرة منذ نيّف وعشرين سنة إلى الآن». وذكر المؤرخ المرحوم ح. ح. عبد الوهاب أن كلمة «الآن» الواردة في كلام ابن رشيق تعني حدود عام

425 هـ وهو الوقت الذي ألف فيه ابن رشيق كتاب «الأنموذج» ومما سبق يتضح أن وفاة الرقيق كانت حوالي سنة 425 هـ أو بعدها بقليل، وهذا غاية ما يمكننا ترجيحه ، ويرى أنه ولد بالقيروان في منتصف القرن الرابع للهجرة حوالي الوقت الذي انتقل فيه الفاطميون من افريقية إلى مصر (362) عقب تأسيس القاهرة المعزيّة، ووظائف كاتب الأمير أسندت له القيام بمهمات تشريفاتية أكثر منها ديبلوماسية، وسافر مع مخدوميه في حروبهم مع قبائل المغرب الأوسط أو بني عمهم الحمّاديين أمراء القلعة، أرسله باديس بن المنصور سنة 386هـ ثم في سنة 388هـ إلى القاهرة لتهنئة الحاكم بأمر الله الفاطمي، مع هدية لتقديمها له، وأنشد الحاكم قصيدة طالعها:

إذا ما ابن شهر قد لبسنا شبابه ...بدا آخر من جانب الأفق يطلع

وهي طويلة ثم عاد إلى وطنه.

وخدمته للأمراء الثلاثة جعلته نديما لهم ومقدرين فيه آداب السلوك وميله إلى حياة السرور، ولثقافته وصفات الأديب الماهر، سمي الكاتب النديم، وابن رشيق يثني على شعره مع قلته، ويرى أنه غلب عليه اسم الكتابة وعلم التاريخ، فقد قال عنه في الأنموذج: "هو شاعر، سهل الكلام محكمه، لطيف الطبع قويه، تلوح الكتابة على ألفاظه قليل صنعة الشعر، غلب عليه اسم الكتابة وعلم التاريخ وتأليف الأخبار، وهو بذلك أحذق الناس"، وقال ابن خلدون في أوائل «المقدمة» مثنيا على موهبته التاريخية ومهارته فيها: "ابن الرقيق مؤرخ افريقية والدول التي كانت بالقيروان، ولم يأت من بعده إلا مقلد"، وكان يعيش عيشة الأدباء من معاقرة الخمر مع أصحابه، وله شعر أجاب به عن أبيات كتبها إليه عمار بن جميل وقد انقطع عن مجالس الشراب، ولذلك تحامى الفقهاء رواياته الشاذة التي ينفرد بها والتي يحوم الشك حول صحتها ، ولعل ولوعه بإيراد الحكايات سعيا وراء تخفيف جفاف السرد الأخباري جعله لا يتحرى، ولا يستخدم النقد في غربلة ما ينقله، قال بروكلمان في «ملحقه»: «وذكر دوسلان أن للرقيق كتابا في تاريخ البربر تحدث عنه في «المجلة الآسيوية» الفرنسية ، وقد ألف تاريخا لافريقيا الشمالية (تاريخ افريقية والمغرب في عدة مجلدات) وتاريخ انساب البربر، وديوانا شعريا توجد منه نسخة بمكتبة باريس، وذكره الرحالة الاسباني مرمول (ابن الرقيق) وهو الذي ذكره محمد الوزاني (ليون الافريقي) في رحلته أيضا، وفي خلال القرن السابع عشر أي عند ما مرّ مرمول (Marmol) بتونس كانت لا تزال توجد عدة نسخ من تاريخ ابن الرقيق بتونس. ثم إن دوسلان تحدث بعد ذلك عن المؤرخين الذين اعتمدهم النويري في الجزء من كتابه «نهاية الأرب» عند ما تعرض لتاريخ افريقية فقال: "هؤلاء هم المؤرخون الذين اعتمدهم النويري في الجزء من كتابه «نهاية الأرب» ولكنه اعتمد بالخصوص على تاريخ إبراهيم الرقيق وابن شدّاد وهذان المؤرخان هما اللذان

أمداه بالقصص الطويلة المتعلقة بأمراء العرب الذين حكموا افريقية وخصوصا ملوك الأغالبة وأمراء بني زيري الصنهاجيين. وهذه القصص المطولة هي التي أكسبت تاريخ افريقية كل هذه الأهمية. ومع ذلك فإن ابن خلدون لا يمنح الرقيق دائما ثقته التامة، بل لقد رفض روايته في كثير من المواطن، وإني أميل إلى الاعتقاد بأن قصة بنت البطريق جرجير مع عبد الله بن الزبير في أول فتح عربي للديار الافريقية إنما هي من وضع إبراهيم الرقيق «انتهى ما كتبه البارون دوسلان في «المجلة الآسيوية» عن الرقيق»، ويرى كراشكوفسكي في «تاريخ الأدب الجغرافي العربي» أن فيما يتعلق بنقل الوزان (ليون الافريقي) عنه فإنه قلما يشير إلى مصادره، وهو حين يفعل ذلك يوردها من الذاكرة ... ومن الجلي أن معرفته بالمؤلفين المغاربة كانت أقرب، وهو أمر طبيعي، وأكثر نقوله عن ابن الرقيق، وإليه يدين ليون الافريقي بتصنيفه الأصل للقبائل العربية والبربرية وبقدر كبير من المعطيات المختلفة بل الاطار العام لمصنفه وذلك من الناحيتين التاريخية والاثنوغرافية.

من مؤلفاته: الأغاني، نحا فيه منحى أبي الفرج الاصبهاني، مجلد ضخم، الاختصار البارع للتاريخ الجامع، عدة مجلدات، ولعله اختصار لتاريخه الكبير عن افريقية والمغرب، أخبار بني زيري الصنهاجيين، يشمل أخبار الأمراء الثلاثة الأول منهم وهم: زيري بن مناد وابنه أبو الفتوح يوسف، وابنه المنصور، وقد أشار إليه عند الكلام عن دولة المنصور (من سنة 374 الى 386) حيث قال: «وقد ذكرت سيرته وحروبه وعطاياه في كتاب مفرد لأخبار جده وأبيه وأخباره» وهو مفقود. ولعله استخرجه من كتابه الكبير، كتاب انساب البربر، مفقود، تاريخ افريقية والمغرب، في عشر مجلدات ابتدأ فيه بأخبار الفتح العربي إلى نهاية سنة 417 ولعله هو الذي سماه ابن الفوطي في «تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب «بالمغرب في أخبار المغرب» وهو تاريخه الكبير المفقود، وهو الذي وصله ابن شرف ثم ابنه جعفر بن شرف، وأبو الصلت أمية بن أبي الصلت الداني نزيل المهدية (ت سنة 537)، والكتاب وذيوله نقل عنهما من أتى بعدهما من المؤرخين كابن عذاري، والتجاني في رحلته، والوزير السراج في الحلل السندسية، وغيرهم، وذيول الكتاب مفقودة أيضا. فتوح افريقية، ذكره الأبي في شرحه على مسلم ولعله منتزع من تاريخه الكبير، ديوان شعر، منه نسخة في مكتبة باريس، **قطب السرور في وصف الأنبذة والخمور**، في جزءين، وهو الكتاب الذي وصل إلينا كاملا من مؤلفاته. يوجد الجزء الأول منه مخطوطا في باريس، والثاني في الاسكوريال وكاملا في برلين وقد نشر الأستاذ أحمد الجندي القسم الأخير منه، وهو يظن أنه الكتاب كله، من منشورات مجمع اللغة العربية بدمشق سنة 1969 واختصره في جزء نور الدين علي المسعودي، حققه الأستاذ عبد الحفيظ منصور (تونس 1976) قال المؤلف في مقدمة الكتاب: «وأودعته من أمثال الحكماء ومنثور البلغاء، ومنظوم

الشعراء، وأخبار الأدباء والظرفاء ما لا يستغني عنه شريف، ولا يجوز أن يخلو منه ظريف وليس في الأمور التي وقع فيها الحظر والاطلاق شيء اختلف الناس فيه اختلافهم في الأشربة، وما يحل منها وما يحرم، على قدم الأيام ومع قرب العهد بالرسول عليه السلام وخيار الصحابة وكثرة العلماء الذين يؤخذ عنهم ويقتدى بهم ... وإن شيئا وقع فيه الاختلاف في ذلك العصر بين أولئك الأئمة لحري أن يشكل على من بعدهم، وتختلف فيه آراؤهم ويكثر تنازعهم»، إلى أن يقول: «وجمعت لك في الخمرة رأي العرب وشعرائها، وشيئا من علم الفلاسفة وحكمائها، وإلى الله عزّ وجل الرغبة في الهداية إلى صالح الأعمال، وبه المعاذ من الزلل في مقال وفعال، ونستغفره من فعل لا يرضيه، وقول يحث على معاصيه » وذكر في هذا الكتاب الخلفاء والكبراء من عظماء الإسلام الذين كانوا مولعين بالخمر، وأورد كثيرا من النوادر النثرية والشعرية المتعلقة بهم، فالكتاب فيه لغة وأدب وجمع لما يتعلق بالخمر مما يدل على أن المؤلف كان شريبا مدمنا، و له كذلك كتاب: الروح والارتياح، منه نسخة في خزانة الأستاذ صادق كمونة المحامي في بغداد، ولهذا الكتاب صلة بأمور الخمر، معاقرة الشراب، نقل منه فقرات في نفح الطيب ، الصبوح والغبوق، كتاب المتيّمين، النساء خصصه بأخبار الشاعرات المشهورات، كتاب نظم السلوك في مسايرة الملوك في مجلدات، توجد منه نحو كراس من القطع الكبير بالمكتبة الوطنية بتونس رقم 19383 وتشتمل هذه القطعة على حكايات عجيبة غريبة وبعضها لا يكاد يصدقها العقل، مما يصلح أن يثير انتباه المستمع وتعجبه.انظر ترجمته عند: محمد محفوظ، ترجمة المؤلفين التونسيين 379/2 .

05: عبد الكريم بن إبراهيم النهشلي التميمي القيرواني: الأديب الشاعر الناقد، العارف باللغة وبأيام العرب وأشعارها، ولم يهج أحدا، ولد بالمحمدية (المسيلة بالجزائر) وعاش بالقيروان، وأكمل بقية حياته في المهدية، لما قدم من المحمدية تابع دراسة العلم بالقيروان في وقت كانت القيروان زاخرة بأعلام العلماء وكبار الشعراء وكان متّبعا للقديم حتى شبّه بشعراء الجاهلية، تولى الكتابة في ديوان الخراج، ثم نقل إلى الكتابة في ديوان الإنشاء على عهد المعز بن باديس، من آثاره: الممتع في علم الشعر وعمله، وفيه نظرات نقدية نقل منها جملة ابن رشيق في «العمدة»، وفيه دقة التحليل، وسداد الحكم من ناقد كبير، وتلاميذ النهشلي وجدوا عنده المادة وأسلوب الأدب التقليدي والقواعد الأساسية للشعر، والأصول الموجّهة للنقد الأدبي، وابن رشيق وصل إلى القيروان في سنة 406/ 1015 – 16، ولا يبدو أنه كان تلميذا مباشرا للنهشلي المتوفى قبل ذلك بسنة، ولم يعرفه بالمسيلة، وكتاب الممتع وصلنا منه منتخب يظن أنه لابن منظور صاحب «لسان العرب»، وقد حقّقه د/المنجي الكعبي (الدار العربية للكتاب 1398/ 1978).

06 **القزاز (نحو 345 – 412 هـ)** : محمد بن جعفر القزّاز القيرواني، اللغوي الأديب الشاعر، قال ياقوت: كان إماما علامة قيما بعلوم العربية، رحل إلى المشرق وأخذ عن الآمدي صاحب ابن دريد والأخفش، وأقام مدة طويلة في مصر، حيث خدم الفاطميين، وبالخصوص العزيز الذي ألّف له عدة مؤلفات، ورجع إلى إفريقية بعد موت العزيز 386/ 996 حسب الظن الغالب فدرس اللغة والأدب، ومن تلامذته: ابن رشيق وابن شرف، ويعلى الأربسي، وابن الربيب، وعبد الرحمن المطرز، وسمع منه إبراهيم بن صدفة الغرناطي تأليفه «الجامع» في اللغة سمعه منه سنة 403هـ، وأخذ عنه غيره من الأندلسيين، قال ابن رشيق: كان مهيبا عند الملوك والعلماء، محبوبا عند العامة والخاصة، يملك لسانه ملكا شديدا، وقد مدحه الشعراء، مدحه الشعراء في حياته وكان محبوبا من الشعب لحياته المثالية وطيبته وكرمه، وكانت له ثروة طائلة سمحت له بإعانة بعض تلاميذه الفقراء، من مؤلفاته: أدب السلطان والتأديب في عشر مجلدات، إعراب الدريدية، مجلد واحد، ولعلها القصيدة المقصورة لابن دريد، أبيات معان في شعر المتنبي، كتاب الجامع في اللغة، قال عنه القفطي: أكبر كتاب صنف في هذا النوع وقال ياقوت الحموي: هو كتاب كبير حسن متقن يقارب كتاب التهذيب لأبي منصور الأزهري، رتبه على حروف المعجم، وقال حاجي خليفة في كشف الظنون: وهو كتاب معتبر، لكنه قليل الوجود، وهو كتاب عديم النظير، من مصادر لسان العرب لابن منظور، والقاموس للفيروزآبادي وبهذا يتبين أنه في اللغة لا علاقة له بالنحو وغير كتاب الحروف في النحو كما زعم بعض المعاصرين، شرح رسالة البلاغة في عدة مجلدات، كتاب الحروف، ذكر فيه معنى كل حرف ومثلا له واستعماله ووظيفته في الجملة، وفي مرآة الجنان لليافعي: «وكان العزيز بن المعز العبيدي صاحب مصر تقدم إليه أن يؤلف كتابا يجمع فيه سائر الحروف التي ذكر النحويون أن الكلام كله اسم وفعل وحرف جاء لمعنى. قال ابن الجزار وما علمت أن نحويا ألّف شيئا من النحو على حروف المعجم سواه، إلى أن قال: وبلغ جملة الكتاب الذي ألّفه للعبيدي ألف ورقة جمع فيه المفرق في الكتب النفيسة على أقصر سبيل وأقرب ما يؤخذ وأوضح طريق، وكأنه قد اقترح عليه أن يؤلفه على حروف المعجم على وجه لم يسبق إليه كما تقدم»، كتاب التعريض والتصريح أو التعريض فيما يدور بين الناس من المعاريض،

مجلد واحد، كتاب الضاد والظاء، مجلد واحد، كتاب ما يجوز استعماله لضرورة، كذا أسماه ياقوت، ويعرف أيضا بضرائر الشعر، حققه د. المنجي الكعبي ، كتاب المعشرات. معجم في اللغة لتعدد معاني الكلمات، كل كلمة لها عشرة معان مختلفة وأحيانا أكثر من ذلك، ط و ذكر في نهاية الكتاب أنه عازم على تأليف كتاب آخر عن الكلمات ذات المائة معنى واسمه كتاب المئات، كتاب الغلام و كتاب الحلى و الشيات، و أغلب هذه الكتب مفقود ما عدا كتب العشرات و الحلى و الشيات و ما يجوز للشاعر في الضرورة. انظر ترجمته عند: محمد محفوظ، ترجمة المؤلفين التونسيين ، 81/4.

07 الرياضي (223 – 298 هـ) إبراهيم بن أحمد الشيباني البغدادي، ويعرف بالرياضي: أبو اليسر، من أهل بغداد نزيل القيروان، العالم، الأديب الشاعر، قرأ ببغداد على جلة المحدّثين والفقهاء ولقي الجاحظ، والمبرّد، وثعلبا، وابن قتيبة، ولقي من الشعراء: أبا تمّام، ودعبلا، وابن الجهم، والبحتري، ومن الكتاب سعيد بن حميد وسليمان بن وهب، وأحمد بن أبي طاهر، وغيرهم.

جال في البلاد شرقا وغربا من خراسان إلى الأندلس، وقد ذكر ذلك في اشعار له، دخل الأندلس عن طريق البحر، وقدم على الخليفة محمد بن عبد الرحمن الأموي بقرطبة بكتاب اخترعه على ألسنة أهل الشام، فتقبله الخليفة محمد، وأنزله ووسع عليه، ووصله، واطلع على الكتاب، وعرف أنه مخترع مصنوع، فلما أراد أبو اليسر الانصراف رفع إليه كتابا مختوما جوابا عن كتاب أهل الشام فلما جاز أبو اليسر البحر فك الكتاب ليقرأه فإذا هو بياض ليس فيه إلا بسم الله الرحمن الرحيم فعلم أن تمويهه لم يجز، وأن الذي أعطاه الخليفة محمد وحباه به كان عن كرم وفضل، وعظم في عينه ملوك الأندلس ورجاله، وحدّث بما عرض له، وعجب الناس منه، وفي مدة إقامته بالأندلس جال في بلدانها فروى عنه جماعة، ثم نزل افريقية عن طريق البحر، ورحل إلى القيروان فاتصل بأميرها إبراهيم بن أحمد الأغلبي الثاني الذي أولاه رئاسة ديوان الرسائل، واستمر على ذلك في عهد ابنه أبي العباس عبد الله الثاني، وفي عهد زيادة الله الثالث آخر ملوك الامارة الأغلبية ضم إليها رئاسة بيت الحكمة، ويرى المؤرخ المرحوم الأستاذ ح. ح. عبد الوهاب أنه كان من الحاملين الأمير إبراهيم الثاني على تأسيس بيت الحكمة فقال: «ولا شك عندي أن أبا اليسر الشيباني كانت له أكبر يد في حمل إبراهيم الثاني على تأسيس «بيت الحكمة» الافريقي لما كان يعلمه من بيت الحكمة البغدادي، ولا ريب أنه كان من جلسائه، ومن الممتزجين بأساطين أعلامه»، ولما زالت الامارة الأغلبية انضم إلى دعوة العبيديين فابقاه عبيد الله المهدي على وظيفته شأن الدول الجديدة في عدم الاستغناء عن كبار موظفي العصر

السابق، والاستفادة من خبرتهم وكفاءتهم، وكتب بيده الكتب الكثيرة مع براعة خطه، وحسن وراقته، وحكي أنه كتب في كبره كتاب سيبويه كله بقلم واحد ما زال يبريه حتى قصر فأدخله في قرم آخر حتى فني بتمام الكتاب، وهو الذي أدخل افريقية رسائل المحدثين وأشعارهم وطرائف أخبارهم، وكان أديب الأخلاق، نزيه النفس، روى عنه ابنه يزيد، وأبو جعفر الكاتب، وعبد الله بن الصائغ، وتلميذه المختص به أبو سعيد عثمان بن سعيد الصيقل مولى زيادة الله بن الأغلب، توفي بالقيروان يوم الأحد 15 جمادى الأولى سنة 298 في أيام عبيد الله المهدي، ودفن بباب سلم.

مؤلفاته: الرسالة الوحيدة والمؤنسة، سراج الهدى، في القرآن ومشكله واعرابه ومعانيه، قطب الأدب، لقيط المرجان، وهو أكبر من عيون الأخبار لابن قتيبة، المرصعة المدبجة، مسند في الحديث، الرسالة العذراء، تلقيح العقول ، وهذه الكتب مفقودةما عدا الكتابين الأخيرين . انظر ترجمته عند: محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين 405/2 .

08 ابن غانم (128 – 190 هـ): عبد الله بن عمر بن غانم بن شرحبيل بن ثوبان الرعيني أبو عبد الرحمن، الفقيه، الورع، الثقة، الثبت، روى عن مالك، وعليه كان معتمده، وروى عن سفيان الثوري، وإسرائيل بن يونس، وعثمان بن الضحاك المدني، وجماعة، وروى بإفريقية عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم، وخالد بن عمران، ودخل الشام، والعراق في طلب العلم، ولقي أبا يوسف صاحب أبي حنيفة، وروى عنه سحنون في المدونة، وكان مالك إذا دخل عليه ابن غانم وقت سماعه أجلسه إلى جانبه، ويقول لأصحابه قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم: «إذا جاءكم كريم قوم فأكرموه» وهذا كريم في بلده، وتولى قضاء القيروان في أيام الأمير روح بن حاتم، ونظر يوما إلى قارورة في يد الأمير إبراهيم بن الأغلب فيها دهن يسير، فقال لإبراهيم: ما هذا؟ قال له: دهن، ثم قال كم تظن أنه يساوي؟ فقال له: هذا تافه يسير، كم عسى أن يساوي؟ فقال: إن ثمنه كذا وكذا درهما، وذكر له ثمنا كثيرا، فقال ابن غانم: ما هذا؟ فقال: السم القاتل، قال: أرنيه، فدفع إليه القارورة، فلما أخذها ضرب بها عمودا في المجلس فانكسرت، وذهب ما فيها، فقال له إبراهيم: ما صنعت؟ ! قال: أفنترك معك ما تقتل به الناس اغتيالا، وكان كثيرا ما ينشد هذين البيتين في مجلسه:

إذا انقرضت عني من العيش مدتي ...فإن غناء الباكيات قليل

سيعرض عن ذكري وتنسى مودّتي ...ويحدث بعدي للخليل خليل

وله كتاب جمع فيه ما سمعه من الإمام مالك يسمى ديوان ابن غانم. انظر ترجمته عند: محمد محفوظ: ترجمة المؤلفين التونسيين، 248/5 .

09 -القاضي عِيَاض (476 -544 هـ): عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي، أبو الفضل: عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته. كان من أعلم الناس بكلام العرب وأنسابهم وأيامهم. ولي قضاء سبتة، ومولده فيها، ثم قضاء غرناطة. وتوفي بمراكش مسموما، قيل: سمه يهودي. من تصانيفه " الشفا بتعريف حقوق المصطفى و الغنية في ذكر مشيخته، و ترتيب المدارك وتقريب المسالك في معرفة أعلام مذهب الإمام مالك ، و شرح صحيح مسلم و مشارق الأنوار مجلدان، في الحديث، والإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع في مصطلح الحديث وكتاب في التاريخ وجمع المقَّري سيرته وأخباره في كتاب " أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض ثلاثة مجلدات من أربعة و " الإعلام بحدود قواعد الإسلام و شرح حديث أم زرع و غيرها . انظر ترجمته عند: الزركلي خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الدمشقي، الأعلام، دار العلم للملايين، ط15، 2002 م، 99/5.

10 ابن الحداد (219 – 302 هـ) : سعيد بن محمد بن صبيح بن الحداد الغسّاني القيرواني، أبو عثمان، من علماء اللغة والفقه، والكلام، والجدل، مع قوة العارضة، وحضور البديهة، صحب الإمام سحنون، وكان يطربه جدا، ويذهب في الثناء عليه كل مذهب، وسمع من غيره من شيوخ القيروان كأبي سنان يزيد بن سنان الأزدي، ورحل إلى طرابلس فسمع الحديث من أبي الحسن الكوفي، وسمع منه ابنه عبد الله، وأبو العرب التميمي وأحمد بن موسى التمار، ولم تكن له رحلة إلى المشرق لقلة ذات يده، وإنما اثرى في شيخوخته بعد موت أحد أقاربه في صقلية وإرثه منه مالا جليلا، وكان قليل الاشتغال بجمع الرواية والكتب، وكان يقول: إنما هو النظر والخبر، ولو دخلت المشرق ما كانت لي به حاجة غير الخبر، مال إلى مذهب الشافعي من غير تقليد بل كثيرا ما كان يخالفه، بل كان مائلا إلى الاجتهاد، قال الخشني: «وكان مذهبه النظر والقياس والاجتهاد، لا يتحلى بتقليد أحد من العلماء، ويقول: إنما أدخل كثيرا من الناس إلى التقليد نقص العقول ودناءة الهمم، وكان يقول: القول بلا علة تعبد، والتعبد لا يكون إلا من المعبود وكان يقول: كيف يسع مثلي ممن آتاه الله فهما أن يقلد أحدا

من العلماء بلا حجة ظاهرة»، وكان مبغوضا من المالكية على عهد الأغالبة، إذ نقل عنه أنه كان يسمى «المدونة المدودة»، حتى هجره أصحاب سحنون، واغروا به القاضي ابن طالب فهمّ به، ثم نشأت بينهما صحبة فكان له على بر، ومع هذا قيل إنه كان معظما للإمام مالك، يسيء الرأي في الإمام أبي حنيفة وأصحابه، حتى روي عنه أنه قال: «تذكرت بقلبي مسائل لأبي حنيفة ركب فيها المحال اضطرارا نحو أربعمائة مسألة»، وكان فصحيا مفوها يمتلك المجلس بفصاحته وغزارة محفوظه، قال الخشني: «وكان أبو عثمان آنس الفقهاء مجلسا، وأغزرهم خبرا»، ولما زالت الدولة الأغلبية، وحلت محلها الدولة العبيدية الشيعية الإسماعيلية، حاول رجالها إفحام فقهاء القيروان، وإظهار عجزهم، وإسقاط مكانتهم لدى الجماهير عن طريق مجالس الجدل والمناظرة، بعد حملة مروعة من الاضطهاد، والتنكيل، فتصدى لهم سعيد بن الحداد، ودارت بينه وبين أبي العباس المخطوم شقيق الداعي أبي عبد الله الشيعي الصنعاني نحو من أربعين مجلسا احتفظ لنا الخشني بأربعة مجالس منها، وقد أظهر أبو عثمان في هذه المجالس التفوق والشفوف على مناظريه، فافحمهم وكشف عن تمويهاتهم، وأعانه على ذلك قوة عارضة، وبصره الجيد باللغة وإتقانه لأساليب الجدل والمناظرة، واطلاعه على المذاهب والنحل، فذب عن السنة، وقاوم زيغ وانحراف المذهب الاسماعيلي الباطني، حتى شبهه أهل القيروان بالإمام أحمد بن حنبل أيام المحنة، وكان له قبل ذلك مناظرات مع المعتزلة القائلين بخلق القرآن كالقاضي عبد الله بن هارون الكوفي، وعبد الله بن الأشج، وسليمان بن الفراء، وكان له مع الحنفية جولات ومراجعات قال الزبيدي: وكان العراقيون (أي اتباع الإمام أبي حنيفة) يوجهون إليه من تلاميذهم من يعنته ويسأله فحدثني بعض أهل القيروان قال: أتوه يوما فألفوه في الحمام فلقوه وهو خارج فقالوا له: اعزك الله كيف وجدت الحمام؟ فقال: غاية في الطيب فقالوا: أمن جهة الذوق وجدت طيبه أصلحك الله؟ فقال لهم: يا حثالة الزنادقة، واخوان المدابير، وتلاميذ الملحدين أرأيتم قوله عزّ وجل «حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بريح طيبة (سورة يونس الآية 22) أمن قبل الذوق وجد طيب الريح»؟ وله نظم كثير في ابن أخ له أسر، وفي ولد له مات، ولم يصلنا من هذا الشعر شيء، توفي في رجب وقيل في ذي القعدة، ولما مات خرج البريد سحرا يبشر أمير بني عبيد ودفن بمقبرة باب سلم ورثي بأشعار كثيرة، من مؤلفاته: كتاب الاستواء، كتاب الاستيعاب، كتاب الامالي،

توضيح المشكل في القرآن، منه قطعة في المكتبة الوطنية بتونس، رد على الشافعي، قال الخشني: «وله رد على الشافعي في كتاب لم يظهر على أيدي الناس، وأراه لم يأخذ نسخته، وكان مقدار تأليفه على الشافعي شقتين، كل شقة منها تسمى ثلث قرطاس فملأها ظهرا وبطنا»، العبادة الكبرى والصغرى، كتاب عصمة النبيين، كتاب المقالات، رد على أهل المذاهب أجمعين، معاني الأخبار، منه قطعة في المكتبة الوطنية بتونس، وله كتب أخرى لم تصلنا أسماؤها. ينظر: محمد محفوظ ، تراجم المؤلفين التونسيين، 105/2.

This document was created with Win2PDF available at http://www.win2pdf.com.
The unregistered version of Win2PDF is for evaluation or non-commercial use only.
This page will not be added after purchasing Win2PDF.